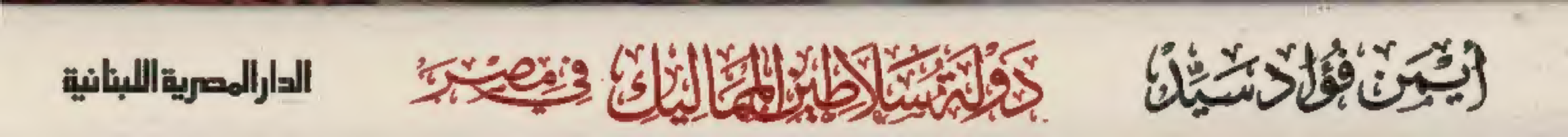
أيمن فؤاد سيد

دولة سلاطين المماليك في مصر

الدار اللبنانية


أيمن فؤاد سيد
دولة سلاطين المماليك في مصر
الدار المصرية اللبنانية

دولة سلاطين المماليك في مصر

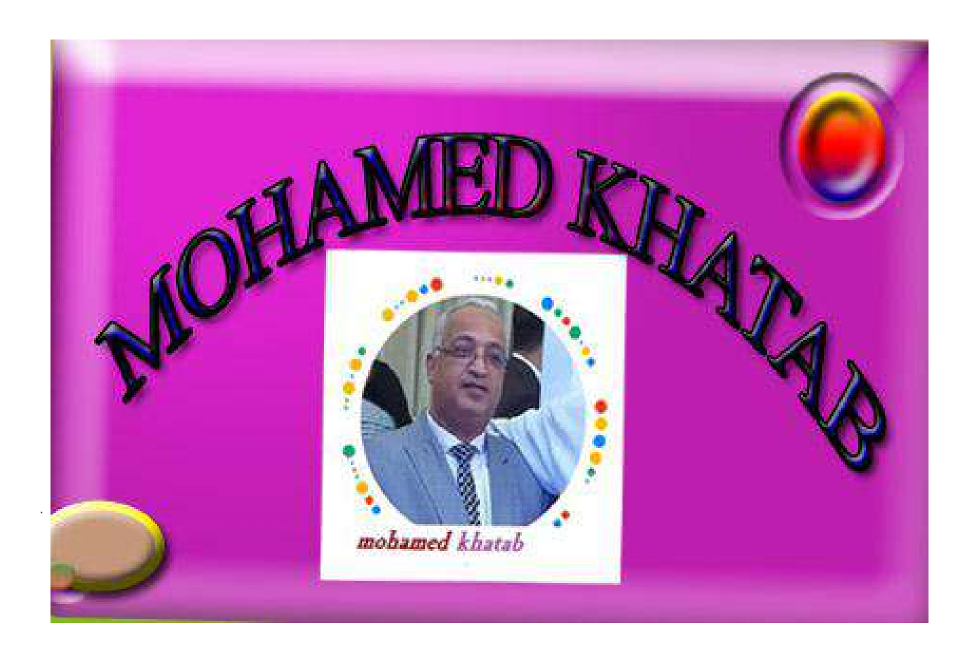
تَعَدَّدَت الدِّراساتُ التي تَناوَلَت عَصْرَ سَلاطِين المَمالِيك في مِصْر ، سَواءٌ التي كَتَبَها المُسْتَشْرِقُون أو الباحِثُون العَرَب ، ودَرَسَت التَّارِيخَ السِّياسِي والاقْتِصادِي والاجْتِماعِي والعَسْكَرِي وكذلك تارِيخَ النُّظُم والقَضاء والدَّواوِين الإدارِيَّة ورُسُوم البَلاط ، وخاضَ بعضُها في التَّفاصِيل الدَّقِيقَة للأحْدَاث . لذلك أصْبَحَت الحاجَةُ ماسَّة إلى دِراسَةٍ شامِلَةٍ تَتَناوَلُ الخُطُوطَ العَرِيضَة لدَوْلَةِ سَلاطِين المَمالِيك تُفِيدُ المُتَخَصِّص عن طَرِيق الإحالَة إلى أحْدَثِ الدِّراسات المُتَخَصِّصَة كما تُفِيدُ المُثَقَّف الذي يَنْشُدُ التَّعَرُّفَ على طَبِيعَة هذا النِّظام الذي انْفَرَدَت به الدَّوْلَة الإسْلامِيَّة.

ويَنْقَسِمُ هذا الكتابُ إلى قِسْمَيْن رَئِيسَيْن ، تَناوَلَ القِسْمُ الأوَّل أصُولَ النِّظَام المَمْلُوكي في مِصْر والتَّارِيخَ السِّياسِي لدَوْلَة سَلاطِين المَمالِيك (البَحْرِيَّة والشَّراكِسَة) باسْتِعْرَاض الخُطُوطِ العَرِيضَة والظَّواهِر الرَّئِيسَة لسِياسَات الدَّوْلَة مع تَحْلِيل أطْوارِ هذا التَّارِيخ دون الخَوْضِ في التَّفاصِيل الدَّقِيقَة للأحْدَاث ، مع الإحَالَة على أحْدَث الدِّراسَات التي تَناوَلَت تَفْصِيلًا هذه الظَّواهِر والأحْدَاث . وتَناوَلَ القِسْمُ الثَّاني بعض الظَّواهِر الحَضَارِيَّة للدَّوْلَة تَتَعَلَّقُ بالإنْتاجِ العِلْمِي والفِكْرِي وخَصَائِص المَصَاحِف المَمْلُوكِيَّة ونِظَام خَزائِن الكُتُب ثم التَّارِيخ العُمْراني في زَمَنِ سَلاطِين المَمالِيك وما يَخْتَصُّ منه بتَطَوُّر مَدِينَة القاهِرَة وامْتِدادِها ، وأخِيرًا نِظام المَدارِس الذي سادَ وانْتَشَرَ في عَصْرِهِم.



الدار المصرية اللبنانية

دولة سلاطين المماليك في مصر



سيد، أيمن فؤاد.
دولة سلاطين المماليك في مصر: أيمن فؤاد سيد- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2019.

284ص؛ 21سم.
تدمك: 9 - 214 - 795 - 977 - 978
1- مصر-تاريخ-عصر المماليك (1250-1517م).
2- دولة المماليك.
أ- العنوان. 953/082
رقم الإيداع: 1876/ 2019

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

الطبعة الأولى: 2019م

دولة سلاطين المماليك في مصر

أيمن فؤاد سيد

الدار المصرية اللبنانية



فهرست الموضوعات

صفحة

دَوْلَةُ سَلاطِين المَماليك في مِصْر

القِسْمُ الأوَّل
التَّـارِيخُ السِّياسِي

الدَّوْلَةُ التُّرْكِيَّة (دَوْلَةُ المَماليك البَحْرِيَّة)
(٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)

صفحة

دَوْلَةُ المَمالِيك الشَّراكِسَة (البُرْجِيَّة)
(٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)

القِسْمُ الثَّاني
التَّارِيخُ الفِكْرِي والعُمْرَاني

صفحة

صفحة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يَرْجِعُ الاهْتِمامُ بالدِّراسَات المَمْلُوكِيَّة في العَصْرِ الحَدِيث إلى نِهايَة القَرْنِ الثَّامِن عَشَر وبدايات القَرْنِ التَّاسِع عَشَر على أيْدِي المُسْتَشْرِقِين ، وارْتَبَطَ هذا الاهْتِمامُ في بادئ الأمر بالتَّعَرُّفِ على عَلاقَة المَمالِيك بالحَمَلات الصَّلِيبِيَّة المُتَأخِّرَة ، وعلى الأخَصّ تلك التي قادَها الملك لويس التَّاسِع Louis IX مَلِك فَرَنْسا Roi de France والتي انْتَصَرَ فيها المَمالِيكُ الذين وَضَعُوا نِهايَةً لحُكْم الأيُوبِيين في مِصْر ، ثم الدَّوْر الذي قامُوا به لإنْهاء وُجودِ الفِرِنْج الصَّلِيبِيين في سَواحِل الشَّام سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م ، ناهِيكَ عن تَصَدِّيهِم لخَطَرِ المُغُول القادِمِين من الشَّرْق بعد إسْقاطِهِم الخِلافَة العَبَّاسِيَّة في بَغْداد وإيقافِ تَقَدُّمِهِم صَوْبَ الغَرْب .

بَدَأ هذا الاهْتِمامُ في أعْقابِ الثَّوْرَة الفِرِنْسِيَّة من خلالِ أكادِيمِيَّة النُّقُوش والآداب Académie des Inscriptions et Belles - Lettres، التي أسَّسَها في بارِيس سنة ١٦٦٣ الوَزِيرُ الشَّهِير كولْبير Colbert في عهد المَلِك لويس الرَّابع عَشَر Louis XIV، والتي كان من بين أعْضَائِها آنَذاك اثْنان من ذوي الاهْتِمامات المَشْرِقِيَّة هما : إتْيان كاترمير Etienne Quatremère

وجُوزِيف تُوسَان رينو J. T.REINAUD، وقَرَّرُوا طَبْعَ سِلْسِلَةٍ تَحْمِلُ عُنْوان *Recueil des historiens des Croisades* خَصَّصُوا فيها قِسْمًا كَبِيرًا للمُؤَرِّخِين المَشَارِقَة كان في مُقَدِّمَتِها تَرْجَمَةُ مُنْتَخَبات من «حَوْلِيَّات أبي الفِـدَا» و«حَوْلِيَّات أبي شَامَة» تُغَطِّي السَّنَوات الأولى لحُـكْم دَوْلَة سَلاطِين المَمالِيك البَحْرِيَّة. كما كانت الحَمْلَةُ الفِرَنْسِيَّةُ على مِصْـر عند مُنْقَلَبِ القَرْنِ الثَّامِن عَشَر والتي اصْطَحَبَت معها مَجْموعَةً من العُلَماء مُناسَبَةً لتَوْجِيه الاهْتِمام لدِراسَة بعض الظَّواهِر التي شاهَدُوها بمِصْـر، حيث عاوَنَ JEAN - MICHEL VENTURE DE PARADIS، أحد أعْضاء الحَمْلَة، الرَّحَّالَة فولناي VOLNEY عن طريق ترجمته لنُسْخَة من كِتاب «زُبْدَة كَشْف المَمالِك» لخَلِيل بن شاهِين الظَّاهِري محفوظة بالمَكْتَبَة الوَطَنِيَّة الفِرِنْسِيَّة دَرَسَ من خِلالِها فولناي VOLNEY تاريخَ مِصْـر في زَمَنِ كُلٍّ من السُّلْطانين الأَشْرَف بِرْسِباي والظَّاهِر جَقْمَق حتَّى يَتَوافَر له فَهْمٌ أجْوَد لوَضْعِ مِصْر في ظِلِّ المَمْلُوكَيْنِ مُراد بك وإبْراهِيم بك. وفي الوَقْتِ نَفْسِه قام نَفَرٌ آخَرٌ من المُسْتَشْرِقِين بنَشْرِ، وأحْيانًا تَرْجَمَة، بعض النُّصُوص التَّارِيخِيَّة العَرَبِيَّة ذات الصِّلَة بتارِيخ المَمالِيك مثل «عَجائِب المَقْدُور في نَوائِب تَيْمُور» لابن عَرَبْشَاه.

ويُعَدُّ أنْطوان إسْحاق سِلْفِسْتَر دي ساسِي ANTOINE ISAAC SILVESTRE DE SACY (١٧٥٨-١٨٣٨) أبا الاسْتِشْراق الفِرِنْسِي الذي فَتَحَ مَجالًا رَحْبًا لدِراسَةِ الشَّرْق بكُتُبِه الرَّائِدَة في هذا المَجال. حيث نَشَر

وتَرْجَمَ في سنة ١٧٩٦ كِتابَ «شُذُور العُقُود» للمَقْرِيزِي ، وأحالَ بعد ذلك في العَدِيدِ من مُؤَلَّفاتِه إلى كِتابٍ آخَر للمَقْرِيزِي هو كِتابُه الشَّهِير «المَواعِظ والاعْتِبار» المعروف بـ«الخِطَط» . ونَقَلَ دي ساسي اهْتِمامَه بالمَقْرِيزِي إلى أحَدِ تلامِيذِه النُّجَباء هو إتْيان مارْك كاترمير ETIENNE - MARC QUATREMÈRE (١٧٨٢-١٨٤٣) الذي وَجَّه عِنايَتَه هذه المَرَّة إلى كِتابٍ آخَرَ للمَقْرِيزِي هو كِتابُ «السُّلُوك لمَعْرِفَة دُوَلِ المُـلُوك» وأعَدَّ له نَشْرَةً وتَرْجَمَةً فِرِنْسِيَّة بعُنْوان *Histoire des Sultans Mamluks de l'Egypte*، صَدَرَت في باريس بين سنتي ١٨٣٧-١٨٤٥، اشْتَمَلَت على القِسْم المُتَعَلِّق بالتَّارِيخ المُبَكِّر للدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة الذي يَتناوَلُ مُواجَهَتَهم مع الفِرِنْج الصَّلِيبِيين (من الظَّاهِر بَيْبَرْس إلى الأشْرَف خَلِيل) وزَوَّدَه بالعَدِيد من التَّعْلِيقات العِلْمِية ، وأضَافَ إلى ذلك نَشْر «مُقَـدِّمَة» ابن خَلْدُون الشَّهِيرَة بعُنْوان *Prolégomènes d'Ibn Khaldoun* في سنة ١٨٥٨م . وكَوَّنَت التَّعْلِيقاتُ والشُّرُوحُ العِلْمِيَّة التي عَلَّق بها كاترمير على ما وَرَد في كِتاب «السُّلُوك» للمَقْرِيزِي من مُصْطَلَحات خاصَّة بالمَناصِب العَسْكَرِيَّة والدِّيوانِيَّة المَمْلُوكِيَّة ولَعِب الكُرَة والقَبَق والفُرُوسِيَّة ... إلخ ، مادَّةً أصْلِيَّة اسْتَفادَ منها بعد ذلك رينهارت دوزي R. DOZY في كِتابِه «مُلْحَق المُعْجَمات العَرَبِيَّة *Suplement aux Dictionnaires Arabes*» وأصبحت كذلك نُقْطَة انْطِلاقٍ لدِراسات حول النُّظُم المَمْلُوكِيَّة قامَ بها بعد ذلك جودفري ديموبين - GAUDEFROY DEMOMBYNES وديفيد آيالون D. AYALON.

وكان جُشتاف ڤيل G. Weil (١٨٠٨-١٨٨٩)، أحد تَلامِيذ كاترمير، أوَّلَ من قَدَّمَ لنا تارِيخًا مُفَصَّلًا لدَوْلَة المَمالِيك في مِصْر يُحِيلُ على المَصَادِر الرَّئيسَة بعُنْوان «تارِيخ الخِلافَة العَبَّاسِيَّة في مِصْر *Geschichte des Abbasidenchalfats in Egypten*» صَدَرَ في شتوتجارت بين سنتي ١٨٦٠-١٨٦٢، وقامَ كذلك بتَرْجَمَةٍ للرِّوايَة المِصْرِيَّة لـ «أَلْف لَيْلَة ولَيْلَة».

أمَّا أهَمُّ دِراسَةٍ كلاسِيكِيَّةٍ تَناوَلَت تاريخَ دَوْلَة سَلاطِين المَمالِيك في مِصْر اعْتِمادًا على ما كان مُتوافِرًا من مَصَادِر التَّارِيخ المَمْلُوكي في نهاية القَرْن التَّاسِع عَشَر، فهي دون شك الدِّراسَة التي كَتَبَها وليم موير William Muir وصَدَرَت في لندن سنة ١٨٩٦ بعُنْوان *The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt 1260-1517* واعْتَمَد فيها في الأساس على ثَلاثَة مَصَادِر رَئيسَة تَوافَرَت لها نُسَخٌ في مَكْتَبات أوروبا غَطَّت الحِقْبَة المَمْلُوكِيَّة كُتِبَت جَمِيعُها في زَمَنِ دَوْلَة المَمالِيك الشَّراكِسَة، هي مُؤَلَّفات المَقْرِيزي وابن تَغْري بِرْدِي وابن إياس.

ونحو هذه الفَتْرَة كَتَبَ المُسْتَشْرِقُ الإنْجِليزي ستانلي لين بول Stanly Lane - Poole (١٨٥٤-١٩٣١) أوَّلَ دِراسَةٍ شَامِلَةٍ تَتَناوَل تارِيخَ مِصْر الإسْلامِيَّة بعُنْوان *History of Egypt in the Middle Ages* في وَقْتٍ لم يَكُن قد نُشِرَ فيه من مَصَادِر مِصْر الإسْلامِيَّة إلَّا النَّزْرُ اليَسِير، واسْتَعاضَ عن ذلك بالاطِّلاع على النُّسَخ الخَطِّيَّة لهذه المَصَادِر الموجودة في مَكْتَبات أوروبا، إضَافَةً إلى تَجارِب الطَّبع الخاصَّة بكِتابِ *Matériaux pour un*

والتي أَمَدَّه بها مُؤَلِّفُ الكِتاب *Corpus Inscriptionum Arabicarum* عالِم الكِتابات والنُّقُوش الأَثَرِيَّة السّويسْري ماكس فان بِرْشِم Max van Berchem (١٨٦٣-١٩٢١)، وأفْرَدَ الفُصُولَ الثَّلاثَة الأخِيرَة في كِتابِه (التَّاسِع إلى الحادِي عَشَر) لتاريخ دَوْلَتَيّ المَمالِيك في مِصْر وذَكَرَ في بِدايَة كُلِّ فَصْلٍ أَهَمَّ المَصَادِرَ الخاصَّة به والتي كانت مَعْرُوفَةً وَقتَ تأْلِيفِ الكِتاب .

ولا شَكَّ أنَّ أشْمَلَ دِراسَةٍ تَناوَلَت تارِيخَ مَصْر الإسلامية ،ومن خِلالِه تارِيخَ الحِقْبَة المَمْلُوكِيَّة ، هي الدِّراسَة التي قامَ بها قَبْل أكْثَر من ثَمانِين عامًا (١٩٣٧) المُسْتَشْرِقُ الفِرِنْسِي جاسْتون ڤييت G. Wiet (١٨٨٧-١٩٧١) والتي ما تَزالُ تَحْتَفِظُ بِقِيمَتِها وتَحْمِلُ عُنْوان «مِصْرُ العَرَبِيّة من الفَتْح العَرَبي إلى الفَتْح العُثْماني *L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane*» ومَثَّلَت الجُزءَ الرَّابع من سِلْسِلَة «تارِيخ الأُمَّة المِصْرِيَّة *Histoire de la Nation Egyptienne*» التي أشْرَفَ عليها جابرييل هانوتو Gabriel Hanotaux بتَوْجِيهٍ من المَلِك فُؤاد الأَوَّل ، وخَصَّصَ فيها الفُصُولَ الأخِيرَة لتارِيخِ دَوْلَتَيّ المَمالِيك (من صفحة ٣٣٥ إلى صفحة ٦٣٦). فقد كان ڤييت واحِدًا من أعْلَم المُتَخَصِّصِين بتارِيخ مِصْر الإسْلامية ومَصَادِر دِراسَة هذا التَّارِيخ ، وبالرَّغْم من أنَّها صَدَرَت قبل أكثر من ثَمانِين عامًا إلَّا أنَّها ما تَزالُ تَحْتَفِظُ بقِيمَتِها التي يُمْكِنُ اسْتِكْمالُ بعض مَظاهِر القُصُور فيها من الدِّراسات الجُزْئِيَّة التي ظَهَرَت بعد صُدُورِها وتَناوَلَت مَوْضُوعات تَفْصِيلِيَّة . وإلى جانِب ذلك قام ڤييت Wiet بترجمة

أقْسام من تارِيخ ابن إياس بعُنْوان «Histoire des Mamlouks Circassiens, Le Caire - IFAO 1945» ، وعَمَلِ قائِمَة بيوجْرافية بتَراجِم رجال المَمالِيك الوارِد ذِكْرهم في كِتاب «المَنْهَل الصَّافي والمُسْتَوْفي بعد الوافي» لأبي المَحاسِن يُوسُف بن تَغْري بِرْدِي *Les Biographies du Manhal Safi* (1932)، وتَرْجَمَة فِرِنْسِيَّة لكِتاب «إغاثَة الأُمَّة» للمَقْرِيزي ، واشْتَرَكَ مع لويس هوتكير Louis Hautecoeur في سنة ١٩٣٢ في تأْليف كِتابٍ لا غِنَى عنه عن «مَسَاجِد القاهِرَة *Les Mosquées du Caire*» تَضَمَّنَ قِسْمًا مُهِمًّا عن المَساجِد والمَدارِس المَمْلُوكِيَّة .

ولا يَقِلُّ عن ذلك أهَمِّيَّةً كِتاباتُ عالِم الآثار الإنْجليزي كِيبل أرْشِيبالد كَمِيرُون كريزويل K. A. C. Creswell (١٨٧٩-١٩٧٤) وعلى الأَخَصّ كِتابُه *The Muslim Architecture of Egypt* وإنْ كان تَوَقَّفَ فيه عند سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م أثْناء سَلْطَنَة النَّاصِر محمَّد بن قَلاوُون الثَّالِثَة، والتي يُمْكِنُ أنْ نُضِيفَ إليها الأعْمال التي أنْجَزَها بعد ذلك ميشيل مايْنِكَة M. Meinecke ومايْكِل رُوجَرْز M. Rogers ور. س. هامْفِري R. S. Humphreys وحَسَن عبد الوهَّاب وسُعاد ماهِر وأحمد فِكْري ودوريس بِهْرِن أبو سيف D. Behrens - Abouseif وحُسْني محمَّد نُويصر.

وكَتَبَ موريس جودفروي ديمومبين Maurice Gaudefroy - Demombynes (١٨٦٢-١٩٥٧)، أحد تلاميذ ماكْس فان بِرْشِم، أوَّلَ دِراسَةٍ عن بِلادِ الشَّام في عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك بعُنْوان *La Syrie à*

l'époque des mamelukes صَدَرَت في باريس سنة ١٩٢٣؛ كما كَتَبَ جاك سوفاجيه JACQUES SAUVAGET أوَّل دِراسَةٍ تَناوَلَت تاريخَ مَدِينَة إسْلامِيَّة، هي مَدِينَة حَلَب في شَمال سُورْيا، بعُنْوان *Alep: Essai sur le developpement d'une grande ville syrienne des origins au milieu du xix siècle,* Paris 1941، وأعْقَبَه بِقَولا زِيادَة بكِتابِه «*Damascus under the Mamluks,* Oklahoma 1964، دِمَشْق في العَصْر المَمْلُوكِي، بيروت ١٩٦٦»؛ كما خَصَّصَ إيرا مارفين لابِيدُوس IRA M. LAPIDUS دِراسَةً للعُمْران المَدَني للمُدُنِ الإسْلامِيَّة في العُصُورِ الوُسْطَى المُتَأَخِّرَة في كِتابِه *Muslim Cities in the Later Middle Ages,* Cambridge MA 1967؛ وخَصَّصَ جون كلود جارْسان JEAN - CLAUDE GARCIN وجاك ريفو JACQUES REVAULT دِراسَةً تَناوَلَت «قُصُور ودُور القاهِرَة في العَصْر المَمْلُوكِي، *Palais et Maisons du Caire,* I. Epoque mamelouke, Paris - CNRS 1982».

وتَناوَلَ هِنْرِي لاوُسْت HENRI LAOUST بالدِّراسَة أفْكارَ الفَقِيه الحَنْبَلِي تَقِيّ الدِّين أحْمَد بن عبد الحَلِيم بن تَيْمِيَّة، أهَمّ المُنَظِّرين العَقائِدِيين للعَصْرِ المَمْلُوكِي والذي امْتَدَّ تأثِيرُه في بَعْضِ المُجْتَمَعات الإسْلامِيَّة إلى اليَوْم، في كِتابِه «دِراسَة في المَذاهِب الاجْتِماعِيَّة والسِّياسِيَّة لابن تَيْمِيَّة *Essai sur les doctrines sociales et politiques d'Ibn Taymiyya,* Le Caire - IFAO 1930».

ورَغْم اهْتِمام الكِتابات المُبَكِّرَة عن دَوْلَةِ سَلاطِين المَماليك وتَرْكِيزِها على دِراسَة فَتْرَةِ المُواجَهَة بين المَمالِيك والفِرِنْج الصَّلِيبِيين، إلَّا أنَّها اعْتَمَدَت على مَصَادِرَ كُتِبَت في أثْناء دَوْلَة المَمالِيك الشَّراكِسَة، وعلى الأخَصّ مُؤَلَّفات المَقْريزي وأبي المحَاسِن يُوسُف بن تَغْري بِرْدِي والسُّيوطي وابن إياس، بفَضْلِ جُهُودِ كاترمير في نَشْرِ كِتاب «السُّلُوك» للمَقْريزي ووِلْيم بوبر William Popper (١٨٧٤-١٩٦٣) في نَشْرِ أقْسامٍ من كِتابَيّ «النُّجُوم الزَّاهِرَة في مُلُوكِ مِصْرَ والقاهِرَة» و«حَوادِث الدُّهُور في مَدى الأيَّام والشُّهُور» لأبي المحَاسِن يُوسُف بن تَغْري بِرْدِي *Egypt and Syria Under the Circassian Sultans 1382-1458 A.D. - Systematic Notes to Ibn Taghri Birdi's History of Egypt*, I - II, Berkley 1955-1957؛ ثم مَشْرُوع باول كاله Paul Kahle لنَشْر كِتاب «بَدَائِع الزُّهُور في وَقائِع الدُّهُور» لابن إياس والذي أتَمَّه بعد ذلك محمد مصطفى في سلسلة النَّشَرات الإسْلامِيَّة التي تُصْدِرُها جَمْعِيَّةُ المُسْتَشْرِقِين الألمان.

ووَجَّه كذلك نَفَرٌ من الباحِثِين اليَهُود اهْتِمامَهُم إلى دِراسَة وتَفْسِير بعض المَظَاهِر المخْتَلِفَة للمُجْتَمَع المَمْلُوكِي، حيث كَتَبَ بولْياك A. N. Poliak دِراسَةً مُهِمَّةً عن «الإقْطَاع في مِصْر وسُورْيا وفِلَسْطِين ولُبْنَان (١٢٥٠-١٩٠٠) *Feudalisme in Egypt, Sirya*, Palestine and Lebanon (1250-1900)» (١٩٣٩)، ومَقالاً آخَر بعُنْوان «الثَّوَراتُ الشَّعْبِيَّة بمِصْــر في عَصْرِ المَمالِيك وأسْبابُها الاقْتِصادِيَّة *Les révoltes*

populaires en Egypte à l'époque des Mamelouks et leur causes économiques REI VII (1934)». كما كَتَبَ إلْياهو آشْتور Eliyahu Ashtor، أوَّل من تَعَرَّف على المَصَادِر المَمْلُوكِيَّة المحْفُوظَة في مكتبة الدَّوْلَة بفينا بالنِّمْسا (تارِيخ بَيْبَرْس المَنْصُوري وتارِيخ ابن الفُرات)، دِراسَتَه المُهِمَّة عن «التَّارِيخ الاجْتِماعِي والاقْتِصادي للشَرْقِ الأدْنَى في العُصُورِ الوُسْطَى *A Social and Economic History of the Near East in the Middle Ages*». ورَكَّزَ آشتور في دِراسَةٍ أخْرَى عن «تِجارَة الشَّرْقِ في العُصُورِ الوُسْطَى المُتأخِّرَة *Levant Trade in the Later Middle Ages*»، على العَلاقات التِّجارِيَّة والدِّبْلُوماسِيَّة بين السَّلْطَنَة المَمْلُوكِيَّة وجُمهورِيَّة البُنْدُقِيَّة ابْتِداءً من عام ٧٤٠هـ/١٣٤٠م، وإنْ تَعَرَّضَت بعضُ الآراء التي ذَهَبَ إليها إلى الكَثِير من النَّقْدِ وعلى الأخَصّ من المُسْتَشْرِق الفِرنْسي الكبير جون كلود جارْسان Jean - Claude Garcin والباحِثة الأمريكية جانيت أبو اللُّغْد Janet Abu - Lughod.

ولكن أهَمَّ الباحِثِين اليَهُود في مَجالِ الدِّراسات المَمْلُوكِيَّة هو دون شك ديفيد آيالون David Ayalon (١٩١٤-١٩٩٨) الذي رَكَّزَ عِنايَتَه ابتِداءً من عام ١٩٥٠ على دِراسة التَّجْهِيزات والنُّظُم العَسْكَرِيَّة للمَمالِيك في مِصْر والشَّام ووَضَعَهم في إطارِهِم التَّارِيخي، وقامَ بجُهْدٍ غير مَسْبوق في دِراسَة طَبِيعَة النِّظام العَسْكَري المَمْلُوكي، وكان أوَّلَ من تَنَبَّه إلى حَتْمِيَّة الاسْتِمْرارِيَّة بين نِظامَي الأيُّوبيين والمَمالِيك وإلى رُؤْيَة ابن خَلْدُون وتَفْسِيرِه

لظاهِرَة المَماليك . وقد جُمِعَت مَقَالاتُ ودِراسَاتُ آيالون وصَدَرَت في ثَلاثَة مُجَلَّدات في سلسلة *Variorum Reprint* بعُنْوان *Studies on the Mamluk of Egypt (1250-1517),* London - Variorum Reprint 1977; *The Mamluk Military Society,* London - Variorum Reprint 1977; *Outsiders in the Lands of Islam: Mamluks,* Mongols and Eunuchs, London - Variorum Reprint 1988.

ويأتي في الجِيل الثَّاني الباحِثَةُ الإسْرائِيلِيةُ من أصُولٍ عِراقِيَّة أمِيلْيا ليفانوني AMELIA LEVANONI التي كَتَبَت سِلْسِلَةً من الدِّراسات التي تَناوَلَت العَدِيدَ من الظَّواهِر التي صاحَبَت دَوْلَة سَلاطِين المَمالِيك ، وعلى الأخَصّ في مجلة *MSR*، يأتي في مُقَدِّمَتها كِتابُها A. LEVANONI, *A Turning Point in Mamluk History. The Third Reign of al - Nasir Muhammad Ibn Qalawun 1310-1341,* Leiden - Brill 1995. ودَرَسَ باحِثٌ آخَر هو أميتاي بريس R. AMIATI - PREISS العَلاقات المَمْلُوكِيَّة المُغُولِيَّة والحَرْب بين المَمالِيك والإيلْخانِيين في كِتابِه *Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid War 1260-1281,* Cambridge 1995.

وتَناوَلَت باتريشْيا كرون PATRICIACRONE ظاهِرَة المَمالِيك باعْتِبارِها ظاهِرَةً إسْلامِيَّةً واضِحَةً في كِتابِها *Slaves on Horses : The Evolution of Islamic Polity,* Cambridge 1980 مُعْتَمِدَةً في ذلك على آراء ابن خَلْدُون في المُقَدِّمَة . وفَعَلَ الشَّيءَ نفسه دانيال بيبس في كِتابِه DANIEL

PIPES, *Slave Soldiers and Islam: The Genesis of a Military System,* New Haven 1981.[1]

ولم تَبْدأ الدِّراساتُ العَرَبِيَّةُ الأكادِيمِيَّة عن الحِقْبَة المَمْلُوكِيَّة إلّامع إنْشاء الجامِعَة المِصْرِيَّة الرَّسْمِيَّة سنة ١٩٢٥، حيث بَدَأ طَلَبَتُها بالاحْتِكاك بجِيلِ المُسْتَشْرِقِين الذين اسْتَعانَت بهم الجامِعَة إضَافَةً إلى البَعَثات الدِّراسِيَّة التي أوفِدَ فيها خِرِّيجو الجامِعَة، وعلى الأخَصّ إلى جامِعات فرنسا وإنْجِلْترا وألْمانْيا، فدَرَسُوا مَناهِجَ المَدارِس الحَدِيثَة في دَرْسِ التَّارِيخ وكِتابَتِه. ولعل أوَّلَ رِسالَةٍ بينها تَناوَلَت الحقْبَة المَمْلُوكِيَّة هي رِسالَة الدُّكتوراه التي تَقَدَّمَ بها محمَّد مصطفى زِيادَة (١٩٠٠-١٩٦٨) إلى جامِعَة لِيفَرْبول بإنْجِلْترا سنة ١٩٣٠ وكان موضُوعُها «العَلاقات الخارِجِيَّة لِمِصْر في القَرْن الخامِس عَشَر *Foreing Relations of Egypt in the Fifteenth Century*» وهي التي وَجَّهَتْه إلى دِراسة تارِيخ المَمالِيك في مِصْر والتَّخَصُّص فيه. وبَدأ هذا النَّشاط بإعْدادِ نَشْرَةٍ نَقْدِيَّةٍ لكِتاب «السُّلُوك لمَعْرِفَة دُوَلِ المُلُوك» للمَقْرِيزِي صَدَرَ جُزؤها الأوَّل سنة ١٩٣٤، وهو الكِتاب الذي لَفَتَ الانْتِباهَ إليه قبل قَرْنٍ المُسْتَشْرِقُ الفِرنِسِي إتْيان كاترمير ETIENNE QUATREMÈRE.

---

(١) استفدت في هذا العَرْض مما كتبه روبرت إروين في مقاله R. IRWIN, «Under Western Eyes: A History of Mamluk Studies», *MSR* IV (2000), pp.27-51.

وحَظِيَت الفَتْرَةُ المُبَكِّرَةُ من تارِيخ دَوْلَة المَماليك بدراسَة الجِيل الثّاني من خِرِّيجي الجامِعة المصْرِيَّة، فكَتَبَ جمال الدِّين سُرُور (١٩١١-١٩٩٢) رِسالَتَه الأُولى عن «الظَّاهِر بَيْبَرْس وحَضَارَة مِصْر في عَصْرِه» (١٩٣٨) ورِسالَتَه الثَّانِية بعُنْوان «دَوْلَة بني قلاوون في مِصْر» (١٩٤٧) وهي أفْضَل من الكِتاب الأوَّل. ثم كَتَبَ علي إبراهيم حسن رِسالَتَه «دِراسات في تارِيخ المَمالِيك البَحْرِيَّة وفي عَصْرِ النَّاصِر محمَّد بوَجْهٍ خاصّ» (١٩٤٤). وتَوالَت بعد ذلك الدِّراساتُ التي تَناوَلَت مُخْتَلَف مَناحِي الحِقْبَة المَمْلُوكِيَّة السِّياسِيَّة والعَسْكَرِيَّة والاقْتِصادِيَّة والاجْتِماعِيَّة ،نَخُصُّ منها دِراسات كُلٍّ من السَّيِّد الباز العَرِيني «المَمـالِيك (أو الفُرُوسِيَّة في مِصْر في عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك)» (بيروت ١٩٦٨م)، وسَعِيد عبد الفَتَّاح عاشُور «المُجْتَمَعُ المِصْرِي في عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك» (القاهرة ١٩٦٢)، وأحمد مُخْتار العَبَّادي «قِيامُ دَوْلَة المَمالِيك الأولى في مِصْر والشَّام» (بيروت ١٩٨٦م)، وأحمد دَرَّاج «*L'Egypte sous le règne de Barsbay 825-841/1422-1438* (Damas) 1961»، وإبراهيم علي طَرْخان «النُّظُمُ الإقْطاعِيَّة في الشَّرْقِ الأَوْسَط في العُصُورِ الوُسْطَى» (القاهرة ١٩٦٨)، وعبد اللَّطِيف إبراهِيم «دِراساتٌ تارِيخية وأثرِيَّة في وَثائِق من عَصْرِ الغُورِي» (١٩٥٦) (لم تُنْشَر)، وحَسَن الباشا «الألْقابُ الإسْلامِيَّة في التَّارِيخ والوَثائِق والآثار» (القاهرة ١٩٦٣). ويأتي في طَبَقَة لاحِقَة حَسَنِين محمَّد رَبِيع «*The Financial System of Egypt A. H. 564-741 A. D. 1169-1341*», London 1972، وأحمد

عبد الرَّازِق « La Femme au temps des Mamlouks en Egypte (Le Caire 1973» ، وقاسِم عبده قاسِم «عَصْرُ سَلاطِين المَمالِيك ـ التَّارِيخ السِّياسِي والاجْتِماعِي» (القاهرة ١٩٩٨) .

وأصْدَرَت جامِعَةُ شِيكاغُو بالولايات المتحدة الأمريكية دَوْرِيَّةً عِلْمِيَّةً تُعْنَى بالدِّراسات المَمْلُوكِيَّة بعُنْوان *Mamluk Studies Review (MSR)*، صَدَرَ العَدَدُ الأوَّل منها سنة ١٩٩٧، اشْتَمَلَت على عَدَدٍ كبيرٍ من الدِّراسات المُتَخَصِّصَة بأقْلام باحِثِين غَرْبِيين وباحِثِين عَرَب مُقِيمِين في الغَرْب ، إضَافَةً إلى عُرُوض الكُتُب التي تَتَناوَل الحِقْبَة المَمْلُوكِيَّة والصَّادِرَة حَدِيثًا . كما تَضَمَّنَت أعْمالُ النَّدَوات العِلْمِيَّة التي أشْرَفَ على تَنْظِيمِها المُسْتَشْرِق إيربان فيرمولين U. VERMEULEN في الجامعة الكاثُولِيكِيَّة بلوفان ببلجيكا ، والتي تَصْدُرُ أعْمالُها منذ عام ١٩٩٥ عن دار نَشْر بيترس ببلجيكا Peeters Publishers بعُنْوان *Egypt and Sirya in the Fatimid, Ayyubid and Mamluk Eras*, I-IX, 1995-2018 العَدِيدَ من الدِّراسات المُتَخَصِّصَة عن مِصْر والشَّام في العُصُورِ الفاطِمِيَّة والأيُّوبِيَّة والمَمْلُوكِيَّة أيضًا بأقْلام باحِثِين غَرْبِيين .

ونَظَرًا لغَزارَة الإنْتاج التَّارِيخي الذي وَصَلَ إلينا من العَصْرِ المَمْلُوكِي اهْتَمَّ بَعْضُ الباحِثِين بدِراسَة الكِتابَة التَّارِيخِيَّة في العَصْرِ المَمْلُوكِي كان أوَّلُهُم محمَّد مصطفى زِيادَة بكِتابِه «المُؤَرِّخُون المِصْرِيُّون في القَرْن الخامِس عَشَر المِيلادِي» (١٩٤٩) ؛ ثم كَتَبَ دونالد ليتل D. LITTLE دِراسَتَيْنِ حَوْلَ الكِتابَة التَّارِيخِيَّة المَمْلُوكِيَّة الأولى بعُنْوان *An Introduction to Mamluk*

والثَّانِيَة بِعُنْوان *Historiography,* Wiesbaden 1970 *History and* *Historiography of the Mamluks,* London 1986؛ وكَتَبَ أولرخ هارمان U. Haarmann دِراسَةً بالألْمانية تَناوَلَت المَوْضُوعَ نَفْسَه بعُنْوان *Quellen studen zur fruhen Mamluken zeit,* Freiburg 1970، كما كَتَبَ أحمد عبد الرَّازِق دِراسَةً بعُنْوان «دِراسات في المَصَادِر المَمْلُوكِيَّة المُبَكِّرَة (المَصَادِر التَّارِيخِيَّة) » (القاهرة ١٩٧٤) اعْتَمَدَ فيها بالأساس على دِراسَة دونالد ليتل؛ وأفْرَدَ كاتِبُ هذه السُّطُور فَصْلًا تَناوَلَ فيه مَدْرَسَة التَّارِيخ المِصْرِي في العَصْرِ المَمْلُوكِي في كِتابِه «الكِتابَةُ التَّارِيخِيَّة ومَناهِجُ النَّـقْدِ التَّارِيخِي عند المُؤَرِّخِين المُسْلِمِين» (القاهرة ٢٠١٧).

وتَمَّ نَشْرُ أغْلَبِ مَصَادِر ووَثَائِق العَصْر المَمْلُوكي ابْتِداءً من النِّصْف الثَّاني للقَرْنِ العِشْرين[1] فوَفَّرت مادَّةً غَنِيَّةً ساعَدَت جِيلَ الباحِثِين المُعاصِرِين في كِتابَةِ رَسائِل جامِعِيَّة تُعالِجُ مَسائِل تَفْصِيلِيَّة من التَّارِيخ المَمْلُوكي لا شَكَّ أنَّه عند اكْتِمالِها ستُساعِدُ على كِتابَة دِراسات شَامِلَة Synthèse عن حِقْبَة سَلاطِين المَماليك التي امْتَدَّت لفَتْرَةٍ قارَبَت الثَّلاثَة قُرُون.

ومن بين الدِّراسات التي ظَهَرَت حَدِيثًا وأعادَت عَرْضَ بعض فَتَرات التَّارِيخ المَمْلُوكي وقَضاياه اعْتِمادًا على هذه المَصَادِر، أشِيرُ إلى خَمْسَة أعْمالٍ كُتِبَت بالإنْجليزِيَّة هي: R. Irwin, *The Middle East in the*

---

[1] راجع أيمن فؤاد سيد: الكتابة التاريخية ومناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٧، ١٢٩–١٤٨.

Middle Ages: The Early Mamluk Sultanete 1250-1382, London 1986؛ و L. S. NORTHRUP, *From Slave to Sultan. The Career of al-Mansur Qalawun and the Consolidation of Mamluk Rule in Egypt and Syria (676-689 A.H./ 1279-1290 A.D)*, Stutgart 1998؛ و C. PETRY, *The Civilian Elite of Cairo in the Later Middle Ages*, Princeton 1981, ID., Twilight of Majesty. *The Reigns of the Mamluk Sultans al-Ashraf Qayitbay and Qansuh al-Ghawri in Egypt*, Seattle 1993؛ و J. BERKEY, *The Transmission of Knowledge in Medieval Cairo: A Social History of Islamic Education*, Princeton 1992؛ وعَمَلٍ كُتِبَ بالعَرَبِيَّة هو هاني حَمْزَة : مِصْــرُ المَمْلُوكِيَّة (٦٥٨/١٢٥٠-٩٢٣/١٥١٧) - قِراءَةٌ جَدِيدَة ، ١-٢، الإسكندرية - دار العين للنشر ٢٠١٢-٢٠١٤.

*

* *

ويَنْقَسِمُ هذا الكتابُ إلى قِسْمَيْنْ رَئِيسَيْن ، تَناوَلْتُ في القِسْمِ الأَوَّل أُصُولَ النِّظَام المَمْلُوكي في مِصْر والتَّاريخ السِّياسِي لدَوْلَة سَلاطِين المَماليك (البَحْرِيَّة والشَّراكِسَة) مُسْتَعْرِضًا الخُطُوطَ العَرِيضَة والظَّواهِر الرَّئِيسَة لسِياسات الدَّوْلَة مع تَحْلِيل أَطْوارِ هذا التَّارِيخ دون الخَوْضِ في التَّفاصِيل الدَّقِيقَة للأَحْدَاث. وتَناوَلْتُ في القِسْم الثَّاني بعض الظَّواهِر الحَضارِيَّة للدَّوْلَة تَتَعَلَّق بالإِنْتاج العِلْمِي والفِكْرِي

وخَصائِص المَصَاحِف المَمْلُوكِيَّة ونِظام خَزائِن الكُتُب ثم التَّارِيخ العُمْراني في زَمَنِ سَلاطِين المَمالِيك وما يَخْتَصُّ منه بتَطَوُّر مَدِينَة القاهِرَة وامْتِدادِها وأخِيرًا نِظام المَدارِس الذي سادَ وانْتَشَرَ في عَصْرِهِم .

أيمن فؤاد سيد

مصر الجديدة في : ٢٨ صفر سنة ١٤٤٠هـ

٦ نوفمبر ٢٠١٨م


دولة سلاطين المماليك
في مصر

مَدْخَل

أدَّت الأخْطَارُ التي واجَهَت العالَم الإسْلامِي ابْتِدَاءً من نِهايَة القَرْنِ الخَامِس الهجري/ الحادِي عَشَر الميلادي مع طَلائِع جُيُوشِ الفِرنْج في الحَمْلَة الصَّلِيبِيَّة الأولى التي انْتَهَت بسُقُوطِ بَيْتِ المَقْدِس سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م إلى تَغَيُّرٍ كبيرٍ في شَكْلِ الدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّة، من أهَمّ مَلامِحِه هَيْمَنَةُ القادَة العَسْكَرِيّين من السَّلاجِقَة والتُّرْك والأكْرَاد والتُّرْكُمان على مَقَالِيدِ الأمُور، وهي عَنَاصِرُ شَدِيدَة المِرَاس والبأس قادَت الجُيُوشَ الإسْلامِيَّة أوَّلًا إلى اسْتِرْدَادِ بَيْتِ المَـقْدِس بعد مَعْرَكَةِ حِطّين سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م، ثم صَدِّ جُيُوشِ المُغُول في عَيْنِ جالُوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م بعد أنْ أسْقَطُوا الخِلَافَة الإسْلامِيَّة في بَغْدَاد قبل ذلك بعامَيْن. أي أنَّ قِيامَ هذه الأنْظِمَة جاءَ كاسْتِجابَةٍ سِياسِيَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ للظُّـرُوفِ التي واجَهَت العالَم الإسْلامِي حِينَئِذٍ.

وإذا كان السُّلْطَانُ النَّاصِرُ صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب (٥٦٤-٥٨٩هـ/١١٦٩-١١٩٣م)، مُؤَسِّسُ الدَّوْلَة الأيُّوبِيَة، قد نَجَحَ في تَوْحِيد الجَبْهَة الإسْلامِيَّة بعد أنْ وَضَعَ نِهايَةً للدَّوْلَة الفاطِمِيَّة الشِّيعِيَّة في مِصْر، في مَطْلَع سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، وتَصَدَّى لوُجُودِ الفِرنْج الصَّلِيبِيين في جَنُوبِي بِلادِ الشَّام وفِلَسْطِين واسْتَرَدَّ بَيْتَ المَـقْدِس بعد مَعْرَكَة حِطّين سنة

٥٨٣هـ/١١٨٨م[1]، فإنَّ خُلَفَاءَه الذين اقْتَسَمُوا دَوْلَتَه بَدَلًا من اسْتِكْمالِ مَسِيرَتِه في الجِهادِ ضِدَّ الفِرِنْجِ أخَذُوا في الاقْتِتالِ فيما بينهم، بل وَصَلَ الأمْرُ ببَعْضِهِم إلى حَدِّ الاسْتِعانَة بالفِرِنْجِ أنْـفُسِهِم ضِدَّ بعضهم البَعْض مثلما لجأ إلى ذلك من قَبْل وُزَراءُ الفاطِمِيين المُتأخِّرِين شَاوَر وضِرْغَام.

في ظِلِّ هذه الظُّرُوف بَدَأ نَجْمُ المَمالِيك، الذين اسْتَعانَ بهم السُّلْطَانُ الأيُّوبي الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م)، في الصُّعُودِ كقُوَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ جَدِيدَةٍ حَلَّت مَحَلَّ الأيُّوبِيين في التَّصَدِّي لخَطَرِ الفِرِنْجِ من ناحِيَة ولخَطَرِ المُغُول القادِمِين من الشَّرْقِ من ناحِيَةٍ أخْرى.

---

(١) راجع السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى ـ الأيوبيون، بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٦٧م؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٩٠م؛ أحمد فؤاد سيد: تاريخ مصر الإسلامية زمن سلاطين بني أيوب، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ٢٠٠٢م؛ محسن محمد حسين: الجيش الأيوبي في عهد صلاح الدِّين، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: «البِنْية البشرية لجيوش صلاح الدِّين»، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ـ جامعة الكويت ١٠ (١٩٩٠)، ٨-٤٣١؛ CL. CAHEN, *EI*[2] art. *Ayyubides I*, pp.820-30; M. CHAMBERLAIN, «The Crusader Era and the Ayyubids Dynasty», in *The Cambridge History of Egypte I*, pp.211-41; G. CHAUVEL, *Saladin - Rassembleur de l'Islam*, Paris - Pygmalion 1991; Y. LEV, *Saladin in Egypt*, Leiden - Brill 1999.

النِّظَامُ المَمْلُوكِي

هكذا أَسَّسَ المَمَالِيكُ، الذين أبْلَوْا بَلاءً حَسَنًا في التَّصَدِّي للحَمْلَة الصَّلِيبيَّة السَّابِعَة التي انْتَهَت بأَسْرِ قائِدِها المَلِك الفِرنْسِي لويس التَّاسِع Louis IX، أو ريدا فرانس أي (Roi de France) كما تُطْلِقُ عليه المَصَادِرُ العَرَبيَّة، في المَنْصُورة (٦٤٧-٦٤٨هـ/١٢٤٩-١٢٥٠م)، دَوْلَةً قَوِيَّةً وَرِثَت البَيْتَ الأَيُّوبي في مِصْرَ والشَّام، أضْحَت بعد انْتِصَارِهِم الكاسِح على جُيُوشِ المُغُول في مَوْقِعَة عَيْنْ جَالُوت، سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، أكبر قُوَّةٍ في العالَم الإسْلامِي خاصَّةً بعد أنِ اسْتَضَافَت في القَاهِرَة، سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، الخِلَافَةَ العَبَّاسِيَّة التي أسْقَطَها المُغُولُ في بَغْدَاد قبل ذلك بثَلاثِ سَنَوات، وقَضَائِها النِّهائي على بَقايا الفِرنْجِ الصَّلِيبِيين المَوْجُودِين في سَوَاحِل الشَّام سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م، واسْتَمَرَّت كذلك نحو ثَلاثَة قُرُون حتى سُقُوطِها في مُوَاجَهَةِ جُيُوشِ العُثْمانِيين سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م[1].

ويَرْجِعُ إنْشَاءُ نِظَامِ المَمَالِيك في دِيارِ مِصْر إلى السُّلْطَانِ الأَيُّوبي الصَّالِح نَجْم الدِّين أَيُّوب، فهو الذي أكثر من شِرَائِهِم وجَعَلَهُم مُعْظَمَ عَسْكَرِه وأحَلَّهُم مَحَلَّ الأُمَرَاء الذين كانوا عند أَبِيه وأخِيه حتى صَارُوا بِطانَتَه

---

(١) راجع لتفاصيل أكثر أحمد مختار العبّادي: قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، بيروت - دار النهضة العربية ١٩٨٦م؛ تركي بن فهد آل سعود: نشأة دولة المماليك (٦٤٨هـ/١٢٥٠م - ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) - إعادة قراءة للمصادر، القاهرة - عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٧م.

والمُحِيطِين بدِهْلِيزِه وسَمَّاهُم بـ «البَحْـرِيَّة» لسُكْنَاهُم معه في قَلْعَةِ الرَّوْضَة على بَحْرِ النِّيل[1]، والذي انْقَضَت بمَوْتِه دَوْلَةُ بني أَيُّوب من دِيارِ مِصْر بعد أنْ أقامَت إحْدَى وثَمانِين سَنَةً وسَبْعَة عَشْر يومًا ومَلَكَ منهم ثَمانِيَة مُلُوك .

ونِظَامُ دَوْلَة المَمَالِيك نِظَامٌ مُتَفَرِّدٌ في تارِيخِ الدُّوَلِ الإسْلامِية الحاكِمَة، وتَرْجِعُ أُصُولُهم إلى عَنَاصِر عِرْقِيَّة تُرْكِيَّة مُخْتَلِفَة ، وعلى الأَخَصِّ من بِلادِ القَبْجَاق والقُوقَاز في آسْيا الوُسْطَى، وفي مَرْحَلَةٍ لاحِقَةٍ انْضَمَّ إليهم العُنْصُرُ الشَّرْكَسِيّ والمُغُولِيّ والصَّقْلَبِيّ ثم الكُرْجِي (جورْجيا). وكانوا يُجْلَبُون صِغَارًا، ويُفَضَّلُ قبل سِنِّ البُلُوغ، حتى يُمْكِنُ تَنْشِئَتُهُم وتَدْرِيبُهُم . وكان يَتِمُّ تَعْلِيمُهُم في «الطِّبَاق» بقَلْعَةِ الجَبَل بالقاهِرَة[2] تَعْلِيمًا إسْلامِيًّا تَقْلِيدِيًّا

---

[1] المقريزي : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ٣: ٧٦٣-٧٦٤ والسلوك لمعرفة دول الملوك ١: ٣٣٩. وانظر عن نشأة نظام المماليك في الدولة الإسلامية دراسة أحمد فؤاد سيد : «ملاحظات جديدة حول ظهور المماليك» في كتاب دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين ، القاهرة ١٩٨٢م ، ٣٩-٨٠؛ PATRICIA CRONE, *Slaves on Horses: The Evolution of Islamic Polity*, Cambridge 1980.

[2] كانت الطِّباقُ عبارة عن قاعات متجاورة ، لا أدوار فوق بعضها البعض ، أنشأها السلطان الظَّاهر بيبرس إلى جانب بُرْج الزَّاوية المجاور لباب السِّرّ وكانت تطل على باب الدُّرْكاه الكبيرة وأنشأ كذلك داخل باب القرافة عِدَّة قاعات صغار لسكنى المماليك (ابن شداد : تاريخ الملك الظاهر ٣٤١) . وأضاف ابن شاهين الظاهري أن عددها اثنا عشر طَبَقَة كل طَبَقَة منها قَدْر حارة تشتمل على عِدَّة مساكن حتَّى إنه يمكن السكنى في كل طَبَقَة لألْف مملوك (زبدة كشف الممالك ٢٧ وانظر كذلك المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٦٩١-٦٩٥؛ A. LEVANONI, *EI*² art. *Tabaka* X, p.7). =

يَشْمَلُ تَلْقِينَهُم اللُّغَةَ العَرَبِيَّة ومَعْرِفَة الخَطّ وحِفْظَ القُرْآن والتَّمَرُّن بآداب الشَّرِيعَة ومُلازَمَة الصَّلَوات والأذْكار وغيرها من الأُمُورِ الشَّرْعِيَّة . فإذا بَلَغُوا سِنَّ البُلُوغ يَتِمُّ تَدْرِيبُهُم على أنْواعِ الحَرْب من اسْتِخْدَامِ السِّلاح والمُبارَزَة ورَمْي السِّهام ولَعِب الرُّمْح واسْتِخْدامِ القَوْس والنُّشَّاب وفُنُون الرُّكُوب والفُرُوسِيَّة، ويَسْتَغْرِقُ هذا الإعْدادُ فَتْرَةً ليست بالقَصِيرَة . وبانْتِهاء هذه المَرْحلَة يكون المَمْلُوكُ قد بَلَغَ دَرَجَةً كبيرةً في فَهْمِه للإسْلام وإجادَتِه لفُنُونِ القِتال ويَصِيرُ من الأُمَراء ، يقولُ المَقْرِيزِي :

«فلا يَبْلُغ هذه الرُّتْبَة إلَّا وقد تَهَذَّبَت أخْلاقُه وكَثُرَت آدابُه وامْتَزَجَ تَعْظِيمُ الإسْلام وأهْله بقَلْبِه ، واشْتَدَّ ساعِدُه في رِمايَة النُّشَّاب وحَسُنَ لَعِبُه بالرُّمْح ومُرِّنَ على رُكُوبِ الخَيْل، ومنهم مَنْ يَصِير في رُتْبَة فَقِيهٍ عارِف أو أدِيبٍ شَاعِرٍ أو حاسِبٍ ماهِرٍ ..... فلذلك كانوا سَادَةً يُدَبِّرُون المَمالِكَ وقادَةً يُجاهِدُون في سَبِيلِ الله وأهْلَ سِياسَةٍ يُبالِغُون في إظْهار الجَمِيل ويَرْدَعُونَ مَنْ جارَ أو تَعَدَّى»[1] .

والمَمالِيكُ من الرَّقِيقِ الأبْيَض ، ويُقْصَدُ بهم الرَّقِيقُ الذُّكُور من أصُولٍ تَنْتَمِي في الأغْلَبِ إلى الجِنْسِ التُّرْكِي والشَّرْكَسِي ولا يَدِينُون بالإسْلام ، ويَتَمَيَّزُون بقُوَّةِ الجِسْمِ وحُسْنِ الشَّكْلِ والذَّكاء ، وجُلِبُوا للبَيْع بواسِطَة تُجَّارِ

= أما موضع الطِّباق فكانت في الجانب الشمالي الشرقي للقلعة بالقرب من مسجد سليمان باشا (سيدي سارية) في الحوش الذي يطلق عليه الآن محكى القلعة (كازانوفا : تاريخ ووصف قلعة القاهرة ١٣٧-١٣٨) .

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٦٩٢-٦٩٣ والسلوك ١: ٥٢٥.

مُتَخَصِّصِين في أَسْواقِ الرَّقِيق بِمِصْر والشَّام، وبالتَّالي لا يُقْصَدُ بالكلمة المَعْنَى السَّلْبِي لها (عَبْد، خَادِم، غُلام) وإِنَّما اسْتُقْدِمُوا للخِدْمَة العَسْكَرِيَّة، أو كما قال ابن خَلْدُون: «لا لِقَصْدِ الاسْتِعْبَادِ، إِنَّمَا لإكْتَافِ العِصَابَة وتَغْلِيظِ الشَّوْكَة ونُزُوعٍ إلى العَصَبِيَّة الحامِيَة»[1].

وبِمُجَرَّد بَيْع المَمْلُوك تَنْقَطِعُ صِلَتُه بِبِلادِه الأَصْلِيَّة وأَهْلِه وأقارِبِه، ولا يُنْسَبُ إلى والِدِه أو عائِلَتِه. ويَحْتَفِظُ المَمالِيكُ فقط بأَسْمائِهِم التُّرْكِيَّة ويَحْمِلُ جَمِيعُهُم اسْم «ابن عبد الله» (انظر تراجِمَهُم في المَنْهَل الصَّافي لابن تَغْرِي بِرْدِي)، ويُنْسَبُوا إمَّا إلى الشَّخْصِ الذي اشْتَرَاهُم أو الْتَحَقُوا بِخِدْمَتِه أو إلى الشَّخْصِ الذي باعَهُم. وفي الحالَة الأُولى يُقالُ: فُلانٌ البُنْدُقْدَاري أو المَماليكُ الظَّاهِرِيَّة أو النَّاصِرِيَّة أو الأَشْرَفِيَّة على سَبِيل المِثال، أمَّا في الحالَة الثَّانِيَة فيُقالُ: فُلانٌ مِنْ مَهْدِي أو مِنْ طُطُخ، أي اسْم التَّاجِر الذي باعَه.

وعَبَّرَ ابن خَلْدُون عن ذلك مُعَلِّقًا على ما أَحاقَ بالدَّوْلَةِ الإسْلامِيَّة نَتِيجَةً لانْخِراطِها في التَّرَف، ثم تَعَرُّضِها لغَزْوِ المُغُول الذي أَدَّى إلى سُقُوطِ الخِلافَةِ الإسْلامِيَّة في بَغْدَاد مِمَّا اسْتَوْجَبَ دَعْمَ الدَّوْلَة بعَناصِرَ جَدِيدَةٍ عَبَّرَت عنها العَناصِرُ التُّرْكِيَّة التي مَثَّلَها نِظَامُ المَمالِيك بالعِبارات الدَّالَة الآتِيَة:

«حَتَّى إِذَا اسْتَغْرَقَتِ الدَّوْلَةُ في الحَضَارَة والتَّرَفِ، ولَبِسَت أَثْوابَ البِلَى والعَجْزِ، ورُمِيَتِ الدَّوْلَةُ بكَفَرَةِ الطَّطَر الَّذين أَزَاحُوا كُرْسِيَّ

---

[1] ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ١٠: ٢٤٣.

الخِلَافَة ، وطَمَسُوا رَوْنَقَ البِلَاد ، وأَدَالُوا بالكُفْرِ مِنَ الإِيمَانِ بِمَا أَخَذَ أَهْلَها عِنْدَ الاسْتِغْرَاقِ في النِّعَم ، والتَّشَاغُل باللَّذَّاتِ ، والاسْتِرْسالِ في التَّرَفِ مِن تَكَاسُلِ الهِمَم ، والقُعُودِ عَن المُنَاصَرَة ، والانْسِلَاخِ مِن جِلْدَةِ البَأْس وشِعَارِ الرُّجُولَة . فكان مِن لُطْفِ اللهِ تَعَالى أَنْ تَدَارَكَ الإِيمَانَ بِإِحْياءِ رَمَقِهِ ، وتَلَافَى شَمْلَ المُسْلِمين بالدِّيارِ المِصْرِيَّة بحِفْظِ نِظَامِهِ ، وحِمَايَةِ سِيَاجِهِ ، بِأَنْ بَعَثَ لَهم مِنْ هَذِهِ الطَّائِفَةِ التُّرْكِيَّة وقَبَائِلِها الغَزِيرَة المُتَوَافِرَة أَمْدَادًا حَامِيَة ، وأَنْصَارًا مُتَوَافِيَةً ، يُجْلَبُونَ مِن دَارِ الحَرْبِ إلى دَارِ الإِسْلَام في مَقَادَةِ الرِّقِّ الَّذي كَمُنَ اللُّطْفُ في طَيِّه ، وتَعَرَّفُوا الخَيْرَ والعِزَّ في مَغَبَّتِهِ ، وتَعَرَّضُوا للعِنَايَة الرَّبَانِيَّةِ بابْتِلَائِهِ ، فيَدْخُلُونَ في الدِّينِ بعَزَائِمَ إِيمَانِيَّةٍ وخُلُقٍ بَدَوِيَّةٍ لَمْ يُدَنِّسْهَا لُؤْمُ الطِّبَاعِ ، ولا خَالَطَتْها أَلْوَانُ اللَّذَّاتِ ، ولا دَنَّسَتْها عَوارِضُ الحَضَارَة ، ولا كَسَرَ مِن سَوْرَتِها غَضَارَةُ التَّرَفِ .

ثُم يَخْرُجُ بِهِمُ التُّجَّارُ إلى مِصْر أَرْسَالًا كالقَطَا نَحْوَ المَوَارِدِ ، فيَسْتَعْرِضُهُم أَهْلُ المُلْكِ مِنهم ، ويَتَنَافَسُونَ في أَثْمَانِهم بما يَخْرُجُ عنِ القِيمَة ، لا لِقَصْدِ الاسْتِعْبَادِ ، إِنَّمَا هُوَ إِكْثَافٌ للعِصَابة وتَغْلِيظٌ للشَّوْكَة ونُزُوعٌ إلى العَصَبِيَّة الحامِيَة ، يَصْطَفُونَ من كُلٍّ منهم بما يُؤْنِسُونَه من شِيَمِ قَوْمِهِم وخُلُقِ عَشَائِرِهِم ، ثم يُنْزِلُونَهُم في غُرَفِ المُلْك [يعني الطِّبَاق بالقَلْعَة] ، ويأخُذُونَهُم في الصِّبَا ومُعَاهَدَة التَّرْبِيَة بحُدُودِ الدِّين ومُدَارَسَة القُرْآن ، ومُمَارَسَة التَّعْلِيم والكِتَاب ، حَتَّى يَشْتَدُّوا في ذلك ، ثم يَعْرِضُونَهُم على الرَّمْي والثَّقَافَة ورَكْضِ الخُيُول في المَيادِين ، والمُطَاعَنَة بالرِّمَاح والمُمَاصَعَة بالسُّيُوف ، حتى تَشْتَدُّ منهم السَّوَاعِد ، وتَسْتَحْكِمُ المَلَكات ، ويَسْتَيْقِنُوا منهم المُدَافَعَة عنهم والاسْتِماتَة دُونَهم .

فإذا بَلَغُوا إلى هذا الحَدّ ضَاعَفُوا أرْزاقَهُم ، ووَفَّرُوا من إقْطَاعِهِم ، وفَرَضُوا عليهم اسْتِجادَةَ السِّلاح وارْتِباط الخُيُول ، والاسْتِكْثار من أجْنَاسِهِم لمِثل هذا القَصْد ، ورُبَّما عَمَّرُوا بهم خِطَطَ المُلْك ، ودَرَجُوهُم في مَرَاتِبِ الدَّوْلَةِ ، فيَتَرَشَّحُ مَنْ يَتَرَشَّح منهم لاقْتِعَاد كُرْسِيِّ السُّلْطَان ، والقِيامِ بأُمُورِ المُسْلِمِين ، عِنَايَةً من الله تعالى سابِقَة ، ولَطَائِفَ في خَلْقِه سَارِيَة ، فلا يزالُ نَشْءٌ منهم يُرادِفُ نَشْئًا ، وجِيلٌ يَعْقُبُ جِيلًا ، والإسْلامُ يَبْتَهِجُ بما يَحْصُل له بهم من الغَنَاء ، والدَّوْلَةُ تَرِفُّ أغْصَانُها من نَضْرَةِ الشَّبَاب»[1] .

كانت الخِدْمَةُ في الجَيْشِ هي الطَّرِيقَ الوَحِيد للتَّرَقِّي في المَنَاصِب العَسْكَرِيَّة في العَصْرِ المَمْلُوكِي ، ولذلك كان الجَيْشُ مؤسَّسَةً مُغْلَقَةً على المَمَالِيك المَجْلُوبِين ، وتَكَوَّنَ في العَصْرِ المَمْلُوكِي الأوَّل (٦٤٨ـ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ـ١٣٨٢م) ـ الذي اشتهر بـ«الدَّوْلَة التُّرْكِيَّة» ـ من العَنَاصِر التُّرْكِيَّة في الأساس ، بينما غَلَبَ على العَصْرِ المَمْلُوكِي الثَّاني (٧٨٤ـ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ـ١٥١٧م) ـ الذي اشتهر بـ«الدَّوْلَة الشَّرْكَسِيَّة» أو بـ«الدَّوْلَة البُرْجِيَّة» ـ عُنْصُرُ الشَّرَاكِسَة وبعضُ العَنَاصِر المُغُولِيَّة والكُرْدِيَّة والرُّومِيَّة.

كان المَمَالِيكُ المَجْلُوبون يُقِيمُون في «الطِّبَاق» في قَلْعَةِ الجَبَل ويَخْضَعُون ـ كما سَبَقَ أنْ ذَكَرْت ـ لتَدْرِيبَاتٍ صارِمَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ ودِينِيَّةٍ، يَتِمُّ

---

[1] ابن خلدون : المصدر السابق ١٠ : ٢٤٢ـ٢٤٤؛ D. AYALON, «Ibn Khaldun's View of the Mamluk Phenomen», *JSAI* II (1980), pp.340-49.

بعدها انْخِراطُهُم في الفِرَقِ العَسْكَرِيَّة المَمْلُوكِيَّة، وعلى الأخَصّ ضِمْن المَمالِيك السُّلْطَانِيَّة، ويحصلون على جامَكِيَّات (أي مُرَتَّبات)، ويَتَمَلَّكُ كلٌّ منهم فَرَسٌ وأداةُ قِتال، ثم يبدأ في التَّرَقِّي في الرُّتَبِ العَسْكَرِيَّة، وعندئذٍ يُمْنَحُ بَدَلًا من الجامَكِيَّة إقْطاعًا.

ويتمُّ تَرَقِّي المَمالِيك وتَنَقُّلُهم من رُتْبَةٍ إلى أخْرَى وَفْقَ نِظامٍ دَقِيقٍ للوُصُولِ إلى الوَظائِف الرَّئِيسَة في الجَيْش وهي: أتابِك العَسَاكِر وأمِير سِلاح وأمِيرآخُور وأمِير مَجْلِس والدَّوادار، وهو التَّرَقِّي الذي يَتِمُّ من خِلالِه اخْتِيارُ السَّلاطِين، لذلك فقد مَنَعَ المَمالِيكُ نِظَامَ التَّوْرِيث فحافَظُوا بذلك على هذا النِّظام واسْتِمْرارِه، يُسْتَثْنَى من ذلك أبْنَاءُ المَنْصُور قَلَاوُون وأحْفادُه الذين تَوارَثُوا الحُكْمَ في الفَتْرَة بين سنتيّ ٦٨٩-٧٨٤هـ/١٢٩٠-١٣٨٢م لظُرُوفٍ خاصَّة، لذلك سنَجِدُ أنَّ أسْمَاءَ هؤلاء السَّلاطِين أسْمَاءٌ عَرَبِيَّةٌ إسْلامِيَّةٌ لأنَّهم وُلِدُوا أحْرارًا مُسْلِمِين مثل: خَلِيل ومحمَّد وحَسَن وشَعْبَان. وأُطْلِقَ على بَقِيَّة ذُرِّيَّة المَمالِيك الأحْرَار «أوْلاد النَّاس»، وهؤلاء لا يَحِقُّ لهم الانْدِرَاجُ في الوَظَائِف العَسْكَرِيَّة وإنَّما يَتَدَرَّجُون في الأعْمالِ الدِّيوانِيَّة والكِتابِيَّة[1].

---

(١) انظر عن أولاد الناس، وهم أبناءُ السَّلاطين وأبناءُ أمراء المماليك الذين ولدوا أحرارًا مسلمين ونشأوا داخل حدود السَّلْطَنَة المملوكية ويحملون أسماء عربية إسلامية، المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٨٦، السلوك ٣: ٢٧٤-٢٧٥، ٦٢٤-٦٢٥، ٧٥٤؛ A. LEVANONI, «*Awlad al-Nas* in the Mamluk Era», *MSR* IX/2 (2005), pp.201-22.؛ السيد صلاح الديكي: أولاد الناس في عصر سلاطين المماليك، القاهرة - عين للدراسات والبحوث ٢٠١٦م.

وتَكَوَّنَ الجَيْشُ المَمْلُوكِي من ثَلاثِ عَناصِر رَئِيسَة : مَمَالِيك السُّلْطان، وقُوَّات الأُمَرَاء ، وأَجْنَاد الحَلْقَة[١] . ويَتَدَرَّجُ هذا الجَيْشُ في تَسَلْسُلٍ دَقِيقٍ يبدأ من «أُمَرَاء العَشْرَوات»، وهم من يكون لهم عَشَرَةُ فُرْسَان قد تَزِيدُ إلى عِشْرِين ويُخْتارُ منهم صِغارُ الوُلاة ومَنْ كان مثلهم من أرْبابِ الوَظَائِف الصُّغْرَى، ثم «أُمَرَاء الطَّبْلَخاناه» وهم مَنْ تكون لهم إمْرَةُ أرْبَعِين فارِسًا قد تزيد إلى سَبْعِين أو ثَمانِين فارِسًا ويُخْتارُ من بينهم أرْبابُ الوَظَائِف والكُشَّاف بالأقاليم وأكابِر الوُلاة ، أمَّا أكابِرُ المَمالِيك فمن تكون له «إمْرَةُ مئة فارِس وتَقْدِمَة أَلْف فارِس» ويُخْتارُ منهم أصْحابُ المَناصِب الكُبْرى ونُوَّابُ السُّلْطَان . وتكون مَناشِيرُ الأُمَرَاء ومَنَاشِيرُ جُنْد الحَلْقَة من السُّلْطان أمَّا مَنَاشِيرُ أجْنَاد الأُمَرَاء فتكون من أُمَرَائِهم[٢].

---

[١] راجع عن أجْناد الحَلْقَة D. Ayalon, EI^2 art. *Halka* III, pp.101-102; A. Levanoni, «The Halqa in the Mamluk Army», *MSR* XV (2011), pp.37-65.

[٢] ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥م ، ٢٠ـ ٢١؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٧٠٠؛ D. Ayalon, «Studies in the Structure of the Mamluk Army», *BSOAS* 15 (1953), pp.203-38, 448-76, 16 (1954); pp.75-90; Id., «From Ayyubids to Mamluks», *REI* 49 (1981), pp.43-58; Id., «Aspects of the Mamluk Phenomenon», *Der Islam* (1976), pp.212-17, (1977), pp.1-13; R. S. Humphreys, «The Emergence of the Mamluk Army», *SI* XLV (1977), pp.67-99, XLVI (1977), pp.147-182؛ إبراهيم حسن سعيد : الجيش في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٣م ، ٨٧ـ ١٠٥؛ محمود نديم : الفن الحربي للجيش المصري في العصر=

ويُمْنَحُ المَمالِيكُ «إقْطاعات» تُدِرُّ عليهم، وكان يُخَصَّصُ للأمِير ثُلُثُ الإقْطَاع ولأجْنَادِه الثُّلُثَان. يقولُ ابن فَضْل الله العُمَرِي: إنَّ إقْطاعَ بعض أكابِر أُمَرَاء المِئِين المُقَرَّبِين من السُّلْطَان كان يَبْلُغُ مئتي ألْف دينار جَيْشِيَّة ورُبَّما زادَت على ذلك، وتَتَرَاوحُ إقْطاعاتُ أُمَرَاء الطَّبْلَخَاناه ما بين ثلاثين ألْف دينار وثلاثةَ وعشرين ألْفًا، أمَّا أُمَرَاءُ العَشَرَاوات فكان أقْصَاهَا سَبْعَة آلاف دينار إلى ما دون ذلك، بينما لا تَتَعَدَّى إقْطاعاتُ أجْنَادِ الحَلْقَة ألْف وخَمْس مئة دينار. أمَّا إقْطاعاتُ جُنْدِ الأُمَرَاء فإلى ما يراهُ الأمِيرُ من زِيادَةٍ بينهم ونَقْص. في الوَقْت الذي لا تُقارِبُ فيه إقْطاعاتُ الشَّام هذا المِقْدار بل تكون على الثُّلُثَيْنِ منها[1].

هكذا اسْتأثَر المَمالِيكُ بوَصْفِهِم أرْبابِ السُّيُوف المُمَثِّلِين للطَبَقَة العَسْكَرِيَّة الحاكِمَة بوَظائِف القِيادَة في الجَيْش كما خَصُّوا أنْفُسَهُم بوَظائِف

=المملوكي البحري، القاهرة ١٩٨٣م، ١٠٥ـ ١٢٠؛ وراجع عن الأسس التي قام عليها نظام الفروسية المملوكية وما طرأ عليها خلال عصر سلاطين المماليك من تغيير وتعديل السيد الباز العريني: المماليك (أو الفروسية في مصر في عصر سلاطين المماليك)، بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٦٨م.

(١) المصدر نفسه ٢٢-٢٣ و٤٣ـ ٤٥؛ المصدر نفسه ٣: ٧٠٠ـ ٧٠١؛ وكذلك D. AYALON, «The System of Payment in Mamluk Military Society», *JESHO* I (1957), pp.37-65؛ إبراهيم علي طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، القاهرة ـ دار الكاتب العربي ١٩٦٨م؛ نزار يونس حسن: نظام الإقطاعات الحربية في مصر المملوكية، رسالة ماجستير بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة ١٩٩٨م.

الإدارَة العُلْيا والوُسْطَى والصُّغْرَى، وتَمَتَعَ أُمَراؤُهُم وفُرْسانُهُم بالتَّالي بكُلِّ ما يَرْتَبِطُ بهذه الوَظَائِف من مُمَيِّزات ماليَّة وعَيْنِيَّة.

وكانت مَدِينَةُ القَاهِرَة التي أسَّسَها الفَاطِمِيُّون، سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، هي مَرْكَزَ الحُكْم في مِصْر إلى أنْ بَنَى الأَيُّوبِيُّون، الذين قادَ مُؤَسِّسُ دَوْلَتِهِم صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أَيُّوب انْقِلابًا سِلْمِيًّا، سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م، وَضَعَ نِهايَةً للحُكْم الفاطِمِي، «قَلْعَةَ الجَبَل» على الهَضَبَة المُتَقَدِّمَة من سَفْحِ المُقَطَّم بين سنتي ٥٧٢-٥٧٩هـ/ ١١٧٦-١١٨٣م. وهي تُمَثِّلُ بذلك تَجْدِيدًا حَقِيقِيًّا في أَنْماطِ البِنَاء في مِصْـر اسْتَمَدَّهُ الأَيُّوبِيُّون من الشَّام موطنهم الأصْلي. ومع ذلك فإنَّ «قَلْعَة الجَبَل» - رَغْم إنَّها إنْشَاءٌ أيُّوبي جديد - لم تَقُم بدَوْرٍ كبيرٍ في العَصْرِ الأيُّوبي، ولكن مع اسْتِيلاءِ المَمالِيك على السُّلْطَة في مِصْر كانت «قَلْعَةُ الجَبَل» أهَمَّ مِيراثٍ ورَثُوه عن الأَيُّوبيين؛ وأضْحَت منذ هذا التَّأْرِيخ مَقَرَّ الحُكْم في مِصْر وظَلَّت كذلك عِدَّةَ قُرُونٍ، حتى نَقَلَ الخِدِيو إسْماعِيل باشا مَقَرَّ الحُكْم نهائيًّا إلى قَصْرِ عابِدِين وَسَطِ القَاهِرَة الحَدِيثَة سنة ١٨٧٤م[1]. فكان

(1) راجع، المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٦٣٧-٦٩٨؛ P. Casanova, *Histoire et description de la Citadele du Caire, MMAF* IV (1891), pp.509-761 (نقله إلى العربية أحمد دراج بعنوان: تاريخ ووَصْف قلعة القاهرة، القاهرة ١٩٧٤م)؛ K. A. C. Creswell, *The Muslim Archutecture of Egypt*, Oxford 1958, (نقله إلى العربية عبد الرحمن زكي بعنوان: وَصْف قلعة الجبل، القاهرة ١٩٧٤م)؛ D. Behrens Abouseif, «The Citadel of

السُّلْطَانُ يُقِيمُ في قَلْعَةِ الجَبَل بحيث لا يُعَدُّ السُّلْطَانُ المَمْلوكي سُلْطَانًا إلَّا إذا سَيْطَرَ على القَلْعَة.

ويَذْكُرُ ابنُ فَضْلِ الله العُمَري، المتوفَّى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، ومُعاصِر السَّلْطَنَة الثَّالِثَة للنَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون، أنَّ حاضِرَة مِصْر في وَقْتِه كانت تَشْتَمِلُ على ثَلاثِ مُدُنٍ عِظَام صارَت كُلُّها مَدِينَةً واحِدَةً هي: الفُسْطَاط والقَاهِرَة وقَلْعَة الجَبَل[1].

ورَغْم أنَّ الدَّارِسِين اصْطَلَحُوا على تَقْسِيم تاريخ دَوْلَة المَمالِيك في مِصْر والشَّام إلى عَصْرَيْن: دَوْلَة المَمالِيك البَحْرِيَّة (أو الدَّوْلَة التُّرْكِيَّة)، ودَوْلَة المَماليك الشَّراكِسَة (أو البُرْجِيَّة)، فإنَّ هذا التَّمْييز يَخُصُّ فَقَط العَناصِرَ التي سادَت في كِلا الفَتْرَتَيْن، حيث غَلَبَ العُنْصُرُ التُّرْكِي على سَلاطِين العَصْرِ الأوَّل (باسْتِثناء المُظَفَّر بَيْبَرْس الجاشَنْكِير الذي كان شَرْكَسِيًّا)، بينما كان سَلاطِينُ العَصْرِ الثَّاني من الشَّراكِسَة (باسْتِثْناء الظَّاهِر خُشْقَدَم والظَّاهِر تَمُرْبُغَا اللذين كانا من أُصُولٍ رُومِيَّة يُونانِيَّة)، ولم يَحْدُث تَغْييرٌ جَوْهَرِيٌّ في تَنْظِيم الدَّوْلَتَيْن إلَّا ما يَفْرِضُه التَّطَوُّرُ الزَّمَنِي والذي تُوَضِّحه مُؤَلَّفاتُ ابن فَضْلِ الله العُمَري والقَلْقَشَنْدِي

Cairo Stage for Mamluk Ceremony», *An. Isl.* XXIV (1988), pp.25-79; N. RABBAT, *The Citadel of Cairo - A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture,* Leiden - E. J. Brill 1995.

[1] ابن فضل الله العمري: المصدر السابق ١٢-١٣، ٧٨.

والمَقْرِيزِي والسَّخَاوِي وابن ناظِر الجَيْش وخَلِيل بن شَاهِين الظَّاهِرِي[١].

---

(١) راجع عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ١ ـ ٢، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو ١٩٧٩ـ١٩٨٢م.

القِسْمُ الأوَّل

التَّـارِيخُ السِّياسِي



الدَّوْلَةُ التُّرْكِيَّة (دَوْلَةُ المَمَالِيك البَحْرِيَّة)

(٦٤٨ـ٧٨٤هـ/١٢٥٠ـ١٣٨٢م)

صُعُودُ البَحْرِيَّة إلى السُّلْطَة (٦٤٨ـ٦٥٨هـ/١٢٥٠ـ١٢٦٠م)

كانت الحَمْلَةُ الصَّلِيبِيَّةُ السَّابِعَة آخِرَ الحَمَلات الصَّلِيبِيَّة الكُبْرَى التي قادَها مَلِكٌ من مُلُوكِ الفِرِنْجِ وانْتَهَت بأَسْرِ قائِدِها الملك لويس التَّاسِع Louis IX مَلِك فَرَنْسا Roi de France في دار ابن لُقْمان بالمَنْصُورَة ، واضْطُرَّ أنْ يَفْتَدِيَ نَفْسَه وقُوَّادَه بمبلغ أرْبَع مئة أَلْف دِينار ، هكذا مُنِيَت الحَمْلَةُ بفَشَلٍ ذَرِيعٍ وعادَت من حيث أَتَت . وكان للدَّوْرِ البُطُولي الذي اضْطَلَعَ به مَمالِيكُ الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب خِلالَ هذه الحَمْلَة الفَضْلُ في بُزُوغِ دَوْرِهِم كقُوَّةٍ فَتِيَّةٍ جَدِيدَةٍ في العالَم الإسْلامِي[1] .

وفي الوَقْتِ نفسه نَجَحَت السُّلْطَانَةُ شَجَر الدُّرّ ، أرْمَلَةُ المَلِك الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب ، في إدارَة المَوْقِف بعد وَفاةِ زَوْجِها أثْناء مَرْحَلَة المُواجَهَة مع

---

[1] راجع محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة ١٩٦١م .

الفِرِنْج . ولكن انْفِرادَها بالحُكْم ـ بعد مَقْتَل السُّلْطان المُعَظَّم غَيَّاث الدِّين تُورانْشَاه ابن الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب الذي اسْتُدْعِيَ من دِيار بَكْر[١] ـ (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) لم يُنْظَر له بارْتِياح لخُرُوجِه عن المألُوف في العالَم الإسْلامِي واعْتِراض الخَلِيفَة العَبَّاسِي المُسْتَعْصِم بالله عليه واسْتِهْجانِه له ، إضَافَةً إلى تَحَرُّك أُمَراء البَيْت الأيُّوبي في الشَّام ضِدَّ مِصْر ، ممَّا اضْطَرَّها إلى قَبُولِ الزَّواجِ من أحَدِ كِبار أُمَراء المَمالِيك ، هو الأمِير عِزّ الدِّين أيْبَك التُّرْكُماني، وأنْ تَتَنازَلَ له عن السُّلْطَة بعد أنِ انْفَرَدَت بها ثمانِين يَوْمًا[٢] ، لِيَصْبَح بذلك أوَّلَ السَّلاطِين المَمالِيك وحَمَلَ لَقَبَ «المُعِزّ عِزّ الدِّين أيْبَك التُّرْكُماني» (٦٤٨ـ٦٥٥هـ/١٢٥٠ ١٢٥٧م)[٣] .

---

[١] راجع تركي بن فهد : المرجع السابق ١٣ـ٥٩.

[٢] راجع المقريزي : السلوك ١: ٣٦١ـ٣٦٨، ٤٠١ـ٤٠٤ والمواعظ والاعتبار ٣: ٧٦٤ـ٧٦٦؛ أبا المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٦: ٣٧٣ـ٣٧٩ والمنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٦: ٢١٩ـ ٢٢١؛ M. CHAPOUTEAU - REMADI, «Chajar ad - Durr (-1257). Esclave, mamluke et sultane d'Egypte» dans CH. A. JULIEN (ed.), *Les Africains* IV, Paris 1977, pp.101-27; A. LEVANONI, «Shagar ad-Durr. A Case of Female Sultanete in Medieval Islam» in *Egypt and Syria in Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras,* III, pp.209-18; L. AMMAN, *EI*[2] art. *Shadjar al-Durr* VIII, pp.181-82.

[٣] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٧٦٦ـ٧٦٨ والسلوك ١: ٣٦٨ـ ٤٠٤؛ أبو المحاسن : المنهل الصافي ١: ٢٠ـ٢٨؛ E. LEVANONI, «The Consideration of Aybak's Rule: An Example of Political Instability in the Mamluk State», *Der Islam* 71 (1994), pp.241-54.

هكذا وَرَثَ المَماليكُ البَيْتَ الأيُّوبي وامْتَدَّت سَلْطَنَتُهُم على نَفسِ الأراضِي التي حَكَمَها الأيُّوبيُّون ، باسْتِثْناء الأراضِي الواقِعَة شَرْقي نَهْرِ الفُرات التي احْتَلَّها المُغول الإيلْخانِيُّون ، وكانت لهم نَفْسُ إيديولُوجِيَّة الدَّوْلَة الأيُّوبيَّة التي بَدَأت مع النَّاصِر صَلاح الدِّين يُوسُف بن أيُّوب مُؤَسِّس دَوْلَتِهِم المُتَمَثِّلَة في الدِّفاع عن دَوْلَةِ الإسْلام من خَطَرِ الفِرِنْج الصَّلِيبِيين القادِمِين من الغَرْب والذي أُضِيفَ إليه الآن خَطَرُ المُغُول التَّـتَر القادِمِين من الشَّرْق .

وكان الصِّراعُ على السُّلْطَة في العَصْرِ المَمْلُوكِي مَصْدَرَ قَلَقٍ دائِمٍ، فقد كان باسْتِطاعَة أيِّ أميرٍ كَبيرٍ تَوَلِّي السَّلْطَنَة إذا حَصَلَ على تأييد كِبارِ الأُمَراء في القَاهِرَة أو نُوَّابِ الحُـكْم في الإسْكَنْدَرِيَّة ومُدُنِ الشَّام ، الذين كان لهم ـ نَظَرِيًّا على الأقَلّ ـ الطُّمُوحُ نَفْسُه إلى السُّلْطَة ، وهو ما عُرِفَ اصْطِلاحًا بِمَبْدَأ «الحُـكْمُ لمن غَلَب» ، فقد آمَنَ المَمالِيكُ بأحَقِّيَتِهِم جَمِيعًا في الجُلُوسِ على عَرْشِ البِلاد لأنَّهم نَشَأوا جَمِيعًا في ظِلِّ ظُرُوفٍ واحِدَة وأنَّهُم مُتَساوُون جَمِيعًا في هذا الحَقّ الذي يَفُوزُ به أقْواهُم وأجْدَرُهُم على الإيقَاعِ بالآخَرِين . وكان هذا الصِّراعُ يبدأ عادَةً عَقِبَ وَفَاةِ السُّلْطَان أو قَتْلِه دون أنْ يُحَدِّدَ مَنْ يَخْلُفَه على عَرْشِ السَّلْطَنَة. فعادَةً ما كان يَنْشَبُ صِراعٌ بين كِبارِ الأُمَراء الذين كانوا من خُشْداشِيَّة السُّلْطان الرَّاحِل أو من مَمالِيكِه السَّابِقين، يَحْسِمُه في الغالِب الأميرُ الذي يَنْجَحُ في الحُصُولِ على تأييد ودَعْمِ كِبارِ الأُمَراء[1].

---

[1] راجع عرضًا عامًّا لتاريخ دَوْلة المماليك البحرية عند G. Wiet, *L'Egypte arabe de*

وبَدَأ هذا الصِّراعُ بالفِعْل منذ السَّنَوات الأولى لحُكْم المَمالِيك في مِصْر، ففي سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م قامَ الأميرُ رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْسُ البُنْدُقْداري، أحَدُ المَماليك الصَّالحِيَّة القُدَامَى وأحَدُ قادَة البَحْرِيَّة، بمُحالَفَة السُّلْطان المُظَفَّر سَيْف الدِّين قُطُز (٦٥٧-٦٥٨هـ/١٢٥٩-١٢٦٠م) في مُقَاوَمَة المُغُول في عَيْن جَالُوت واشْتَرَكَ بفَعاليَّة في الحَرْبِ دون أنْ يَحْصُلَ على كُلِّ ما كان

---

la conquête arabe à la conquête ottomane 642-1517 de l'ère chrétienne, Paris 1937, pp.335-510; R. IRWIN, *The Middle East in the Middle Ages: The Early Mamluk Sultanete 1250-1382;* London 1986; P. M. HOLT, *The Age of the Croisades: The Near East from the Eleventh Century to 1517,* London & New York 1986; LINDA S. NORTHRUP, «The Bahri Mamluks Sultanate, 1250-1390», in CARL F. PETRY (ed.), *The Cambridge History of Egypt, I - Islamic Egypt 640-1517,* Cambridge 1998, pp.242-89; D. AYALON, *EI*[2] art. *Mamluks* VI, pp.299-305؛ ستانلي لين بول : تاريخ مصر في العصور الوسطى، ترجمة أحمد سالم سالم، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٤م، ٤٥٩-٥٧٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور : مصر في عصر دولة المماليك البحرية، القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩م والعصر المماليكي في مصر والشام، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٧٦م؛ أنطون خليل ضومط : الدولة المملوكية، التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري، بيروت ١٩٨٢م؛ عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي لدولة سلاطين المماليك في مصر ـ دراسة تحليلية للازدهار والانهيار، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨م؛ قاسم عبده قاسم : عصر سلاطين المماليك ـ التاريخ السياسي والاجتماعي، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث ١٩٩٨م؛ هاني حمزة : مصر المملوكية ـ قراءة جديدة، ١-٢، الإسكندرية ـ دار العين للنشر ٢٠١٢م؛ خالد علي عبد القادر : المماليك البحرية في مصر ـ دراسة مجتمعية تاريخية (٦٤٨-٧٨٤هـ/١٢٥٠-١٣٨٢م)، القاهرة ـ دار الفكر العربي ٢٠١٤م.

يَصْبُوا إليه، فقامَ باغْتِيالِ قُطُز بَطَلِ عَيْنْ جالُوت في حادِثٍ مُدَبَّر[١]، وبايَعَه سائِرُ الأُمَرَاء البَحْرِيَّة في مَكانِه وأصْبَحَ سُلْطانًا باسْم «الظَّاهِر رُكْن الدِّين بَيْبَرْس» (٦٥٨-٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) مُرَسِّخًا بذلك لمَبْدأ «الحُكْم لمَنْ غَلَب»[٢].

وفي العام التَّالي أعادَ بَيْبَرْس تَشْكِيلَ دَوْلَةٍ إسْلامِيَّةٍ في مِصْر بـ إحْياء الخِلافَة العَبَّاسِيَّة في القَاهِرَة (باعْتِبارِ الخِلافَة تُمَثِّلُ في ذلك الوَقْتِ السُّلْطَة الشَّرْعِيَّة الوَحِيدَة في المُجْتَمَع الإسْلامِي) بعد أنْ لجأ إليها نَفَرٌ من البَيْتِ العَبَّاسِي[٣]، وتولَّى السَّلْطَنَة بطَرِيقَةٍ شَرْعِيَّةٍ بعد أنْ فَوَّضَه الخَلِيفَةُ العَبَّاسي

---

[١] راجع بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ٤٦-٥٥؛ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر ٨: ٣٩-٦٤؛ المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ١: ٤١٧-٤٣٥؛ قاسم عبده قاسم: السلطان المظفر سيف الدين قُطُز بطل معركة عَيْن جالُوت، دمشق - دار القلم ١٩٩٨م؛ D. P. Little, *EI*² art. *Kutuz* V, pp.75-76؛ وانظر عن موقعة عين جالوت، وهي بُلَيْدَة بين بَيْسان ونابُلُس بفِلَسْطِين، عبد المنعم ماجد: «أضواء جديدة على موقعة عين جالوت»، الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٦-١٩٧٧م، القاهرة ١٩٧٨م، ١٥١-١٦٨؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ٦٥-٧٥؛ P. Thorau, «The Battle of *Ayn Jalut*. A Reexamenation» in P. W. Edbaury (ed.), *Crusade and Settlement*, Cardiff 1985, pp.336-41.

[٢] ابن أيبك: كنز الدرر ٨: ٦١-٦٢؛ المقريزي: السلوك ١: ٤٣٥-٤٣٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٨٥-٨٦.

[٣] راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ٩٩-١١٢، ١٤١-١٤٨؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٧٨٣-٧٨٧ ودرر العقود الفريدة ٢: ٢٠٧-٢١٥؛=

الجَدِيد ، المُسْتَنْصِرُ بالله أبو القاسِم أحمد بن الظَّاهِر محمَّد بن النَّاصِر لدين الله أحمد بن المُسْتَضِيءِ بالله ، في حُكْمِ «الدِّيار المِصْرِيَّة والبِلاد الشَّامِيَّة والدِّيار بَكْرِيَّة والحِجازِيَّة واليَمَنِيَّة والفُراتِيَّة وما يَتَجَدَّد من الفُتُوحات غَوْرًا ونَجْدًا» ، على الصُّورَة نفسها التي كان عليها السَّلاجِقَةُ في العِرَاق في القَرْنَيْن الخامِس والسَّادِس للهجرة/ الحادي عَشَر والثَّاني عَشَر للمِيلاد ، كما حَصَلَ من الخَلِيفَة على لَقَبِ «قَسِيم أَمِير المُؤْمِنِين» الذي لم يَحْصُل عليه أحَدٌ قَبْلَه[1].

وأعْطَى إحْيَاءُ الخِلاَفَة العَبَّاسِيَّة في القَاهِرَة كذلك صِفَةً شَرْعِيَّةً لحُقُوقِ مِصْرَ في السِّيادَة على الحِجَاز والتي كانت تَتَنازَعُها مع الخِلاَفَة العَبَّاسِيَّة في بَغْـدَاد منذ العَصْرِ الفاطِمِي . وأُضِيفَ إلى مَظَاهِر سِيادَة مِصْر على

D. AYALON, «Studies on the Transfer of the Abbasid Caliphate from Bagdad = to Cairo», *Arabica* VII (1960), pp.41-59; M. CHAPOUTOT REMADI, «Une institution mal connue: le Khalifat Abbaside du Caire», *CT* 20 (1972), pp.11-23; P. M. HOLT, «Some Observations of the Abbaside Caliphate of Cairo», *BSOAS* 47 (1984), pp.501-7؛ محمد عبد العال أحمد: أضواء جديدة على إحياء الخلافة العباسية: أسبابها ومواقف حكام بعض الأقطار الإسلامية منها، القاهرة ١٩٨٧م؛ R. AMITAI-PREISS, «The Fall and Rise of the Abbaside Caliphate», *JAOS* 116 (1996), pp.487-94؛ أحمد سالم سالم: «دراسة لتطور مفهوم الخلافة والسلطة بين المماليك والعثمانيين» ، المجلة التاريخية المصرية ٤٨ (٢٠١٢-٢٠١٣)، ٣٠٥-٣٣٥.

[1] ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ٩٩-١١٠؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٨: ٧٢-٧٩؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ١٩٩-٢٠٠ والسلوك ١: ٤٤٨-٤٥٧.

الحَرَمَيْن، ابتداءً من سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، إرْسَالُ «المَحْمَل» كُلَّ عام حامِلًا كُسْوَةَ الكَعْبَة، وتَعَيَّنَ على شَرِيفِ مَكَّة أنْ يَخْرُجَ إلى مَشَارِف مَكَّة لاستِقْبالِ رَكْبِ الحَجِّ المِصْري وتَعْلِيقِ الكُسْوَة على الكَعْبَة يوم وَقْفَةِ عَرَفَات مَقْرُونًا بالدُّعَاء للخَلِيفَة العَبَّاسِي والسُّلْطَان المَمْلُوكِي في مِصْر، وعلى الأخَصّ بعد أنْ قامَ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس بأداء فَرِيضَةِ الحَجِّ سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م، وقِيامِه كذلك بتَرْمِيم قُبَّة الصَّخْرَة وتَجْدِيدِ بِنَاء مَسْجِد الخَلِيل، عليه السَّلام، في فِلَسْطِين وإجْراء عَدَدٍ من الإصْلاحات بالمَسْجِد النَّبَوِي الشَّرِيف بالمَدِينَة المُنَوَّرَة وتَلَقَّب نتيجةً لذلك بلَقَبِ «خادِم الحَرَمَيْن»، فكان أوَّلَ مَنْ حَمَلَ هذا اللَّقَب[1].

وحَرَصَ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس على أنْ لا تُمَثِّلَ الخِلافَةُ العَبَّاسِيَّةُ في القاهِرَة قُوَّةً سِياسِيَّةً حَقِيقِيَّةً تَجْعَلُ منه مُجَرَّدَ تابِعٍ لها، فتَخَلَّصَ من الخَلِيفَة الأوَّل عندما أرْسَلَه على رأسِ قُوَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ صَغِيرَةٍ لمُحارَبَة المُغُول انْتَهَت بانْدِحارِ القُوَّة وقَتْلِ الخَلِيفَة نفسه[2]؛ فاسْتَدْعَى أمِيرًا عَبَّاسِيًّا آخَر ولَّاه الخِلافَةَ باسْم «الحاكِم

---

[1] ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٨٩-٩٢؛ المقريزي: السلوك ١: ٥٤٤ والذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ٨٩-٩٣؛ وانظر كذلك الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، ١-٣، أعده للنشر حمد الجاسر، الرياض - دار اليمامة ١٩٨٣م، ١: ٦٠٢-٦٠٣؛ J. JOMIER, *Le Mahmal et la caravane égyptienne des pélerins de la Mecque*, Le Caire 1953, pp.27-34.

[2] المقريزي: السلوك ١: ٤٦٢-٤٦٣، ٤٦٧، ٤٧٧؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ١١٣-١١٩.

بأمْر الله» وقَلَّصَ نُفُوذَه وسُلْطَتَه بحيث أصبَح الخَلِيفَةُ العَبَّاسي في مِصْـر مَحْجُورًا عليه ليس له أمْرٌ ولا نَهْيٌ وحَسْبُه أنْ يُقالَ له «أمِير المُؤْمِنِين»(١)، مُهِمَّته أنْ يكون واجِهَةً دِينِيَّةً تُضْفِي الشَّرْعِيَّة على حُكْمِ سَلاطِين المَمالِيك .

وأقامَ الخُـلَفاءُ العَبَّاسِيُّون فَتْـرَةَ وُجُودِهِم في القاهِرَة في مَكانٍ أُعِـدَّ لهم بمَناظِر الكَبْش بالقُـرْبِ من جَامِع ابن طُولُون ، وكانوا يُدْفَنُون في قُبَّةٍ أُعِدَّت لهم خِصِّيصًا بجِوارِ مَشْهَدِ السَّيِّدَة نَفِيسَة تُعْرَفُ بـ «قُبَّة الخُلَفاء»(٢).

هكذا نَجَحَ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس في إضْفَاء بُعْدٍ دِينِي إلى البُعْدِ العَسكَرِي الذي كانت تُـمَثِّلُه دَوْلَةُ سَلاطِين المَمالِيك ليُؤَكِّدَ شَرْعِيَّتَها في نَظَرِ مُعاصِرِيها ؛ حتَّى أنَّ لَقَبَ «السُّلْطَان» اخْتَصَّ به منذ هذا التَّأريخ سَلاطِينُ المَمالِيك وأصْبَحَ لا يُطْلَقُ إلَّا على صَاحِب مِصْر لأنَّه أعْلَى المُـلُوكِ وأشْرَفُهُم بسَبَبِ تَفْوِيضِ السَّلْطَنَة له على الوَجْه الشَّرْعِي من أمِير المُؤْمِنِين ، أي الخَلِيفَة العَبَّاسِي(٣) .

وبَلَغَ عَدَدُ الخُـلَفَاء العَبَّاسِيين بمصر سَبْعَ عَشْرَة خَلِيفَة ارْتَقَى بعضُهم كُرْسِي الخِلافَة أكثر من مَرَّة ، كان آخِرُهُم المُتَوَكِّـلُ على الله محمَّد الذي

---

(١) ابن عبد الظاهر : الروض الزاهر ١٤١؛ ابن أيبك : كنز الدرر ٨: ٩٤-٩٥؛ المقريزي : السلوك ١: ٤٦٨-٤٦٩.

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٧٨٤.

(٣) ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك ٥٤.

عَزَلَه السُّلْطانُ العُثْماني سَلِيم الأَوَّل بعد إعْدَامِ السُّلْطَان طُومانْباي سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م[١].

مَرْحَلَةُ التَّوْطِيد (٦٥٨ـ٦٩٣هـ/١٢٦٠ـ١٢٩٣م)

يُعَدُّ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس بذلك المُؤَسِّسَ الحَقِيقي لدَوْلَةِ سَلاطِين المَماليك في مِصْر، بحيث أنَّه عند وَفَاتِه في دِمَشْق، سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، كانت المَظَاهِرُ الأساسِيَّةُ للتَّنْظِيمات السِّياسِيَّة والعَسْكَرِيَّة والإدارِيَّة للنِّظَام الجَدِيد قد اسْتَقَرَّت[٢]. وأُنْشِئَت في عَهْدِه المُنْشآتُ المَمْلُوكِيَّةُ الأُولى الباقية في مِصْر والشَّام: المَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيةُ العَتِيقَةُ بَيْنَ القَصْرَيْن سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٣م، وجامِعُ الظَّاهِر خارِج باب الفُتُوح شمالي القَاهِرَة سنة ٦٦٧هـ/١٢٩٦م، والمَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بدِمَشْق نحو سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م، كما

---

[١] هاني حمزة: مصر المملوكية ١: ١٠٤.

[٢] راجع عن الظَّاهِر بيبرس وأعماله: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦م؛ ابن شداد: تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، بيروت ١٩٨٤م؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٩٤ـ٢٠٤ وهـ١ صفحة ١٩٤ وما فيه من مصادر ومراجع وأضف إليها؛ عبد العزيز الخويطر: الملك الظاهر بيبرس، الرياض ١٩٨٩م؛ PETER THORAU, *The Lion of Egypt: Sultan Baybars I and the Near East in the Thirtheenth Century* (translated from German by P. M. HOLT, London & New York - Longman 1992)، نقله إلى العربية قاسم عبده قاسم بعنوان: أسد مصر السلطان الظاهر بيبرس والشرق الأدنى، القاهرة ـ دار عين ٢٠١٥م).

يُنْسَبُ إليه تَشْييدُ المباني المَمْلُوكِيَّة الأولى في قَلْعَةِ الجَبَل والتي انْدَرَسَت الآن، واتَّخَذَ الأَسَدَ «رَنْكًا» له أثْبَته على مُنْشَآتِه[١].

ويَرْجِعُ إلى السُّلْطان الظَّاهِر بَيْبَرْس الفَضْلُ في إعادَة الخُطْبَة إلى الجامِع الأزْهَر سنة ٦٦٥هـ/١٢٦٧م بعد أنْ قَطَعها منه النَّاصِرُ صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب قبل ذلك بثَمانِيَةٍ وتِسْعِين عامًا، سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م، في أعْقابِ الانْقِلابِ السِّلْمِي الذي قادَه ووَضَعَ نِهايَةً للدَّوْلَة الفاطِمِيَّة في مِصْـر باعْتِبارِ الجَامِع رَمْزًا للدَّعْوةِ الإسْماعِيلِيَّة؛ ولم يَتِمّ هذا الإجْراءُ إلَّا بعد أنِ اسْتَفْتَى الظَّاهِرُ بَيْبَرْس العُلَماءَ في جَوازِ ذلك[٢].

وقامَ كذلك في سنة ٦٦٦هـ/١٢٦٨م بتَقْرِيرِ أرْبَعَة قُضَاة في الحُكْم: شَافِعِي ومالِكِي وحَنَفِي وحَنْبَلِي، واسْتَمَرَّ الأمْرُ على ذلك طَوال العَصْرِ المَمْلُوكِي[٣].

---

(١) راجع ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ٨٩-٩٦؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٨٨-١٩٤، ٥٠٥-٥١٢؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ١: ٣٤٨-٣٥٩.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ١٠٣؛ أيمن فؤاد سيد: «الجامع الأزهر تاريخُه وتَطَوُّره»، المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ١٤-١٦.

(٣) ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ١٨٢؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٠١؛ وانظر كذلك J. S. NIELSEN, «Sultan al-Zahir Baybars and the Appointment of four Chief Qadi (663/1265», *SI* LX (1984), pp.167-78; J. H. ESCOVITZ, «Patterns of Appointment to the Chief Judgeships of Cairo during the Bahri Mamluk Period», *Arabica* XXX (1983), pp.139-68; ID., «The Establishment of Four

الأثَـرُ المُغُولِي في دَوْلَـةِ المَمالِـيك

كان التَّأْثِيرُ المُغُولِي على نِظَامِ دَوْلَةِ سَلاطِين المَـمالِيك في بِداياتِها الأولي كبيرًا، وأَصْبَحَت المُـؤَثِّراتُ المُغُولِيَّة واضِحَةً في الكَثِير من نُظُمِ هذه الدَّوْلَة ويأتي على رَأْسِها نِظَامُ «اليَـاسَة» أو «السِّيَاسَة»، وهي شَرِيعَةُ جَنْكِزْخان[1]. فبَعْد هَزِيمَة المُغُولِ في عَيْـنِ جالُوت أُسِرَ منهم عَدَدٌ كبيرٌ عُرِفُوا بـ «الوَافِـدِيَّة» انْتَشَرُوا بأعْدادٍ كَبِيرَةٍ في مِصْـر والشَّام فنَشَـرُوا عاداتَهم وتَقالِيدَهُم بها[2]، ويَبْدُو أنَّها أعْجَبَت السُّلْطَانَ الظَّاهِرَ بَيْبَرْس، فتُجْمِعُ المَصَادِرُ على أنَّه لمَّا تَسَلْطَنَ أرادَ «أنْ يَسْلُكَ في مُلْكِه بالدِّيارِ المِصْـرِيَّة طَرِيقَة جَنْكِزْخَان... وأُمُورَه، فَفَعَل ما أمْكَنَه ورَتَّبَ في سَلْطَنَتِه أشْياءَ كَثِيرَة لم

Chief Judgeships in the Mamluk Empire», *JAOS* 102 (1984), pp.229-31; Id., *The Office of the Qadi al-Qudat in Cairo under the Bahri Mamluk*, Berlin 1984.

(1) راجع المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ١٢٢، ٧١٣-٧١٨؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ٥: ٣٦٥-٣٦٧ و٦: ٢٦٨؛ D. Ayalon, «The Great Yasa of Chingiz Khan-A Re-examination», *SI* 33 (1971), pp.99-140; 34 (1971), pp.151-180, 35 (1972), pp.113-158, 38 (1973), pp.107-156; D. Aigle, «Le grand Jasaq de Gengis - Khan, l'empire, la culture mongole et la Shari'a», *JESHO* 47 (2004), pp.31-79; D. O. Morgan, *EI*[2] art. *Yasa* XI, pp.318-19.

(2) المصدر نفسه ٣: ٧١٦؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر ١٣٥-١٣٨؛ D. Ayalon, «The Wafidiya and the Mamluk Kingdom», *IC* XXV (1951), pp.89-104.

تَكُنْ قَبْلَه بديارِ مِصْر»[١]، فجَدَّدَ وَظائِفَ كَثِيرَة في مَراتِب الأُمَرَاء والجُـنْد[٢]، وإنْ كان بَعْضُها قد وُجِدَ قبل ذلك فلم يَكُن على الصِّيغَة نَفْسِها التي أوْجَدَها الظَّاهِرُ بَيْبَرْس.

واسْتَدْعَت هذه التَّعْدِيلاتُ والوَظائِفُ الجَدِيدَةُ وَضْعَ تَوْصِيفٍ وَشَرْحٍ لها؛ وهو ما قامَ به نَفَرٌ من كُتَّابِ الإنْشَاء والعامِلِين بدَواوِين الدَّوْلَةَ المَمالِيكِيَّة كان من أوائِلِهم مُحْيِي الدِّين بن عبدالظَّاهِر وابن فَضْلِ الله العُمَرِي ثم القَلْقَشَنْدِي والمَقْرِيزِي والسَّخاوِي وابن ناظِر الجَيْش وخَلِيل بن شَاهِين الظَّاهِرِي .

*

* *

وفي الوَقْتِ نَفْسِه بَذَلَ الظَّاهِرُ بَيْـبَرْس غايَةَ جُهْدِه ليَخْلُفَهُ على عَرْشِ السَّلْطَنَة وَلَدُه الأَمِيرُ بَرَكَة خان (الذي سُمِّيَ على اسْم جَدِّه لأُمِّه بَرَكَة خَان زَعِيم التُّرْكُمان الخُـوارَزْمِيين)، فعَيَّنَه في سنة ٦٦٢هـ/١٢٦٤م نائِبًا للسَّلْطَنَة، وهو مازال في الرَّابِعَة من عمره ! وعَهِدَ بتَنْشِئَتِه إلى نائِبِه الأمير بَيْلَبَك الخازِنْدار، وبعدما بَلَغَ أَشُدَّهُ زَوَّجَهُ من غازِيَة خاتُون ابنة رَفِيقِ سِلاحِه الأمير القَوِي قَلَاوُون الأَلْفي الصَّالِحِي حتى يَضْمَنَ تأييدَ هذا الأَمِير له

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٦ : ٢٦٨-٢٧٩.

(٢) المصدر نفسه ٧ : ١٨٣.

ومُسانَدَتَه عندما يحين الوقت. ومع ذلك، فلم يستمرّ حُكْمُ المَلِك السَّعِيد ناصِر الدِّين أبو المَعالي بَرَكَة خَان إلَّا عامَيْنِ انْتَهَت بخَلْعِه (٦٧٦-٦٧٨هـ/ ١٢٧٧-١٢٧٩م) ونُصِّبَ خَلَفًا له أخُوهُ الأَصْغَر بَدْرُ الدِّين سَلامِش (وله من العُمْر سَبْعُ سنوات)[١]، ومن الغريب أنَّ الذي قادَ هذا الانْقِلابَ هو حَماهُ الأمير قَلَاوُون الأَلْفِي الصَّالِحِي الذي كان يُمَهِّدُ للاسْتِيلاء على العَرْشِ مُتَّخِذًا من تَوْلِيَة سَلامِش مَرْحَلَةً انْتِقالِيَّةً لتَهْدِئَة الأُمَرَاء الظَّاهِرِيَّة (مماليك الظَّاهِر بَيْبَرْس) والذين كانوا حتى الآن يَتَحَكَّمُون في المُـدُنِ والقِلاعِ الرَّئِيسَة للسَّلْطَنَة. ولم تكد تمضي عِدَّةُ شهورٍ إلَّا وقد تَخَلَّصَ الأميرُ قَلاوُون من الأُمَراء الظَّاهِرِيَّة الأكثر نُفُوذًا وخَلَعَ سَلامِش من السَّلْطَنَة وأعْلَنَ نفسه سُلْطَانًا واتَّخَذَ لَقَبَ «المَنْصُور سَيْف الدِّين قَلَاوُون» في سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٨٠م[٢].

كانت النِّيَةُ في بِدَايَة العَصْرِ المَمْلُوكِي تَتَجِهُ إلى تَوْرِيث العَرْشِ (السَّلْطَنَة)، مثلما حاوَلَ بطريقةٍ سَافِرَةٍ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس، وأسَّسَ لذلك طائِفَةً عُرِفَت بـ«الخاصَّكِيَّة»، وهو مُصْطَلَحٌ يُشِيرُ إلى مجموعةٍ متميِّزةٍ تُحِيطُ بشَخْصِيَّةٍ قِيادِيَّةٍ، حَلَّت تدريجيًّا مكان مبدأ «الخُشْداشِيَّة» الذي عُرِفَ في

---

(١) المقريزي: السلوك ١: ٦٥٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ٢٨٨.

(٢) راجع A. STEWART, «Between Baybars and Qalawun: Under - Age Rulers and Succession in the Early Mamluk Sultanate», *al-Masaq* 19 (2007), pp.47-54.

مجتمع المَمالِيك، ويعني المَمالِيك السُّلْطانِيَّة الذين كانوا يُحِيطُون بالسُّلْطَان ويقومون بحِراسَتِه. أمَّا مبدأ «الخاصَّكِيَّة» فيرجِعُ إلى السُّلطان الظَّاهِر بَيْبَرْس الذي أنْشَأه مع إعادَة تنظيمه للجَيْش المَمْلُوكِي، وألْصَقَهُم بابنه بَرَكَة خان ووُصِفُوا بأنَّهم من صِغَارِ السِّنّ المُمَيَّزين ممَّن ليست لهم خِبْرَةٌ سابِقَةٌ، وواضِحٌ أنَّهم مَثَّلُوا مجموع المَمالِيك الذين وَقَعَ اخْتِيارُ بَيْبَرْس عليهم ليَدْرُسُوا ويَنْشأوا مع وَلَدِه بَرَكَة خان وأقامُوا معه في القَصْرِ السُّلْطاني بالقَلْعَة، وعندما تولَّى بَرَكة خان السَّلْطَنَة أحاطُوا به وهَيْمَنُوا على الحُكْم، الأمْرُ الذي أدَّى إلى تَصَدُّعِ العَلاقَة بينه وبين كِبارِ أُمَرَاء والِدِه من المَمالِيك الصَّالِحِيَّة وعَجَّلَ بسُهولَة التَّخَلُّص منه فيما بعد[1].

وإذا كان الظَّاهِرُ بَيْبَرْس قد فَشَلَ في إنْشَاء أسْرَةٍ حاكِمَةٍ تحمل اسْمَه في نِظام دَوْلَة سَلاطِين المَمالِيك في مِصْر والشَّام، فإنَّ رَفِيقَ سِلاحٍ قَدِيمٍ له في المَمالِيك الصَّالِحِيَّة وحما ابنه بَرَكة خان، الأمير قَلاوُون الألْفِي، الذي يُعَدُّ ثاني أهَمّ شَخْصِيَّة في النِّظام الجديد، سَجَّلَ له التَّارِيخُ بعد أنْ تَوَلَّى السَّلْطَنَة باسْم «المَنْصُور سَيْف الدِّين قَلاوُون» (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، أنَّه السُّلْطانُ المَمْلُوكِي الوَحِيد الذي نَجَحَ في تأسِيسِ أُسْرَةٍ حاكِمَةٍ ظَلَّت تَحْكُم مِصْرَ والشَّام ما يَزِيدُ عن قَرْنٍ من الزَّمان (٦٧٨-٧٨٤هـ/ ١٢٨٠-١٣٨٢م)، حتَّى عندما كانت تُغْتَصَبُ السُّلْطَةُ خلال فترة الحُكْم

---

(١) المقريزي: السلوك ١: ٦٤٣-٦٥٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٧: ١٧٩؛ وراجع عن الخاصَّكِيَّة D. AYALON, EI^2 art. *al-Khassakiyya* IV, pp.1130-31.

الطَّوِيل لابْنِه الثَّانِي النَّاصِر محمَّد (بين سنتي ٦٩٣هـ/١٢٩٣م و٧٤١هـ/ ١٣٤١م)، كان المُغْتَصِبُون الثَّلاثَة: العادِل زَيْن الدِّين كَتْبُغا والمَنْصُور حُسَام الدِّين لاجِين والمُظَفَّر رُكْن الدِّين بَيْبَرْس الجاشَنْكِير، من أُمَرَاء أبِيه المَنْصُورِيَّة، وجاءَ حُكْمُهُم كامْتِدادٍ لهذه الأسْرَة الحاكِمَة (أسْرَة بني قَلاوُون) لا قَطْعًا لها، مُشْتَغِلِّين صِغَرَ سِنِّ النَّاصِر محمَّد عند اعْتِلائِه العَرْش[1].

وتابَعَ المَـنْصُورُ قَلاوُون أعْمالَ الظَّاهِر بَيْبَرْس العَسْكَرِيَّة فاسْتَكْمَلَ الجِهادَ ضِدَّ المُغُول الإيلْخانِيين[2]، وقَضَى بطَرِيقَةٍ مُنَظَّمَةٍ على ما تبقَّى من الوُجُودِ

---

(١) المصادر الرئيسة لفترة حكم المنصور قلاوون هي: ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م، وهو يُغطِّي خمس سنوات فقط من حكم قلاوون (٦٧٨-٦٨٢هـ)؛ ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر وجامع الغرر (المجلد الثامن: الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية)، تحقيق أولرخ هارمان، القاهرة ـ المعهد الألماني للآثار ١٩٧٢م؛ شافع بن علي: الفضل المأثور من سيرة السلطان الملك المنصور، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت ـ المكتبة العصرية ١٩٩٧م؛ وانظر كذلك محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٩٤٧م؛ محمد حمزة الحداد: السلطان المنصور قلاوون، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ١٩٩٣، ١٩٩٨م؛ L. S. NORTHRUP, *From Slave to Sultan. The Career of al-Mansur Qalawun and the Consolidation of Mamluk Rule in Egypt and Syria (676-689 A.H./ 1279-1290 A.D)*, Stutgart 1998; H. RABIE, *EI*[2] art. *Kalawun* IV, pp.505-7.

(٢) راجع، R. AMIATI - PREISS, *Mongols and Mamluks: The Mamluk - Ilkhanid War 1260-1281*, Cambridge 1995.

الصَّليبي في فِلَسْطِين والسَّواحِل الشَّامِيَّة ، وعند وَفاتِه سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م كانت المُهِمَّةُ قد قارَبَت على الانْتِهاء.

وارْتَبطَ اسْمُ المَنْصُور قَلاوُون في الذَّاكِرَة المِصْرِيَّة بمشروع مِعْمارِي ضَخْم أقامَه في فَضَاءِ بَيْنَ القَصْرَيْن وفي مَكانِ قاعَة سِتِّ المُلْك ـ إحْدى قاعات القَصْرِ الفاطِمِي الغَرْبي الصَّغِير ـ هو مُجَمَّعٌ يحتوي على مَدْرَسَةٍ وقُبَّةٍ ضَريحِيَّةٍ ومارِسْتان اشتهر باسْم «مجموعة قَلاوُون»، شَيَّدَهُ بين سنتي ٦٨٣ـ٦٨٤هـ/ ١٢٨٣ـ١٢٨٤م، وهو مَبْنَى فَخْم مازالَ يَحْتَفِظُ بخَصائِصِه الأولى ويُصَنَّفُ مع جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطَان حَسَن في مَيْدان الرُّمَيْلَة وجَامِع المُؤَيَّد شَيْخ داخل باب زَوِيلَة كأهَمّ نَماذِج العِمارَة المَمْلُوكِية الباقِية[1]. ووَقَفَ المَنْصُورُ قَلاوُون وَقْفًا كبيرًا لِرعايَة هذا المُجَمَّع الضَّخْم وَصَلَت إلينا وَقْفِيَّتُه لحُسْنِ الحَظّ التي ظَلَّت تُدِرُّ إيرادَات كافِيَة لصِيانَة مَباني هذا المُجَمَّع حتى القرن التاسِع عَشَر الميلادِي[2].

ويَرْجِعُ إلى المَنْصُور قَلاوُون كذلك الفَضْلُ في تأسِيسِ نِظَام جَدِيدٍ للمَماليك السُّلْطَانِيَّة أسْكَنَهُم في أبْراجِ القَلْعَة، عُرِفُوا لذلك بالمَمالِيك

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥١٣ـ٥٢٤، ٦٩٢ـ٧٠٢؛ حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ١١٤ـ١٢٣؛ محمد حمزة الحداد : السلطان المنصور قلاوون ١٦٠ـ١٨٢؛ K. A. C. Creswell, *MAE* II, pp.190-202.

(٢) نَشَرَها محمد محمد أمين في نهاية الجزء الأوَّل من كتاب ابن حبيب : تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه، القاهرة ١٩٧٦م، ١: ٢٩٥ـ٣٩٦.

البُرْجِيَّة كان العُنْصُرُ الغَالِبُ عليهم هو العُنْصُر الشَّرْكَسِي (وَصَلَ عَدَدُهُم إلى نحو ثَلاثَة آلاف مَمْلُوك في آخِر أيَّام المَنْصُور قَلاوُون) حَلَّ تدريجيًّا مَحَلَّ المَمالِيك الصَّالِحِيَّة (البَحْرِيَّة) الذين كَوَّنُوا الجِيلَ الأوَّل من المَمالِيك وكانوا من الأتْراك[1].

وإلى جانِبِ ذلك احْتَفَظَ المَنْصُورُ قَلاوُون بمَكانَةٍ مُتَمَيِّزَةٍ لدى الأُمَرَاء المَمالِيك الجُدُد بعد وَفَاتِه. فحتَّى هذا الوَقْت كانت قُبَّةُ الصَّالِح نَجْم الدِّين أيُّوب، مُؤَسِّس نِظَام المَمالِيك البَحْرِيَّة، في مَنْطِقَة بَيْنَ القَصْرَيْن هي المكان الذي يُقْسِمُ عنده المَمالِيكُ الجُدُدُ يَمِينَ الوَلاء طالَمَا ظَلَّ مَمالِيكُه الصَّالِحِيَّة على قَيْدِ الحَيَاة. ولكن بعد وَفاةِ المَنْصُور قَلاوُون، سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، أصْبَحَت قُبَّةُ المَنْصُور قَلاوُون، المُواجِهَة لها، وظَلَّت لعُقُودٍ طَوِيلَةٍ بعد وَفَاتِه المكانَ الذي يُؤَدِّي فيه المَمالِيكُ الجُدُد يَمِينَ الوَلاء[2].

وعند وَفاةِ المَنْصُور قَلاوُون، سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، آلَت السَّلْطَنَةُ لفترةٍ قصيرةٍ لابنه خَلِيل الذي تَلَقَّبَ بـ «الأشْرَف صَلاح الدِّين» (٦٨٩-٦٩٣هـ/١٢٩٠-١٢٩٣م). وجَنَى الأشْرَفُ صَلاحُ الدِّين خَلِيل ثَمَرَةَ الجُهُودِ العَسْكَرِيَّة التي قامَ بها والدُهُ في فِلَسْطِين حيث اسْتَعادَ عَكَّا سنة

---

(١) المقريزي: السلوك ١: ٧٥٥-٧٥٦ والمواعظ والاعتبار ٣: ٧٧٩-٧٨٠؛ D. AYALON, EI^2 art. *Burdjiyya* I, pp.1365-66.

(٢) السيد الباز العريني: المماليك ١٣٥-١٣٧.

٦٩٠هـ/١٢٩١م وأحْرَزَ سِلْسِلَةً من الانْتِصارات العَسْكَرِيَّة وَضَعَت نِهايَةً للإمارات الصَّلِيبِيَّة القائمة على سَواحِل الشَّام، وتَمَكَّنَ كذلك من صَدِّ هَجَمات إيلْخانات المُغُول في فارِس والعِراق، الأمْرُ الذي مَكَّنَ المَماليكَ من مَدِّ حُدُودِ سَلْطَنَتِهم وإقامَة دَوْلَةٍ كانت تُعَدُّ الأعْظَم في المنطقة في ذلك الوقت. ورَغْم الكَفاءَة التي أظْهَرَها الأشْرَفُ صَلاحُ الدِّين خَلِيل فإنَّ الصِّراعات بين أُمَراء المَمالِيك أدَّت إلى اغْتِيالِه سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م على يَدِ أحَدِ مَماليك والِدِه[١].

صِراعُ الطَّوائِف وعَدَمُ الاسْتِقْرارِ السِّياسي (٦٩٣ـ٧١٠هـ/١٢٩٣ـ١٣١٠م)

وشَهِدَت العِشْرُون عامًا التالية لاغْتِيالِ الأشْرَف صَلاح الدِّين خَلِيل (٦٩٣ـ٧٠٩هـ/ ١٢٩٣ـ١٣١٠م) الكثيرَ من الاضْطِرابات وانْعِدام الاسْتِقْرار الدَّاخِلِي بسبب الصِّراعات التي دارَت بين كِبارِ الأُمَراء، وتَحَكَّمَ في مَصِيرِ الدَّوْلَة الأُمَراءُ المَنْصُورِيَّة الذين حَجَرُوا على النَّاصِر محمَّد، الابن الثَّاني للمَنْصُور قَلاوُون، بسبب صِغَرِ سِنِّه حيث جَلَسَ على العَرْشِ وهو في

---

[١] ابن أيبك: كنز الدرر ٨: ٣٤٥ـ٣٤٨؛ وراجع عن سلطنة الأشرف خليل ابن أيبك: كنز الدرر ٨: ٣٠٣ـ٣٥٢؛ المقريزي: المقفى الكبير ٣: ٧٩٣ـ٨١١؛ أبا المحاسن: المنهل الصافي ٥: ٢٧٠ـ٢٨٠؛ U. HAARMANN, *EI*² art. *Khalil* IV, pp.996-98.

السَّابِعَة من عُمْرِه واغْتَصَبَ ثَلاثَةٌ منهم العَرْشَ في فترات مُتَقَطِّعَة : العادِل زَيْن الدِّين كَتْبُغا (٦٩٤-٦٩٦هـ/١٢٩٤-١٢٩٦م) والمَنْصُور حُسَام الدِّين لاجِين (٦٩٦-٦٩٨هـ/ ١٢٩٦-١٢٩٩م) والمُظَفَّر رُكْن الدِّين بَيْبَرْس الجاشَنْكِير (٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م)[1].

وضَرَبَ زِلْزالٌ قَوِيٌّ أراضِيَ السَّلْطَنَة المَمْلُوكِية خلال الفترة الثَّانية لحُكْم النَّاصِر محمَّد بن قَلاَوُون، في عام ٧٠٢هـ/١٣٠٣م، دَمَّرَ العَدِيدَ من مَباني القَاهِرَة والإسْكَنْدَرِيَّة الضَّخْمَة، وأدَّى إلى تَصَدُّعِ العَدِيدِ من مآذِنِ الجَوامِع التَّاريخية شمِلَتِ جَوامِع الأزْهَر والحاكِم والأقْمَر (الفَكَهاني) والصَّالِح طَلائِع والقُبَّة المَنْصُورِيَّة وجامِع عَمْرو بالفُسْطاط ومَنَار الإسْكَنْدَرِيَّة. وتَقاسَمَ النَّاصِرُ محمَّد مع أُمَرائِه تَرْمِيمَ وصِيانَة الجَوامِع المُهَدَّمَة وتَحَمَّلُوا بأنفُسهم نَفَقات إعادَة بِنائِها، وكان من نَصِيبِ النَّاصِر محمَّد تَرْمِيمُ القُبَّة المَنْصُورِيَّة ومِئْذَنَتها، وتَوَلَّى الأمير رُكْن الدِّين بَيْبَرْس الجاشَنْكِير تَرْمِيمَ جامِع الحاكِم ومِئْذَنَتيه[2].

---

(١) راجع الصفدي : الوافي بالوفيات ٢٤:٣١٨-٣١٩، ٣٨٥-٣٨٩؛ أبا المحاسن : المنهل الصافي ٩: ١١٥-١١٨، ٩: ١٦٦-١٧٣؛ P. M. Holt, «The Sultanet of Mansur Lachin 696-8/ 1296-9», *BSOAS* XXXVI (1973), pp.521-32; Shah Morad Elham, *Kitbuga and Lagin: Studien zur Mamluken - Geschichte nach Baibars al-Mansuri and al-Nuwairi*, Klaus Schwartz 1977.

(٢) راجع أخبار هذه الزَّلْزَلَة عند، النويري: نهاية الأرب ٣٢: ٥٧-٥٩؛ ابن أيبك: كنز=

ويُعَدُّ ما تَمَّ في هذا الظَّرفِ أوَّلَ اخْتِبارٍ لنَوايا الحُـكَّام في تَحَمُّلِ مسئولية مَشَارِيع الإعْمار الكبرى، والذي ظَهَرَ بوضوحٍ خلال فترة سَلْطَنَة النَّاصِر محمَّد الثَّالِثة، التي امْتَدَّت لأكثر من ثلاثين عامًا (٧٠٩ـ٧٤١هـ/ ١٣٠٩ـ١٣٤١م)، والتي شَهِدَت تأسِيسَ وبِناءَ العَدِيدِ من المَدارِس والجَوامِع والقُصُور والدُّور تَوَلَّى بِناءَها النَّاصِرُ محمَّد بنفسه وأمَراؤه الكِبار[1].

السَّلْطَنَـةُ الثَّالِثَةُ للنَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون (٧٠٩ـ٧٤١هـ/ ١٣١٠ـ١٣٤١م)

كانت السَّلْطَنَـةُ الثَّالِثَـةُ للنَّاصِر ناصِر الدِّين محمَّد بن قَلَاوُون (٧٠٩ـ٧٤١هـ/ ١٣١٠ـ١٣٤١م) نُقْطَةَ تَحوُّلٍ مُهِمَّةٍ في التَّارِيخ المَـمْلُوكِي، بَلَغَت فيها الدَّوْلَةُ المَـمْلُوكِيةُ الأُولى (البَحْرِيَّة) قِمَّةَ ازْدِهارِها[2]. فقد تَراجَعَ الخَطَـرُ المُغُولي في الشَّرْقِ في أعْقَابِ ضَعْفِ

=الدرر ٩: ١٠٠ـ١٠٣؛ المقريزي: السلوك ١: ٩٤٢ـ٩٤٥؛ السيوطي: كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، دراسة وتحقيق محمد كمال الدين عز الدين، بيروت ـ عالم الكتب ١٩٨٧م، ٢٠٠ـ٢٠٥؛ عبد الله يوسف الغنيم: سجل الزلازل العربي ـ أحداث الزَّلازِل وآثارها في المصادر العربية، الكويت ٢٠٠٢م، ١٨٧ـ١٩٧، ٣٦٨.

(١) N. O. RABBAT, *The Citadel of Cairo*, p.183.

(٢) انظر عن السَّلْطَـنَة الثَّالِثَة للناصر محمد بن قلاوون دراستي حياة ناصر الحجي وأميليا ليفانوني HAYAT NASSER AL-HAJJI, *The Internal Affairs in Egypt during the*

الدَّوْلَة الإِيلْخَانِيَّة واعْتِناقِ حُكَّامِها للإسْلام في عَهْدِ سُلْطانِهم غازان خان (٦٩٤-٧٠٣هـ/١٢٩٥-١٣٠٤م) الذي أَصْبَحَ الإسْلامُ في عَهْدِه دِينَ الدَّوْلَة الرَّسْمِي[1]، وتَمَّ تَوْقِيعُ مُعاهَدَة صُلْح بين الدَّوْلَتَيْنِ في سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م وَضَعَت نِهايَةً للصِّراع بين الدَّوْلَتَيْنِ الذي اسْتَمَرَّ نحو سبعين عامًا[2]. وفي سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م امْتَدَّت سُلْطَةُ المَمالِيك حتى قِيلِقْيَة الأَرْمَنِيَّة وإلى الأناضُول شَمالاً. وتم تَنْصِيبُ أَمِيرٍ مُسْلِم في النُّوبَة في أعالي النِّيل جَنُوبًا، سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، هو الأَمِيرُ كَنْزُ الدَّوْلَة، فاصْطَبَغَت بِلادُ النُّوبَة منذ هذا التَّأْرِيخ بالصِّبْغَة العَرَبِيَّة الإسْلامِيَّة وتَخَلَّت عن الدِّيانَة المَسِيحِيَّة[3]. كما تَمَّ إعادَةُ «رَوْكِ» الأَراضي المِصْرية ابتداءً من سنة ٧١٦هـ/

Third Reign of Sultan al-Nasir Muhammad b. Qalawun 709-1309/741-1341, Kuwait 1978; A. LEVANONI, *A Turning Point in Mamluk History. The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun 1310-1341*, Leiden - Brill 1995؛ وكذلك علي إبراهيم حسن: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص، القاهرة ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٤م، و مقال بيتر هولت P. M. HOLT, *EI*² art. *al-Nasir Muhammad b. Kalawun* VIII, pp.993-94.

[1] راجع فؤاد عبد المعطي الصياد: السلطان محمود غازان خان المغولي واعتناقه الإسلام، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م.

[2] راجع لتفاصيل أكثر فايد حمّاد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٦م، ١٨٨-١٩٠.

[3] راجع عطية القوصي: تاريخ دولة الكنوز الإسلامية، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٦م، ٨٥-١٠٤؛ حياة ناصر الحجي: «العلاقات بين سلطنة المماليك ومملكة النوبة»، مجلة كلية=

١٣١٦م ممَّا استَوْجَبَ إعادَة تَوْزِيع للإقْطاع الأمْر الذي ضَمِنَ للسَّلْطَنَة نُفُوذًا أقْوَى فيما عُرِفَ بـ«الرَّوْك النَّاصِري»، وسَاعَدَ على تحسين نِظَام الإدارَة العُلْيا للدَّوْلَة وتَطْوِيره[1].

ونتيجةً للاسْتِرْخَاء العَسْكَرِي الذي بَدأ يَسُودُ في الدَّوْلَة وعَدَم وُجُود خَلْفِيَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ لَدَى النَّاصِر محمَّد بن قَلاوُون، أخَذَ يَعْمَلُ على الانْفِرادِ بالحُكْم والانْقِلابِ على مَمالِيكه؛ فأبْطَلَ مَنْصِبَ «نائِب السَّلْطَنَة» ـ وهو أكبر مَنْصِبٍ يلي مَنْصِبَ السُّلْطَان ـ ليَنْفَرِدَ بالسُّلْطَة[2]. وقامَ كذلك بإضْعَافِ مَنْصِبِ «الوَزارَة»[3]، الذي يُعَدُّ أجَلَّ المَناصِب الإدارِيَّة غير

=الآداب ـ جامعة الكويت ١٤ (يناير ١٩٧٨م).

(١) انظر عن الرَّوْك النَّاصِري، المقريزي: المواعظ والاعتبار ١: ٢٣٥-٢٤٤؛ S. TSUGITAKE, «The Proposers and Supervisors of al-Rawk al-Nasiri in Mamluk Egypt», *MSR* II (1998), pp.73-92.

(٢) انظر لتفاصيل أكثر عن وظيفة «نائِب السَّلْطَنَة»، ليلى عبد الجواد إسماعيل: «نائب السلطنة في القاهرة في عصر دولة المماليك البحرية»، المؤرخ المصري ١ (١٩٨٨)، ١٥٩-٢٢٥؛ محمد عبد الغني الأشقر: نائب السلطنة المملوكية في مصر، القاهرة ـ سلسلة تاريخ المصريين ١٩٩٩م؛ H.A.R. GIBB, *EI²* art. *Na'ib* VII, pp.915-16.

(٣) راجع عن الوزارة في العصر المملوكي، M. CHAPOUTOT - REMADI, «Le vizirat sous les premiers Mamluks», *Actes du XXIX Congrès International des Orientalistes - Etudes arabes et islamiques,* Paris 1975, I, pp.58-62; ID., «Le vizirat en Egypte a l'époque mamluque», *Revue Tunisienne de Sciences Sociales* 40-43 (1975), pp.87-120; A. ABD AR-RAZIQ, «Le vizirat et les vizirs de

العَسْكَرِيَّة ، عندما اسْتَحْدَثَ مَنْصِبَ «نَاظِر الخاصّ» وعَهِدَ إليه بالكثير من المَسْؤُلِيَّات المالِية التي كانت للوَزِير[1]، ثم قامَ بِإلْغَاء المَنْصِب في أعْقَابِ عَزْلِ الوَزِير الجَمالِي مُغُلْطاي في رَجَب عام ٧٢٩هـ/١٣٢٩م ، وبذلك اسْتَبَدَّ النَّاصِرُ محمَّد بكافَّة صَلاحِيَّات الإدارَة المَدَنِيَّة للدَّوْلَة . ومع إلْغَاءِ مَنصِبِ الوَزِير ظَهَرَ إلى الوُجُودِ مَنْصِبٌ جَدِيدٌ لم يِسْتَمِرّ طَوِيلًا هو مَنْصِبُ «حَاجِب الحُجَّاب» الذي تَوَلَّاه الأمير أُلْماس الحاجِب إلى أنْ عَزَلَه النَّاصِرُ محمَّد وقَبَضَ عليه في ذي الحِجَّة سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٣م لشَكِّه في وَلائِه نظرًا لِعلاقَتِه القَوِيَّة بالأَمِير بَكْتَمُر السَّاقِي[2].

تَزايُد المِحَن الاجْتِماعِيَّة والاقْتِصادِيَّة وعَدَمُ الاسْتِقْرار السِّياسِي الدَّاخِلِي (٧٤١ـ٧٩٠هـ/ ١٣٤١ـ١٣٩٠م)

دَخَلَت مِصْرُ مَرَّةً أُخْرَى ـ في أعْقَابِ وَفاةِ النَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون ـ في

---

l'Egypte au temps des Mamluks», *An. Isl.* XVI (1980). pp.183-239؛ حمود بن محمد النجيدي : «التطور الوزاري في مصر المملوكية» ، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ٢٣ (رجب ١٤١٩هـ) ، ٢٦١ـ ٣٤٩؛ محمد عبد الغني الأشقر : الوزارة والوزراء في عصر سلاطين المماليك ، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ٢٨٩) ٢٠١١م .

(١) راجع ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار ٦١؛ القلقشندي : صبح الأعشى ٤: ٣١، ١١: ٣٣٦ـ ٣٣٩؛ المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٧٣٤ـ ٧٣٥.

(٢) راجع المصدر نفسه ٥٦ـ٥٧؛ المصدر نفسه ٤: ١٩ـ ٢٠؛ المصدر نفسه ٣: ٧١٢ـ٧١٣.

مَرْحَلَةٍ من عَدَمِ الاسْتِقْرارِ السِّياسِي تَوَلَّى فيها السَّلْطَنَة خَمْسَةُ عَشْر سُلْطَانًا جميعهم من أبْناءِ وأحْفَادِ النَّاصِر محمَّد بن قَلاوُون كانوا جَمِيعًا أُلْعُوبَةً في أيْدِي كِبار أُمَرَاء المَماليك الذين تَوَلَّوا السُّلْطَة الفِعْلِيَّة، باسْتِثْناء النَّاصِر ناصِر الدِّين حَسَن الذي تَوَلَّى السَّلْطَنَة مَرَّتَيْنْ (٧٤٨ـ٧٥٢هـ/١٣٤٧ـ١٣٥١م و٧٥٥ـ٧٦٢هـ/١٣٥٤ـ١٣٦١م) والأشْرَف زَيْن الدِّين شَعْبان (٧٦٤ـ٧٧٨هـ/١٣٦٣ـ١٣٧٧م) اللذين حَكَما بأنْفُسِهِما، كما انْتَهَى حُكْمُ الكَثِيرِين منهم بالقَتْلِ أو السِّجْن مثلما حَدَثَ مع السُّلْطان النَّاصِر حَسَن الذي انْتَهَت سَلْطَنَتُه الثَّانية على نحو مأساوِي مُرَوِّع حيث اخْتَفَى دون أنْ يُعْثَر له على قَبْرٍ في جُمادَى الأولى سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦١م[1]. عِلْمًا بأنَّ اسْتِمْرارَ السَّلْطَنَة في أبْناءِ وأحْفَادِ النَاصِر محمَّد بن قَلاوُون لا يَعْني قَبُولَ كِبارِ أُمَراءِ المَماليك لمَبْدأ وِراثَة العَرْش، وإنَّما وَجَدُوا في ذلك سَبِيلًا لإيجادِ نَوْعٍ من تَوازُنِ القُوَى فيما بينهم مُسْتَغِلِّينَ صِغَرَ سِنِّ أبْناء النَّاصِر محمَّد لزِيادَة نُفُوذِهِم، كما قامُوا بإفْسَادِ هؤلاء السَّلاطِين الأطْفَال (الذين تَراوَحَت أعْمارُهُم بين سِتّ سَنَوات وأرْبَعَة عَشْر عامًا) بحيث أصْبَحَت مَظاهِرُ الفَسَادِ السِّياسِي والاجْتِماعِي سِمَةً ظاهِرَةً من سِمات هذه المَرْحَلَة من حُكْمِ المَماليك في مِصْر، فقد كان لكُلِّ أميرٍ من كِبارِ أُمَراءِ المَماليك جَيْشُه الخاصّ بحيث كان «سُلْطانًا مُخْتَصَرًا»، وِفْقًا لتَعْبِير المَصَادِر المَمْلُوكِيَّة المُعاصِرَة،

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٢: ٢٨٦.

وأدَّى ذلك بالطَّبْع إلى تَصَادُمِ مَصَالِح الأُمَراء وطُمُوحَاتِهِم بعضها ببعض مِمَّا نَتَجَ عنه ما يُشْبِه حَرْبَ الشَّوارِع وحَوادِث عُنْفٍ دامِيَة بين طَوائِف المَماليك المُـتَصارِعَة سَواءً في مِصْر أو الشَّام[1]. ويَرْجِعُ ذلك إلى أنَّ الدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة بعد نَجاحِها في وَضْعِ نِهايَةٍ لوُجُودِ الفِرِنْج الصَّليبِيين في الشَّام وإبْرام اتِّفاقِ سَلامٍ مع المُغُول الإيلْخانِيين بعد اعْتِناقِهِم الإسْلام، دَخَلَت في دَوْرٍ من عَدَمِ الاكْتِراث بعد أنْ فَقَدَت دَوْرَها الرَّئيس كقُوَّةٍ عَسْكَرِيَّةٍ نَشَأت كتَحَدٍّ سِياسِي وعَسْكَرِي للتَهْدِيدات التي أحاقَت بالدَّوْلَة الإسلامِيَّة منذ أُخْرَيات القَرْنِ الخامِس الهجري/الحادِي عَشَر الميلادِي، مُمَثَّلَةً في الفِرِنْج الصَّليبِيين من جِهَة والمُغُول التَّتَر من جِهَـةٍ أُخْرى[2].

وفي الوَقْتِ نَفْسِه تَعَرَّضَت مِصْرُ مع أواسِط القَرْنِ الثَّامِن الهجري/الرَّابع عَشَر الميلادي للعَدِيدِ من الأزَمات الاقْتِصادِيَّة ـ الاجْتِماعِيَّة خَلَّفَت آثارًا سَلْبِيَّةً على مُسْتَقْبَلِ الدَّوْلَة التُّرْكِيَّة ومَهَّدَت الطَّرِيقَ لقِيام دَوْلَة المَماليك الشَّراكِسَة؛ كان أوَّلُها «الفَنَاءُ الكَبِير» أو «المَوْتُ الأَسْوَد The Black Death»، الذي اجْتاحَ شُعُوبَ حَوْضِ البَحْر المُتَوَسِّط ابْتِداءً من سنة

---

[1] راجع لتفاصيل أكثر مقال فريدريك بودان FR. BAUDEN, «The Sons of al-Nasir Muhammad and the Politics of Puppets: Where did it All Start ?», *MSR* XIII/1 (2009), pp.53-81.

[2] انظر كتاب الحسن بن حبيب: تذكرة النَّبِيه في أيام المنصور وبنيه، ١ـ٣، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٨ـ١٩٨٣م.

٧٤٨هـ/١٣٤٨م واسْتَمرَّ نحو خَمْسَ عَشْرَة عامًا وما أعْقَبَه من تَفَشٍّ دَوْري للمَجاعات والأوْبِئَة التي أدَّت إلى تَناقُص عَدَدِ السُّكَّان وقَضَى على نحو ثُلُثَيّ سُكَّانِ مِصْر، ممَّا شَكَّلَ عَقَبَةً أمامَ نُموِّ اقْتِصادِ البِلاد المُعْتَمِد أساسًا على الزِّراعَة سيَظْهَرُ أثَرُه على الأخَصّ في الدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة الثَّانِيَة[1].

ولم تَكَد تَمْضِي عِدَّةُ سَنَوات على هذه الكارِثَة الطَّبِيعِيَّة حتَّى داهَمَت البِلادَ حَمْلَةٌ صَلِيبِيَّةٌ بقِيادَة بُطْرُس الأوّل لُوزِجْنان PIERRE DE LUSIGNAN مَلِك قُبْرُص نَهَبَت الإسْكَنْدَرِيَّة ودَمَّرَتْها سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٥م. فقد ظَلَّت فُلُولُ القُوَى الصَّلِيبِيَّة في جَزِيرَتَيّ قُبْرُص ورُودُس تُراوِدُها فِكْرَةُ العَوْدَة إلى الشَّرْق بعد أنْ طَرَدَ المَمالِيكُ، بقِيادَة الأشْرَف خَلِيل، بقايا المَمالِك المَسِيحِيَّة في سَواحِل بِلاد الشَّام سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م. فقد كانت شُعُوبُ الغَرْبِ الأوروبي الكاثُولِيكي وعلى رأسِها البابَوِيَّة تَرَى في مَمْلَكَة بَيْتِ المَـقْدِس اللاَّتِينِيَّة أرْضَ الأحْلام وتَتَحَيَّنُ الفُرْصَة للعَوْدَة إليها. وظَلَّت جَزِيرَةُ قُبْرُص منذ أنِ اسْتَوْلَى عليها المَلِكُ رِيتْشارْد الأوَّل ملك إنْجِلْترا، أثْناء أحْداث الحَمْلَة الصَّلِيبِيَّة الثَّالِثَة، مَرْكَزًا للقَرْصَنَة الصَّلِيبِيَّة وتَلْعَب دَوْرًا مُهِمًّا في الصِّراع الإسْلامِي الصَّلِيبِي، وعلى الأخَصّ في

---

(١) انظر المقريزي: السلوك ٢: ٧٧٢-٧٧٨؛ أبا المحاسن: النجوم الزاهرة ١٠: ١٩٥-٢١١؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١ / ١: ٥٢٧-٥٣٣؛ وانظر كذلك MICHEL DOLS, *The Black Death in the Middle East*, Princeton 1977; R. SIGFRIED, *The Black Death*, London 1983.

زَمَنِ الملك بُطْرُس الأَوَّل لُوزِجْنان PIERRE DE LUSIGNAN[1].

كانت هذه الحَمْلَةُ إيذانًا بقُرْبِ نِهايَةِ حُكْمِ أسْرَةِ بني قَلاوون المُـتَهافِت وفَتَحَت الطَّرِيقَ أمامَ وُصُولِ نِظامٍ جَدِيدٍ يَقُودُ دَوْلَةَ المَمالِيك.

وتَوَلَّى السَّلْطَنَة في الدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة الأولى سِتٌّ وعِشْرُون سُلْطَانًا، أَوَّلُـهُم المُعِزُّ أَيْبَك التُّرْكُماني (باعْتِبارِ السُّلْطَانَة شَجَرِ الدُّرّ آخِرِ السَّلاطِين الأيُّوبِيين)، بينهم سَبْعَةُ سَلاطِين مَسَّهُم الرِّق هم: المُعِزُّ أَيْبَك التُّرْكُماني والمُظَفَّرُ سَيْفُ الدِّين قُطُز والظَّاهِرُ رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْس البُنْدُقْدارِي والمَنْصُورُ سَيْفُ الدِّين قَلاوُون الأَلْفِي والعادِلُ زَيْنُ الدِّين كَتْبُغا والمَنْصُورُ حُسَامُ الدِّين لاجِين والمُـظَفَّرُ رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْس الجاشَنْكِير، والباقي وعَدَدُهُم ثَمانية عَشْر من الجِيل الثَّاني والثَّالِث الذين وُلِدُوا أَحْرَارًا بِمِصْر يُمَثِّـلُ خَمْسَة عَشْر منهم أَبْناء وأَحْفَاد المَنْصُور قَلاوُون.

---

(١) كانت هذه الغَزْوَة مَوْضُوعَ كِتاب «الإلْمام بالحَوادِث المَقْضِيَّة بالإسْكَنْدَرِيَّة» للنُّوَيْري السَّكَنْدَري، نشره عزيز سوريال عطية، حيدر آباد الدكن ١٩٦٧م؛ وانظر كذلك سعيد عبد الفتاح عاشور: قبرص والحروب الصليبية، القاهرة - مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٧م؛ أحمد حطيط: «دور قبرص في العلاقات بين المماليك والغرب الأوروبي في أواخر العصور الوسطى» في كتاب قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، بيروت - الفرات للنشر والتوزيع ٢٠٠٣م، ١٦٧-١٨٩.

سَلاطِينُ دَوْلَة المَماليك الأولى (المَماليك البَحْرِيَّة)

المُعِزّ عِزُّ الدِّين أيْبَك التُّركُماني	٦٤٨ـ٦٥٥هـ/١٢٥٠ـ١٢٥٧م
المَنْصُور نُورُ الدِّين علي بن أيْبَك	٦٥٥ـ٦٥٧هـ/١٢٥٧ـ١٢٥٩م
المُظَفَّر سَيْفُ الدِّين قُطُز	٦٥٧ـ٦٥٨هـ/١٢٥٩ـ١٢٦٠م
الظَّاهِر رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْس البُنْدُقْداري	٦٥٨ـ٦٧٦هـ/١٢٦٠ـ١٢٧٧م
السَّعِيد ناصِر الدِّين بَرَكَة خان بن بَيْبَرْس	٦٧٦ـ٦٧٨هـ/١٢٧٧ـ١٢٧٩م
العادِل بَدْر الدِّين سَلامِش بن بَيْبَرْس	٦٧٨ـ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩ـ١٢٧٩م
المَنْصُور سَيْفُ الدِّين قَلاوُون الألْفِي	٦٧٨ـ٦٨٩هـ/١٢٧٩ـ١٢٩٠م
الأشْرَف صَلاحُ الدِّين خَلِيل بن قَلاوُون	٦٨٩ـ٦٩٣هـ/١٢٩٠ـ١٢٩٣م
النَّاصِر ناصِرُ الدِّين محمَّد بن قَلاوُون (السَّلْطَنَة الأولى)	٦٩٣ـ٦٩٤هـ/١٢٩٣ـ١٢٩٤م
العادِل زَيْنُ الدِّين كَتْبُغا	٦٩٤ـ٦٩٦هـ/١٢٩٤ـ١٢٩٦م
المَنْصُور حُسامُ الدِّين لاجِين	٦٩٦ـ٦٩٨هـ/١٢٩٦ـ١٢٩٩م
النَّاصِر ناصِرُ الدِّين محمَّد بن قَلاوُون (السَّلْطَنَة الثَّانية)	٦٩٨ـ٧٠٨هـ/١٢٩٩ـ١٣٠٩م
المُظَفَّر رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْس الجاشَنْكِير	٧٠٨ـ٧٠٩هـ/١٣٠٩ـ١٣١٠م

النَّاصِر ناصِرُ الدِّين محمَّد بن قَلاوُون (السَّلْطَنَة الثَّالِثَة)	٧٠٩-٧٤١هـ/١٣١٠-١٣٤١م
المَنْصُور سَيْفُ الدِّين أبو بَكْر بن محمَّد ابن قَلاوُون	٧٤١-٧٤٢هـ/١٣٤١-١٣٤١م
الأَشْرَف عَلاءُ الدِّين كُجُك بن محمَّد ابن قَلاوُون	٧٤٢-٧٤٢هـ/١٣٤١-١٣٤٢م
النَّاصِر شِهابُ الدِّين أحمد بن محمَّد بن قَلاوُون	٧٤٢-٧٤٣هـ/١٤٤٢-١٤٤٢م
الصَّالِح عِمادُ الدِّين إسْماعِيل بن محمَّد ابن قَلاوُون	٧٤٣-٧٤٦هـ/١٣٤٢-١٣٤٥م
الكامِل سَيفُ الدِّين شَعْبان بن محمَّد بن قَلاوُون	٧٤٦-٧٤٧هـ/١٣٤٥-١٣٤٦م
المُظَفَّر زَيْنُ الدِّين حاجِي بن محمَّد بن قَلاوُون	٧٤٧-٧٤٨هـ/١٤٤٦-١٣٤٧م
النَّاصِر ناصِر الدِّين حَسَن بن محمَّد بن قَلاوُون (السَّلْطَنَة الأُولى)	٧٤٨-٧٥٢هـ/١٣٤٧-١٣٥١م
الصَّالِح صَلاحُ الدِّين صَالِح بن محمَّد ابن قَلاوُون	٧٥٢-٧٥٥هـ/١٣٥١-١٣٥٤م

النَّاصِر ناصِر الدِّين حَسَن بن محمَّد بن قَلاوُون (السَّلْطَنَة الثَّانِيَة)	٧٥٥-٧٦٢هـ/١٣٥٤-١٣٦١م
المَنْصُور ناصِرُ الدِّين محمَّد بن حاجِي ابن محمَّد بن قَلاوُون	٧٦٢-٧٦٤هـ/١٣٦١-١٣٦٣م
الأَشْرَف زَيْنُ الدِّين شَعْبان بن حُسَين بن محمَّد بن قَلاوُون	٧٦٤-٧٧٨هـ/١٣٦٣-١٣٧٧م
المَنْصُور عَلاءُ الدِّين علي بن شَعْبان بن حُسَيْن بن محمَّد بن قَلاوُون	٧٧٨-٧٨٣هـ/١٣٧٧- ١٣٨١م
الصَّالِح صَلاحُ الدِّين حاجِي بن شَعْبان ابن حُسَيْن بن محمَّد بن قَلاوُون (السَّلْطَنَة الأولى)	٧٨٣-٧٨٤هـ/١٣٨١-١٣٨٢م

دَوْلَةُ المَمالِيك الشَّراكِسَة (البُرْجِيَّة)

(٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م)

سَلْطَنَةُ الظَّاهِر بَرْقُوق

كان تَوَلِّي الظَّاهِر بَرْقُوق مَنْصِبَ السَّلْطَنة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م إيذانًا بِبَدْءِ عَصْرٍ جَدِيدٍ في تارِيخ الدَّوْلَة المَمْلُوكِية، حيث تَبْدأ فَتْرَةُ «المَمالِيك الشَّراكِسَة» أو «البُرْجِيَّة» الذين مَيَّزَهُم المُعَاصِرُون عن الفترة السَّابِقَة والتي أطْلَقُوا عليها «الدَّوْلَة التُّرْكِيَّة». فأصبح الأصْلُ العِرْقِي للسَّلاطِين اعْتِبارًا من هذا التَّأرِيخ هو العُنْصُر الشَّرْكَسِي، باسْتِثْناء الظَّاهِر خُشْقَدَم (٨٦٥-٨٧٢هـ/١٤٦٠-١٤٦٧م) والظَّاهِر تَمُرْبُغَا (رَبِيع أوَّل - جُمادى أوَّل ٨٧٢هـ/١٤٦٨م) اللذين كانا من أُصُولٍ رُومِيَّة يُونانِيَّة، وأصبحوا هم الذين يَنْتَمُون إلى السُّلْطَة ويتنافَسُون عليها. وإنْ كانت سَلْطَنَةُ الظَّاهِر بَرْقُوق، في حقيقة الأمْر، لا تختلفُ كثيرًا عن فترة سابِقِيه من النَّاحِيَتَيْن التَّنْظِيمية والإدارِيَّة[1].

---

[1] راجع، المقريزي: السلوك ٣: ٤٧٦-٦١٩، ٧٠٤-٩٤٧؛ إيمان عمر شكري: السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة ٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٨م من خلال مخطوط=

وبَدَأ الأمِير بَرْقُوق في فَرْضِ سَيْطَرَتِه الحَضَرِيَّة على الدَّوْلَة ابْتِداءً من سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م في خِلالِ سَلْطَنَتيّ المَنْصُور عَلِي والصَّالِح حاجِي ابْنَي السُّلْطَان الأشْرَف شَعْبان، حيث تَزَوَّجَ أمَّهُما أرْمَلَة الأشْرَف شَعْبان وشارَكَ الصَّالِحَ حاجِي العَرْشَ نَظَرًا لصِغَر سِنِّه، كما نَجَحَ في التَّخَلُّص من مُنافِسِيه الرَّئِيس الأمِير بَرَكَة، وقامَ بالتَّقَرُّب إلى النَّاس بإلْغاءِ عَدَدٍ من الضَّرائِب والمُكُوس وسَكِّ عُمْلَةٍ جَدِيدَةٍ خالِيَةٍ من البَذْلِ والغِشّ[1].

=عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان لبدر الدين العيني، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ٢٠٠٢م؛ أبا المحاسن: المنهل الصافي ٣: ٢٨٥ـ٣٤٢؛ الصيرفي: نزهة النفوس والأبدان ١: ٣٣ـ٥٦، ٢١٠ـ٢١٤، ٢٨٦ـ٥٠٤؛ السخاوي: الضوء اللامع ٣: ١٠ـ١٢؛ G. WIET, *EI*[2] art. *Barkuk* I, pp.1082-83؛ حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة ١٩٦٧م؛ علي عمر: دولة الظاهر برقوق وابنه في مصر، القاهرة ـ شركة نوابغ الفكر ٢٠٠٨م.

وانظر عرضًا عامًا لدولة المماليك الجراكسة في دراسات G. WIET, *L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane 642-1517 de l'ère chrétienne,* Paris 1937, pp.511-636; J.- CL. GARCIN, «The Regim of Circassion Mamluks», in CARL F. PETRY (ed.), *The Cambridge History of Egypt, I-Islamic Egypt 640-1517,* Cambridge 1998, pp.290-317; A. LEVANONI, «The Mamluks in Egypt and Syria: The Circassian Mamluk (784-1517/922-1382)», in *New Cambridge History of Islam,* Cambridge 2010, pp.743-84؛ ستانلي لين بول: تاريخ مصر في العصور الوسطى ٥٧٩ـ ٦٣٥؛ إبراهيم علي طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، القاهرة ١٩٦٠م؛ قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ـ التاريخ السياسي والاجتماعي، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث ١٩٩٨م؛ هاني حمزة: مصر المملوكية ـ قراءة جديدة، ١ـ ٢، الإسكندرية ـ دار العين للنشر ٢٠١٤م.

(١) المقريزي: السلوك ٣: ٢٨٢ـ ٢٨٥، ٣٠٨ـ٣١٦، ٤٣٩.

وأدَّى وُصُولُ بَرْقُوق إلى قِمَّةِ السُّلْطَة في مَصْر إلى وَضْعِ نِهايَةٍ لأسْرَةِ بني قَلاوُون التي ظَلَّت تَتَوارَثُ العَرْشَ أكثر من مئة عام، وأدَّى كذلك إلى تَغْيير النِّظَام الذي سارَت عليه الدَّوْلَةُ في الفَتْرَة التي أعْقَبَت وَفاةِ النَّاصِر محمَّد بن قَلاوُون (٧٤١-٧٨٤هـ/١٣٤١-١٣٨٢م) والذي كان فيه السُّلْطَانُ - فيما عدا اسْتِثْناءات قليلة - اسْمًا بلا سُلْطات ويَتَوَلَّى فيه الأَمْرَ كِبارُ أُمَراء المَماليك ومَجْلِس الشُّورَى المُكَوَّن منهم، فأصبح مُعَظَمُ السَّلاطِين مِمَّن مَسَّهُم الرِّقّ يَمْلِكُون ويَحْكُمُون حتَّى وإن اعْتَلَى العَرْشَ لفَتْرَةٍ قَصِيرَةٍ أَحَدُ أبْنائِهم بعد وَفاتِهم وأغْلَبُهم من الأَطْفال، كان ذلك بهَدَفِ إتاحَة الفُرْصَة لكِبارِ أُمَراءِ المَمالِيك لاخْتِيارِ واحِدٍ منهم يَتَوَلَّى السَّلْطَنَة اسْمًا وفِعْلًا.

وشَهِدَت دَوْلَةُ المَمالِيك الشَّراكِسَة كذلك نتيجةً لاحْتِدام الصِّـراع بين الأُمَراء المَمالِيك تَدَخُّلَ الخُـلَفَاء العَبَّاسِيين في الشُّؤون السِّياسِيَّة للدَّوْلَة بعد أنْ كان دَوْرُهُم مُقْتَصِرًا في الدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة الأولى على إضْفَاءِ الشَّرْعِيَّةِ على النِّظَام المَمْلُوكِي، حيث تَوَلَّى أحَدُهُم - وهو الخَلِيفَةُ المُسْتَعِين بالله العَبَّاس بن المُتَوَكِّل على الله محمَّد - السَّلْطَنَة لمُدَّةِ سِتَّة أشْهُر في مَطْلَع سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م نتيجةً للفَوْضَى التي أعْقَبَت مَقْتَل النَّاصِر فَرَج بن بَرْقُوق في دِمَشْق في مَطْلَع هذا العام بسبب الصِّراعِ الذي دارَ بينه وبين الأَمِيرَيْن نَوْرُوز الحافِظِي وشَيْخ المَحْمُودِي والذي أيَّدَ فيه الخَلِيفَةُ العَبَّاسِي جانِبَ الأَمِيرَيْن المُنْشَقَّيْن[1].

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٧٨٣-٧٨٧.

وتُمَثِلُ دَوْلَةُ المَماليك الشَّراكِسَة مَعْبَرًا لمِصْر بين فَتْرَةِ ازْدِهارِها التي بَدَأت مع اسْتِيلاءِ الفاطِمِيين على السُّلْطَة في مِصْر في مُنْتَصَفِ القَرْنِ الرَّابع الهجري/العاشِر الميلادي وبِدايَة القَرْنِ العاشِر الهجري/السَّادِس عَشَر الميلادي الذي يَعْتَبِرُه الغَرْبُ الأوروبي بِدايَة عَصْرِ النَّهْضَة والعَصْرِ الحَدِيث .

ولم تمض فترةُ حُكْم الظَّاهِر بَرْقُوق (٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-١٣٩٩م) دون اضْطِرابات، بل إنَّه نفسه عُزِلَ في أعْقَابِ حَرْبِ شَوَارِعِ دارَت بين الشَّراكِسَة والطَّوائِف المَمْلُوكِية الأخْرَى سنة ٧٩١هـ/١٣٩٠م عادَ فيها إلى السَّلْطَنَة السُّلْطَانُ المَنْصُورُ صَلاحُ الدِّين حاجِي بن الأشْرَف شَعْبان، إلَّا أنَّه ما لَبِثَ أنِ اسْتَرَدَّ الظَّاهِرُ بَرْقُوق عَرْشَه في العام التَّالي وأعادَ النِّظامَ إلى الدَّوْلَة.

النَّاصِرُ فَرَج والأزَمَات السِّياسِيَّة والاقْتِصَادِيَّة

وكما حاوَلَ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس والمَنْصُورُ قَلاوُون من قَبْل راوَدَت الظَّاهِرَ بَرْقُوق فِكْرَةُ تأسِيسِ أسْرَةٍ حاكِمَةٍ جديدةٍ . فعندما أحَسَّ بدُنُوِّ أجَلِه عَقَدَ مَجْلِسًا ضَمَّ الخَلِيفَةَ وكِبارَ الأُمَراء والقُضَاة وحَلَّفَهُم بأنْ تكون السَّلْطَنَةُ من بَعْدِه لأوْلادِه فَرَج وعبد العَزِيز وإبْراهِيم ، واخْتارَ مَجْلِسًا للوِصَايَة عليهم برئاسَة الأمِير أيْتَمُش البِجَاسِي أتابِك العَساكَر يَضُمُّ الخَلِيفَة العَبَّاسِي المُتَوَكِّل على الله وبعض كِبار الأُمَراء، وأسْنَدَ وِلايَةَ عَهْدِه إلى وَلَدِه الأكْبَر فَرَج الذي تَلَقَّبَ بـ «النَّاصِر زَيْن الدِّين أبو السَّعَادات» (٨٠١-٨١٥هـ/

١٣٩٩-١٤١٢م) وله من العُمْرِ عَشْرُ سَنَوات ، الأَمْرُ الذي أدَّى إلى وُقُوعِ مُصَادَمات لا مُتناهِيَةٍ بين أُمَراءِ الظَّاهِرِ بَرْقُوق والسُّلْطَان الجَدِيد لم تعرف لها نِهايَةً إلَّا مع وَفاةِ السُّلْطان النَّاصِر فَرَج مَقْتُولًا في دِمَشْق سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م .

ولَعَلَّها المَرَّة الأخِيرَة في تاريخ الدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة التي تَوَلَّى فيها السُّلْطَةَ الفِعْلِيَّةَ سُلْطَانٌ مِمَّن لم يَمَسَّهُم الرِّقّ ؛ وإنْ عانَت فيها الدَّوْلَةُ المَمْلُوكِيَّةُ الكَثِيرَ من الكَوارِث والأَزَمات الاجْتِماعِيَّة والاقْتِصادِيَّة حيث وَصَلَت جُيُوشُ القائِد المُغُولي تَيْمورلَنْك إلى بِلادِ الشَّام ، سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م ، وخَرَّبَت مُدُنَها الرَّئِيسَة حَلَب وحَماة ودِمَشْق وبَعْلَبَك وكذلك فِلَسْطِين والقُدْس ؛ إضَافَةً إلى الأَزْمَة الاقْتِصادِيَّة التي مَرَّت بِمِصْر سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م ، والحَمَلات التي خَرَجَ فيها السُّلْطانُ إلى الشَّام لمُحارَبَة الأُمَراء الخارِجِين على الطَّاعَة وعلى رأسِهِم الأمِير شَيْخ المَحْمُودِي والأمير نَوْرُوز الحافِظِي وما أُنْفِقَ فيها من أمْوالٍ كان يمكن تَوْجِيهُها في مَسالِك تَعُودُ بالنَّفْع على الدَّوْلَة. ووَصَفَ شَيْخُ مُؤَرِّخي مَصْرَ الإسْلامِيَّة تَقِيّ الدِّين المَقْرِيزي عَهْدَ النَّاصِر فَرَج ، الذي كان مُعاصِرًا له ومُشارِكًا في صُنْع أحْداثِه ، بالعِبارات التَّالِيَة : و«تَلاشَت [في عَهْدِه] مَدائِنُ الصَّعِيد كُلُّها وخَرِبَ من القاهِرَة وظَواهِرِها زِيادَةٌ على نِصْفِ أمْلاكِها . وماتَ من أهْلِ إقْلِيم مِصْر بالجُوع والوَباء نحو ثُلُثَي النَّاس . وقُتِلَ في الفِتَنِ بِمِصْرَ مُدَّةَ أيَّامِه خَلائِقُ لا تَدْخُل تحت حَصْرٍ ، مع تَجاهُرِه بالفُسُوقِ من شُرْبِ الخَمْر وإتْيانِ الفَواحِش والتَّجَرُّؤ العَظِيم على

الله ـ جَلَّت قُدْرَتُه ـ والتَّلَفُّظ من الاسْتِخْفافِ بالله تعالى ورُسُلِه بما لا تَكادُ الأَلْسِنَةُ تَنْطِقُ بحِكايَتِه لقَبِيح شَناعَتِه» وعَدَّه بذلك «أَشْأَم مُلُوكِ الإسْلام»[1].

وصَاحَبَ هذه الفَتْرَة الطَّويلَة من الاضْطِرابات والفَوْضَى السِّياسِيَّة تَغَيُّراتٌ مُهِمَّةٌ شَهِدَها المَشْرِقُ الإسْلامِي، حيث تَحَوَّلَ الوَضْعُ العام السِّياسِي تمامًا للمنطقة، فبدأت الإمارَةُ العُثْمانِيَّةُ النَّاهِضَةُ في آسْيا الصُّغْرَى في تَهْدِيد مَصالِح السَّلْطَنَة المَمْلُوكِية، وإنْ تَراجَعَ هذا الخَطَرُ مُؤَقَّتًا بسبب مُعاوَدَة المُغُول في عَهْدِ تَيْمُورلَنْك الإغَارَة على بِلادِ الشَّام حيث اسْتَوْلَى على مَدِينَة سِيواس وتَحَرَّكَ منها جَنُوبًا إلى دِمَشْق سنة ٨٠٣هـ/١٤٠١م قبل أنْ يُواصِلَ طَرِيقَه لمُهاجَمَة العُثْمانِيين في أَنْقَرَة في نهاية ذي الحِجَّة سنة ٨٠٤هـ/١٤٠٢م[2].

وشَهِدَت مِصْرُ في عَهْدِه أسْوأ أَزْمَةٍ اقْتِصادِيَّةٍ منذ الفَنَاء الكبير الذي اجْتاحَ شُعُوبَ حَوْضِ البَحْر المُتَوَسِّط في أواسِط القَرْنِ السَّابِق. وبَدأت هذه الأَزْمَةُ مع بِدايَة عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م وبَلَغَت أَوْجَها في العام التَّالي، وتَفاقَمَت الأَزْمَةُ لعَدَم وُجُودِ سُلْطَةٍ قَوِيَّة تُواجِهُها وتَتَدارَكُها بسبب صِغَرِ سِنِّ السُّلْطان وصِراعِ كِبارِ الأُمَراء. وعاصَرَ هذه الأَزْمَة مُؤَرِّخُ مِصْر الكبير

---

(١) المقريزي: السلوك ٤: ٢٢٥.

(٢) انظر لتفاصيل أكثر ابن عربشاه: عجائب المقدور في نوائب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصي، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م.

تَقِيُّ الدِّين أحمد بن علي المَقْرِيزِي وفَقَدَ نَتِيجَةً لها إحْدَى بَنَاتِه الأمْر الذي دَفَعَه إلى تأليفِ رِسالَتِه المُهِمَّة «إغَاثَة الأُمَّة بكَشْفِ الغُمَّة» ، سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م ، التي اسْتَعْرَضَ فيها تارِيخَ الأزَمات الاقْتِصَادِيَّة التي مَرَّت بها مِصْرُ منذ التَّارِيخ القَدِيم وحتَّى أزْمَة سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م التي أرْجَعَها إلى ثلاثَة أسباب رَئِيسَة : أوَّلها سِياسِي بسَبَبِ الانْقِسامات والحُرُوب الدَّاخِلِيَّة بين أُمَرَاء المَمالِيك وانْشِغالِهِم عن رِعايَة مَصَالِح المُواطِنِين ، الأمْر الذي أدَّى إلى عُمُومِ الفَوْضَى وانْتِشارِ قُطَّاعِ الطُّـرُق في البلاد وانْعِدامِ الأمْن وتَزايُد ثَوَرات أهْلِ الرِّيف مِمَّا تَـرَتَّبَ عليه قِلَّةُ الإنْتاج الزِّراعِي الذي يُعَدُّ عِمادَ اقْتِصَادِ الدَّوْلَة بسَبَبِ تَوَقُّفِ النِّيل عن الزِّيادَة وقَلَقِ الأهالي من خَطَرِ المَجَاعَة وعَدَم تَمَكُّن المُزارِعِين ـ على الأخَصّ في الصَّعِيد أهَمّ مَراكِز إنْتاج الحُبُوب ـ من رَيّ الأراضِي . والثَّاني اقْتِصَادِي بسَبَب زِيادَة أُمَراء المَمالِيك لقِيمَة الضَّرائِب المَفْرُوضَة على الأراضِي الزِّراعِيَّة والتي بَلَغَت في بعض الأحْيان عَشْرَة أمْثال القِيمَة المُعْتادَة من أجْلِ زِيادَة مَوارِدِهِم المالية ، الأمْر الذي أدَّى إلى ارْتِفَاعِ أسْعارِ الغِلال وزِيادَةِ تَكْلِفَتِها التي لم يَتَحَمَّلْها المُزارِعُون الذين هَجَرُوا الأراضِي مِمَّا أثَّرَ سَلْبًا على المُنْتَجات الزِّراعِيَّة . والثَّالِث ما أطْلَقَ عليه المَقْرِيزِي «رَوَاج الفُلُوس» الذي تَسَبَّبَ في التَّضَخُّم وانْهِيارِ النِّظَام النَّقْدِي للبِلاد ، الأمْر الذي كان له نَتائِجُ سَلْبِيَّة على اقْتِصادِ الدَّوْلَة حتَّى نهايَتِها[١].

---

(١) راجع المقريزي : إغاثة الأمة ٤٣ـ ٤٧؛ عثمان محمد علي عطا : الأزمات الاقتصادية =

الأشْرَفُ بَرْسِباي واحْتِكَارُ التِّجَارَة الشَّرْقِيَـة

كانت الفَتْـرَةُ التي تولَّى فيها المُؤَيَّدُ شَيْخ المَحْمُودِي (٨١٥-٨٢٤هـ/ ١٤١٢-١٤٢١م) هي فترة إعادَة تَنْظِيم الدَّوْلَة في أعْقابِ الصِّراع والمِحَنِ الاقْتِصَادِيَّة التي مرَّت بها مِصْـرُ في مَطْلَعِ القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشَر الميلادي[١]. ثم جاءَت مُدَّةُ حُكْمِ الأشْرَف بَرْسِباي الطَّويلَة (٨٢٥-٨٤١هـ/ ١٤٢٢-١٤٣٨م) لتَشْهَدَ سِلْسِلَةً من التَّحَوُّلات، وعلى الأَخَصِّ في النَّواحِي الاقْتِصَادِيَّة، حيث قامَ هذا السُّلْطانُ بعَمَلِيَّة احْتِكارِ للتِّجَارَة الشَّرْقِيَّة وعلى الأَخَصِّ التِّجَارَة الكارِمِيَّة[٢].

= في مصر في العصر المملوكي وأثرها السياسي والاقتصادي والاجتماعي ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م، القاهرة ـ سلسلة تاريخ المصريين ٢١٣، ٢٠٠٢م.

[١] انظر لمزيد من التفصيل العيني: السيف المهند في سيرة الملك المؤيّد، تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٧م والروض الزاهر في سيرة الملك الظَّاهِر «طَطَر»، تحقيق هانس أرنست، القاهرة ١٩٦٢م؛ أبا المحاسن: المنهل الصافي ٦: ٢٦٣-٣١٢؛ P. M. Holt, *EI*² art. *al-Mu'ayyad Shaykh* VII, pp.273-74. وتَولَّى في السنة التي تفصل بين سَلْطَنَة المؤيَّد شَيْخ وسَلْطَنَة الأشْرَف بَرْسِباي (المحرم ٨٢٤ ـ ربيع الآخر ٨٢٥هـ/ ١٤٢١-١٤٢٢م) ثلاثة سلاطين: المُظَفَّر أحمد بن شَيْخ والظَّاهِر طَطَر والصَّالِح محمد بن طَطَر، وسادها اضطرابٌ شديد وفوضى عارمة حتى تمكَّن الأشْرَفُ بِرْسِباي من وَضْعِ نهاية لهذه الفوضى وهذا الاضطراب.

[٢] راجع عن التجارة الكارمية نشأتها وتطورها G. Wiet, «Les marchands d'épices sous les sultans mamluks», *Cahiers d Histoire Egyptienne* VII (1955), pp.81-

فقد حَلَّ مِيناءُ جَدَّة بالحِجَاز مَحَلَّ مِيناء عَدَن كمَرْسَى للسُّفُنِ المُحَمَّلَة بتِجَارَة الشَّرْقِ الأقْصَى القادِمَة من الصِّين والهِنْد، وعلى الأخَصِّ تِجَارَة التَّوابِل. الأمْرُ الذي دَفَعَ السُّلْطاتَ المَمْلُوكِية ـ صاحِبَة السِّيادَة على الحِجَاز ـ أنْ تَضَعَ مِيناءَ جَدَّة تحت الحُكْم المِصْرِي المُبَاشِر، ممَّا أثَّرَ سَلْبًا على مِيناء عَيْذاب على الشاطئ المِصْري للبَحْر الأحْمَر. وتَرَتَّبَ على ذلك تَوْجِيهُ غالِبِيَّة هذه التِّجَارَة إلى مِيناءِ الإسْكَنْدَرِيَّة، حيث يوجدُ من كِبارِ التُّجَّار من يَشْتَغِل بالمَتْجَر لِحِسابِ السُّلْطان، الأمْر الذي جَعَلَ السُّلْطانَ بَرسِباي يُحَقِّقُ أرْباحًا طائِلَةً من تِجارَة التَّوابِل في السَّنَوات الأولى التي تَدَفَّقَت فيها هذه السِّلْعَة إلى مِيناء الإسْكَنْدَرِيَّة حتى أنَّه قامَ باحْتِكارِ هذه التِّجَارَة وتَبِعَه في ذلك جَمِيعُ السَّلاطِين المَمالِيك، الذين خَلَفُوه في القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشَر الميلادي(١).

147; S. Y. Labib, *EI*[2] art. *Karimi* IV, pp.666-670؛ صبحي لبيب : «التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ٢/٤ (١٩٥١)، ٥-٦٣؛ الشاطر بصيلي: «الكـارمية»، المجلة التاريخية المصرية ١٣(١٩٦٧)، ٢١٧-٢٢١؛ أحمد حطيط : «الكارمية وتجارة الكارم في عصر المماليك ـ مساهمة في دراسة التاريخ الاقتصادي الإسلامي»، في كتاب قضايا من تاريخ المماليك السياسي والحضاري، بيروت ـ الفرات للنشر والتوزيع ٢٠٠٣م، ١٩٠-٢١٣؛ أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية في مصر ـ تفسير جديد، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٦م، ٤٩٦-٥٠٠.

(١) راجع A. Darrag, *L'Egypte sous le règne de Barsbay 825-841/1422-1438*, Damas-IFD 1961؛ أحمد دراج: «إيضاحات جديدة عن التحول في تجارة البحر=

وإذا كانت هذه السِّياسَةُ الاحْتكارِيَّةُ قد حَقَّقَت لِمِصْر ولِخَزائِن السَّلاطِين أرْباحًا وَفِيرَةً، إلَّا أنَّها عادَت على البِلاد بعَواقِبَ وَخِيمَة، لأنَّ الاحْتِكارَ اقْتَرَنَ بالمُبالَغَة في تَقْدِير الأرْباح وأدَّى إلى طَرْحِ البَضَائِع جَبْرًا على التُّجَّار وبالسِّعْر الذي يُحَدِّدُه السُّلْطَان، مِمَّا دَفَعَ تُجَّارَ الفِرِنْجِ في أحْيانٍ كثيرةٍ إلى الامْتِناعِ عن شِرَاءِ ما يُطْرَحُ عليهم من بَضَائِع، الأمْرُ الذي أدَّى إلى نُشُوبِ أزَمات سِياسِيَّةٍ واقْتِصادِيَّةٍ كثيرةٍ بين دَوْلَةِ سَلاطِين المَماليك ودُوَلِ الفِرِنْج، التي كانت تُضْطَرُّ إلى التَّدَخُّل لحِمايَة مَصَالِح تُجَّارِها، مِمَّا دَفَعَ الأورُوبيين إلى البَحْثِ عن طَرِيقٍ آخَر للوُصُولِ إلى الهِنْد غير طَرِيقِ البَحْر الأحْمَر، وهو ما انتهت إليه حَرَكَةُ الكَشْفِ الجُغْرافي في نهاية هذا القَرْن.

غَزْو رُودُس

وفي الوَقْتِ نفسه ساعَدَ الاسْتِقْرارُ النِّسْبِي وقِلَّةُ الاضْطِرابات التي تَمَيَّزَ بها عَهْدُ الأشْرَف بَرْسِباي على قِيامِه بمَشْرُوعٍ حَرْبِي كبير عندما قامَ في بِدايَة سَلْطَنَتِه بغَزْو جَزِيرَة قُبْرُص وضَمَّ تَبَعِيَّتَها إلى دَوْلَةِ سَلاطِين المَماليك سنة

=الأحمر منذ مطلع القرن التاسع الهجري»، المحاضرات العامة للجمعية التاريخية المصرية (الموسم الثقافي ١٩٦٧- ١٩٦٨)، القاهرة ١٩٦٨، ١٨٥-٢٢٠؛ J.-CL. GARCIN, «La Mediterraneisation de l'empire mamelouke sous les sultans bahrides», *RSO* XLVIII (1973-74), pp.109-16; L. FERNANDES, *EI*[3] art. *Barsbay, al-Malik al-Ashraf.*

٨٢٨هـ/١٤٢٥م، بعد أنْ كانت مَرْكَزًا انْطَلَقَت منه في منتصف القَرْن السَّابِق العَدِيدُ من الحَمَلات الصَّليبيَّة التي هَدَّدَت العَدِيدَ من المَوانئ الإسْلامِيَّة في شَرْقي البَحْر المُتَوَسِّط خاصَّةً عندما قامَ الملك بُطْرُس الأَوَّل لُوزِجْنان PIERRE DE LUSIGNAN ملك قُبْرُص بغَزْو الإسْكَنْدَرِيَّة سنة ٧٥٥هـ/١٣٦٥م، كما اتَّخَذَها القَراصِنَةُ المَسِيحِيُّون فيما بعد قاعِدَةً لمُهاجَمَة الثُّغُور الإسْلامِيَّة، وظَلَّت كذلك حتَّى نِهايَة الدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة[1].

وفي الوَقْتِ نَفْسِه قامَ خَلَفُه السُّلْطانُ الظَّاهِرُ جَقْمَق (٨٤١-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) بمحاوَلَة غَزْوِ جَزِيرَة رُودُس التي اتَّخَذَها فُرْسَانُ الاسْبِتارِيَّة l'Hospitaliers قاعِدَةً لهم يُغِيرُونَ منها على بِلادِ الإسْلام، وانْتَهَى الأَمْرُ بعَقْدِ صُلْحٍ بين الطَّرَفَيْن تَعَهَّدَ فيه فُرْسَانُ الاسْبِتارِيَّة بعَدَمِ العُدْوان على السُّفُنِ التِّجارِيَّة الإسلامِيَّة التي تَعْبُر البَحْرَ المُتَوَسِّط[2].

المَمالِيكُ الأَجْلاب (الجُلْبان)

وإذا كان المَقْرِيزِيُّ قد أَثْنَى على المَمالِيك وتَنْشِئَتِهم في الدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة الأُولى، فإنَّه غَيَّرَ رأيَه في المَمالِيك الذين عاصَرَهُم، مِمَّا يَدُلُّ على التَّغَيُّرات والتَّحَوُّلات التي طَرأَت على نِظَامِ المَمالِيك في النِّصْفِ الأَوَّل للقَرْنِ التَّاسِع

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٤: ٢٧٥-٢٨١.
(٢) المصدر نفسه ١٥: ٣٦١-٣٦٣.

الهِجْرِي/ الخامِس عَشَر الميلادِي خاصَّةً بعد أنِ اسْتَكْثَرَ السُّلْطَان الأَشْرَفُ بَرْسِباي من «المَمالِيك الأجْلاب (الجُلْبان») (الذين يُشْتَرُونَ ويُجْلَبونَ كِبارًا على عَكْسِ مَمالِيك العَصْرِ الأوَّل) الذين أُطْلِقَ عليهم «المَماليك الأَشْرَفِيَّة»، وأَخَذُوا في الشَّغَبِ على الدَّوْلَة وظَلُّوا مَصْدَرًا لإثارَة القَلاقِل والنِّزاعات الدَّاخِلِيَّة ممَّا أدَّى إلى تَراجُعِ مَكانَتِهِم وقادَ في النِّهايَة إلى سُقُوطِ دَوْلَتِهِم، يقُولُ المَقْرِيزي : إنَّ الظَّاهِرَ بَرْقُوق لمَّا عادَ إلى السَّلْطَنَة سنة ٧٩١هـ/١٣٩٠م

«رَخَّصَ للمَماليك في سُكْنَى القاهِرَة وفي التَّزْوِيج ، فنَزَلُوا من الطِّباق من القَلْعَة ، ونَكَحُوا نِساءَ أهْلِ المَدِينَة وأَخْلَدُوا إلى البِطالَة ونَسَوا عَوائِدَهُم الأولَى . وبَقِيَ الجُـلْبُ من المَماليك ابْتِداءً من هذا العَصْرِ إنَّما هم الرِّجال الذين كانوا في بِلادِهِم ما بين مَلَّاحِ سَفِينَة ووَقَّادٍ في تَنُّورِ خَبَّاز ومُحَوِّل ماءٍ في غَيْطِ أشْجار ونحو ذلك ، فاسْتَقَرَّ رَأْيُ خَلَفِه النَّاصِر فَرَج على أنَّ تَسْلِيمَ المَماليك للفَقِيه يُتْلِفُهُم ، بل يُتْرَكون وشُؤُونَهم . فتَبَدَّلَت الأَرْضُ غير الأَرْض وصارَت المَمالِيكُ السُّلْطانِيَّةُ أرْذَلَ النَّاسِ وأدْناهُم وأخَسَّهُم قَدْرًا وأشَحَّهُم نَفْسًا وأجْهَلَهُم بأمْرِ الدُّنْيا وأكْثَرَهُم إعْراضًا عن الدِّين، ما فيهم إلَّا مَنْ هو أزْنَى من قِرْد وألَصَّ من فأرة وأفْسَدَ من ذِئْب ، لا جَرَمَ أنْ خَرِبَت أَرْضُ مِصْر والشَّام - من حيث يَصُبُّ النِّيلُ إلى مَجْرَى الفُرات - بسُوءِ إيالَةِ الحُكَام وشِدَّةِ عَبَثِ الوُلاة وسُوءِ تَصَرُّفِ أولي الأَمْر حتَّى إنَّه ما من شَهْرٍ إلَّا ويَظْهَرُ من الخَلَل العام ما لا يُتدارَكُ فَارِطُه»[1] .

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٦٩٣-٦٩٤؛ وانظر كذلك هدية إمام علي=

نِهايَةُ المَمالِــيك

وفي أعْقابِ وَفَاةِ السُّلْطَان الأشْرَف بَرْسِباي سنة ٨٤١هـ/١٤٣٨م، تَوَلَّى حُكْمَ الدَّوْلَة ثَلاثَةُ سَلاطِين هم : السُّلْطَانُ الظَّاهِرُ سَيْفُ الدِّين جَقْمَق (٨٤٢-٨٥٧هـ/١٤٣٨-١٤٥٣م) والسُّلْطَانُ الأشْرَفُ سَيْفُ الدِّين إينال العَلائي (٨٥٧-٨٦٥هـ/١٤٥٣-١٤٦١م) والسُّلْطَانُ الظَّاهِرُ سَيْفُ الدِّين خُشْقَدَم الذي أعْلَنَ، عند وَفاتِه سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، اثْنان من أتابِكَة العَساكِر أنْفُسَهُما على التَّوالي في مَنْصِب السَّلْطَنَة : الظَّاهِر بَلَباي المُؤَيِّدِي والظَّاهِر تَمُرْبُغا الظَّاهِري جَقْمَق وبَسَطا نُفوذَهُما عن طَرِيق السَّيْطَرَة على مجموعات الضَّغْطِ في الجَيْش المَمْلُوكي[١]. وكان الأميرُ سَيْفُ الدِّين قايِتْباي، أحَدُ مَماليك الأشْرَف بَرْسِباي، أتابِكَ العَساكر ويَتَطَلَّعُ إلى السَّلْطَنَة واسْتَعانَ لذلك باثْنَيْنِ من كِبارِ أُمَراء المَمالِيك للسَّيْطَرَة على المَوْقِف وحِفْظِ التَّوازُن بين فِرَقِ الجَيْش: الأمير أزْبَك مِنْ طُطُخ أحَد مَمالِيك الأشْرَف بَرْسِباي من جانِب، والأمير يَشْبَك مِنْ مَهْدي أحد مَمالِيك الظَّاهِر جَقْمَق من جانِبٍ آخَر. وانتهى الأمْرُ بنَفْي تَمُرْبُغا إلى دِمْياط ثم إلى الإسْكَنْدَرِيَّة

=عبد الرحيم : المماليك الجلبان ودورهم في عصر دولة المماليك الجراكسة، رسالة ماجستير - كلية الآداب - جامعة القاهرة ٢٠٠٠م.

(١) انظر لتفاصيل أكثر أبا المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، الجزأين ١٥ و١٦.

ومُبايَعَة كِبارِ أُمَراء المَمالِيك للأمِير قايِتْباي المَحْمُودِي بالسَّلْطَنَة باسْم «السُّلْطان الأشْرَف قايِتْباي»، فأعادَ للدَّوْلَة كَيانَها بعد فَتْرَةِ الاضْمِحْلالِ التي أعْقَبَت وَفاةَ السُّلْطان الأشْرَف بَرْسِباي (٨٤١-٨٧٢هـ/١٤٣٧-١٤٦٨م).

وبذلك تُعَدُّ سَلْطَنَةُ الأشْرَف قايِتْباي الطَّوِيلَة (٨٧٢-٩٠٢هـ/١٤٦٨-١٤٩٦م)، والتي اسْتَمَرَّت ثَلاثِين عامًا، ذُرْوَةَ العَصْرِ المَمْلُوكِي الثَّاني، والتي يمكن مُقارَنَتُها بالسَّلْطَنَة الثَّالِثَة للنَّاصر محمَّد بن قَلاوُون في العَصْرِ المَمْلُوكِي الأوَّل (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣١٠-١٣٤١م). فالآثارُ المِعْمارِيَّةُ التي شَيَّدَها هذا السُّلْطان في القَاهِرَة ومَواضِع أُخْرى حتى الأراضي المُقَدَّسَة في مَكَّة والمَدِينَة جَعَلَت من هذه الفَتْرَة واحِدَةً من أغْنَى الفَتَرات في التَّشْيِيد والتَّعْمِير. غير أنَّ الوَضْعَ العام تَعَقَّدَ نِسْبِيًّا في سَنَواتِها الأخِيرَة بسبب التَّنافُس الذي بَدَأ مع العُثْمانِيين، القُوَّة الإسْلامِيَّة الجَدِيدَة التي بدأت في الظُّهُورِ في المنطقة، والذي قادَ إلى مُواجَهات مُباشِرَة بين القُوَّتَيْن ابتداءً من سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣م. وعندما عُقِدَ صُلْحٌ بين الجانِبين في سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م، لمُدَّة رُبْعِ قَرْنٍ، كانت الكَلِمَةُ العُلْيا فيه للمَمالِيك[1].

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣: ٢٨١-٢٨٢؛ وانظر كذلك غيثاء أحمد نافع: العلاقات العثمانية المملوكية ٨٦٨-٩٢٣هـ/١٤٦٤-١٥١٧م، بيروت - المكتبة العصرية ٢٠٠٥م؛ ماجدة مخلوف: «العلاقات المملوكية العثمانية والفتح العثماني لمصر» في كتاب=

وشَهِدَت هذه الفَتْرَةُ كذلك بِدايَةَ قِيام نِظامٍ عالَمِي جَدِيد تَمَثَّلَ في ظُهُورِ قُوًى جَدِيدَة على مَسْرَحِ الأحْداث ؛ فإضَافَةً إلى العُثْمانِيين السُّنَّة الذين مَدُّوا نُفُوذَهُم إلى شَرْقِ أوروبا (بلاد الرُّومَلي) وغَربِ الأناضُول وهَدَّدُوا مُمْتَلَكات الدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة ، بَدَأ نَجْمُ الصَّفَوِيين في إيران في الظُّهُور عندما نَجَحَ الشَّاهُ إسْماعِيل الصَّفَوِي ، سنة ٩٠٧هـ/١٥٠٢م، في تَوْحِيدِ إيران على أساسٍ قَوْمِي ومَرْجِعِيَّةٍ شِيعِيَّةٍ اثْنَى عَشْرِيَّة لتصبح إحْدَى الدُّوَل الإسْلامِيَّة الكُبْرى على المَذْهَب الشِّيعِي الاثْنَى عَشْرِي[١].

وأدَّت وَفاةُ الأشْرَف قايِتْباي ، في ذي القعدة سنة ٩٠١هـ/١٤٩٦م عن عُمْرٍ يُناهِزُ الرَّابِعَة والثَّمانِين ، إلى صِراعات عَنِيفَة على السُّلْطَة بين الفِرَق الشَّرْكَسِيَّة الضَّعِيفَة التي لم تَتَرَدَّد في طَلَبِ العَوْنِ من جَماعات البَدْوِ المنتشرة في الصَّحارَى المِصْرِيَّة ، وتَوَلَّى السَّلْطَنَة في خَمْس سَنَوات (٩٠١-٩٠٦هـ/١٤٩٦-١٥٠١م) أرْبَعَةُ سَلاطِين كان أوَّلُهُم النَّاصِر محمَّد بن الأشْرَف قايِتْباي وله من العُمْر أرْبَعَة عَشْر سنة[٢]، قُتِلَ منهم ثَلاثَةٌ

=تاريخ مصر في العهد العثماني ١٥١٧-١٩١٤م ، إستانبول - إرسيكا ٢٠١٧م ، ١٧-٥٤.

[١] راجع لتفاصيل أكثر أحمد الخولي : الدولة الصفوية - تاريخها السياسي والاجتماعي ، علاقاتها بالعثمانيين ، القاهرة - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨١م ؛ J. T. P. DE BRUIJN, *EI²* art. *Safawides* VIII, pp.765-777.

[٢] ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٣: ٣٢٣-٣٢٥.

فَوْرَ خَلْعِهِم من السَّلْطَنَة وخُنِقَ رابِعُهُم بعد فَتْرَة[١]. وإنْ سَجَّلَت سَلْطَنَةُ آخِر أهَمّ السَّلاطِين المَمالِيك، الأشْرَف قانْصُوه الغُوري (٩٠٦-٩٢٢هـ/ ١٥٠١-١٥١٦م)، عَوْدَةً إلى السِّياق الطَّبِيعي[٢].

غير أنَّ السَّلْطَنَة المَمْلُوكِية تَمَّ تَهْدِيدُها في أحَدِ أهَمّ مَصَادِرِها الأسَاسِيَّة التي كانت تَضْمَنُ لها نَوْعًا من الاسْتِقْرار الاقْتِصَادِي، عندما دَخَلَ البُرْتُغالِيُّون إلى المُحِيط الهِنْدِي عند مُنْقَلَب القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشَر الميلادي ونافَسُوا المَمالِيكَ في سَيْطَرَتِهم على طُـرُقِ التِّجارَة الدَّوْلِيَّة المُؤَدِّية إلى الهِنْد، بعد أنْ نَجَحَ برثولميو دِياز Bartholomew Diaz في اكْتِشافِ طَرِيقِ رَأسِ الرَّجَاءِ الصَّالِح سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م وتَمَكَّن فاسْكو دا جاما Vasco da Gama بمُعاوَنَة المَلَّاح العَرَبي أحمد بن ماجِد من الوُصُولِ إلى الهِنْد عن طَرِيق الطَّوافِ حَوْلَ القارَة الأفْرِيقِيَّة سنة ٩٠٤هـ/١٤٩٨م، وبعد نَجَاحِ الأسْطُولِ البُرْتُغالي في تَحْطِيمِ الأسْطُولِ المَمْلُوكي في مَعْرَكَة دِيُو Diu البَحْرِيَّة في المُحِيط الهِنْدي أمامَ سَوَاحِل كُجَرات سنة ٩١٥هـ/

---

[١] هم إضافةً إلى الأشْرَف محمَّد بن قايتْباي: الظَّاهِر قانْصُوه خَمْس مئة والأشْرَف جانْبِلاط والعادِل طُومان باي الأوَّل.

[٢] راجع لتفاصيل أكثر C. Petry, *Twilight of Majesty. The Reigns of the Mamluk Sultans al-Ashraf Qayitbay and Qansuh al-Ghawri in Egypt,* Seattle 1993; Id., *Protectors or Praetorians? The Last Mamluk Sultans of Egypt's Waning as a Great Power,* Albany 1994.

١٥٠٩م[1]؛ الأمْرُ الذي مَكَّنَ أورُوبا من الحُصُولِ على مَتاجِر الشَّرْقِ الأَقْصَى وعلى رأسِها التَّوابِل (Les épices) بما يُعادِلُ رُبْعَ ثَمَنِها المعروضَة به في المَوانئ المِصْرِيَّة .

هكذا كان للظُّـرُوفِ الدَّوْلِيَّة دَوْرٌ مُهِمٌّ في وَضْعِ نِهايَةٍ لدَوْلَةِ سِلاطِين المَمالِيك في مِصْر والشَّام، تَمَثَّلَت في اكْتِشافِ «طَرِيق رَأسِ الرَّجَاءِ الصَّالِح» ووُصُولِ البُرْتُغالِيين إلى المُحِيطِ الهِنْدِي الأمْر الذي أثَّرَ تأثِيرًا سَلْبِيًّا على الوَضْعِ الاقْتِصَادِي للدَّوْلَة المَمْلُوكِيَّة، وتَحَوُّلِ الدَّوْلَة العُثْمانية ـ القُوَّة الجَدِيدَة النَّامِية في العالَم الإسْلامِي ـ من قُوَّةٍ إسْلامِيَّةٍ مَحْصُورَةٍ في آسْيا الصُّغْرَى، إلى قُوَّةٍ عالَمِيَةٍ كبرى بعد نَجَاحِها في فَتْحِ القُسْطَنْطِينِيَّة (الآستانَة ـ إسْتانْبول) واتِّخاذِها عاصِمَةً لها ووَضْعِ نِهايَةٍ للدَّوْلَة البِيزَنْطِيَّة المَسِيحِيَّة، في سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، ثم اجْتِياحِها لأَراضي أوروبا الشَّرْقِيَّة (الرُّومَلي) وتَطَلُّعِها لمَـدِّ سَيْطَرَتِها على ما أصْبَحَ يُعْرَفُ بعد ذلك بأراضي العالَم العَرَبي (العِرَاق والشَّام ومِصْر والحِجَاز واليَمَن وشَمال أفْرِيقْيا) وهو ما تَحَقَّقَ في عَهْدِ السُّلْطَانِ العُثْماني سَلِيم الأَوَّل وخُلَفَائِه ابْتِداءً من عام ٩٢٢هـ/١٥١٦م بعد مَوْقِعَةِ مَرْجِ دابِق ومَقْتَل السُّلْطَان قانْصُوه الغُورِي ثم إعْدام خَلَفِه

---

[1] ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٤: ٤٣٥؛ زين الدين المليباري : تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تحقيق محمد سعيد الطريحي، بيروت ـ مؤسسة الوفاء ١٩٨٥م، ٢٤٥ـ٢٥٣؛ أحمد درَّاج : المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس العاشر الميلادي، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٩٦١م، ١٢٧ـ١٥٧.

السُّلْطَان طُومان باي على بابِ زَوِيلَة بعد ذلك بأقَلّ من عام بعد أنْ أبْلَى بَلاءً حَسَنًا في مُواجَهَة جُيُوشِ العُثْمانِيين ورَفْضِه الدُّخُولَ في طاعَتِهم، بحيث أضْحَت الدَّوْلَةُ العُثْمانِيَّةُ اعْتِبارًا من هذا التَّأريخ أكْبَرَ كَيانٍ سِياسِي حَوْلَ البَحْر المُتَوَسِّط منذ الإمْبراطُورِيَّة الرُّومانِيَّة. وصَحِبَ ذلك مُواجَهَةٌ مُتَوَتِّرَةٌ للدَّوْلَة العُثْمانِيَّة السُّنِّيَة مع الدَّوْلَة الصَّفَوِيَّة الشِّيعِيَّة في إيران[1].

وبَلَغَ عَدَدُ سَلاطِين دَوْلَة سَلاطِين المَماليك الثَّانية (٧٨٤-٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م) أرْبَعَةً وعشرين سُلْطَانًا، بينهم خمسة عَشْر سُلْطَانًا مِمَّن مَسَّهُم الرِّق وثمانية من أبْناء السَّلاطِين وخَليفَة عَبَّاسِي واحِد، شَكَّلَ حُكْمُ تِسْعَةٍ منهم هم: الظَّاهِرُ بَرْقُوق والنَّاصِرُ فَرَج والمُؤَيَّدُ شَيْخ والأشْرَفُ بَرْسِباي والظَّاهِرُ جَقْمَق والأشْرَفُ إينَال والظَّاهِرُ خُشْقَدَم والأشْرَفُ قايِتْبَاي والأشْرَفُ قانْصُوه الغُورِي، مئة واثنين وثلاثين عامًا، تارِكِين سَبْعَةَ أعْوامٍ فقط للأرْبَعَة عَشْرَ سُلْطَانًا الآخَرِين!

---

(١) راجع، ابن زنبل الرمّال: واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني ـ نهاية المماليك بين التاريخ والحكي الشعبي، تقديم ودراسة قاسم عبده قاسم، القاهرة عين للدراسات ٢٠١٤م؛ محمد مصطفى زيادة: «نهاية سلاطين المماليك في مصر»، المجلة التاريخية المصرية ٤ (١٩٥١)، ١٩٧-٢٣٨؛ D. AYALON, «The End of the Mamluk Sultanate», *SI* 65 (1984), pp.55-76؛ عبد المنعم ماجد: طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ـ دراسة للأسباب التي أنهت حكم دولة المماليك في مصر، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨م؛ عماد أبو غازي: طومان باي السلطان الشهيد، القاهرة ـ ميريت للنشر والمعلومات ١٩٩٩م؛ أحمد عبد الرازق: عوامل انهيار دولة سلاطين المماليك في مصر، القاهرة ـ عين للدراسات ٢٠١٧م.

سَلاطِينُ دَوْلَة المَماليك الثَّانِيَة (المَماليك الشَّراكِسَة)

السلطان	المدة
الظَّاهِر سَيْفُ الدِّين بَرْقُوق بن أَنَص (السَّلْطَنَة الأولى)	٧٨٤ـ٧٩١هـ/١٣٨٢ـ١٣٨٩م
(عَوْدَة) المَنْصُور صَلاحُ الدِّين حاجِي ابن شَعْبان بن حسين بن محمَّد بن قلاوُون (السَّلْطَنَة الثَّانِيَة)	٧٩١ـ٧٩٢هـ/١٣٨٩ـ١٣٩٠م
(اسْتِعادَة) الظَّاهِر بَرْقُوق لسَلْطَنَتِه	٧٩٢ـ٨٠١هـ/١٣٨٩ـ١٣٩٨م
النَّاصِر زَيْنُ الدِّين أبو السَّعادات فَرَج بن بَرْقُوق	٨٠١ـ٨٠٨هـ/١٣٩٨ـ١٤٠٥م
المَنْصُور عبد العَزِيز بْن بَرْقُوق	رَبيع أوَّل ـ جُمادَى الآخِرَة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م
(اسْتِعادَة) النَّاصِر فَرَج لسَلْطَنَتِه	٨٠٨ـ٨١٥هـ/١٤٠٥ـ١٤١٢م
الخَلِيفَة المُسْتَعِين بالله العَبَّاسِي	رَبيع أوَّل ـ جُمادَى الآخِرَة ٨١٥هـ/١٤١٢م
المُؤَيَّد أبو النَّصْر شَيْخ المَحْمُودِي	٨١٥ـ٨٢٤هـ/١٤١٢ـ١٤٢١م

المُظَفَّر أحمد بن المُؤَيَّد شَيْخ	مُحَرَّم ـ شَعْبان ٨٢٤هـ/١٤٢١م
الظَّاهِر طَطَر	شَعْبان ـ ذي الحجة ٨٢٤هـ/١٤٢١م
الصَّالِح محمَّد بن طَطَر	٨٢٤ـ٨٢٥هـ/١٤٢١ـ١٤٢٢م
الأشْرَف بَرْسِباي	٨٢٥ـ٨٤١هـ/١٤٢٢ـ١٤٣٧م
العَزيز يُوسُف بن بَرْسِباي	٨٤١ـ٨٤٢هـ/١٤٣٧ـ١٤٣٨م
الظَّاهِر سَيْفُ الدِّين جَقْمَق	٨٤٢ـ٨٥٧هـ/١٤٣٨ـ١٤٥٣م
المَنْصُور عُثْمان بن جَقْمَق	مُحَرَّم ـ رَبِيع أوَّل ٨٥٧هـ/١٤٥٣م
الأشْرَف سَيْفُ الدِّين إينَال العَلائي	٨٥٧ـ٨٦٥هـ/١٤٥٣ـ١٤٦٠م
المُؤَيَّد أحمد بن إينال	مُحَرَّم ـ رَمَضان ٨٦٥هـ/١٤٦٠م
الظَّاهِر سَيْفُ الدِّين خُشْقَدَم	٨٦٥ـ٨٧٢هـ/١٤٦٠ـ١٤٦٧م
الظَّاهِر بَلَباي المُـؤَيَّدِي	رَبِيع أوَّل ـ جُمادَى الأولى ٨٧٢هـ/١٤٦٧م
الظَّاهِر تَـمُـرْبُغا الظَّاهِرِي	جُمادَى الأولى ـ رَجَب ٨٧٢هـ/١٤٦٨م
الأشْرَف قايِتْباي	٨٧٢ـ٩٠١هـ/١٤٦٨ـ١٤٩٦م
النَّاصِر محمَّد بن قايِتْباي	٩٠١ـ٩٠٤هـ/١٤٩٦ـ١٤٩٨م
الظَّاهِر قانْصُوه خَمْس مِئَة	٩٠٤ـ٩٠٥هـ/١٤٩٨ـ١٥٠٠م

الأشْرَف جانْبلاط	٩٠٥-٩٠٦هـ/١٥٠٠-١٥٠١م
العادِل طُومَنْباي	جُمادَى الآخِرَة - شَوَّال ٩٠٦هـ/١٥٠١م
الأشْرَف قانْصُوه الغُورِي	٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠١-١٥١٦م
الأشْرَف طُومان باي	٩٢٢-٩٢٣هـ/١٥١٦-١٥١٧م

القِسْمُ الثَّاني

التَّارِيخُ الفِكْرِي والعُمْرَاني

الانْتاجُ العِلْمِي في العَصْرِ المَمْلُوكِي

تَرَتَّبَ على سُقُوطِ الخِلَافَة العَبَّاسِيَّة في بَغْدَاد، سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، أمامَ الاجْتِياحِ المُغُولي، ثم صَدِّ المَمالِيك للمُغُول وإيقافِ تَقَدُّمِهم في عَيْنِ جالُوت سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م، أنْ أضْحَت دَوْلَةُ سَلاطِين المَمالِيك في مِصْر والشَّام، أكبر قُوَّةٍ إسلامِيَّةٍ في هذا العَصْر، وأصْبَحَت بعد اسْتِضَافَتِها للخِلافَة العَبَّاسِيَّة سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م تُمَثِّلُ الدَّوْلَةَ الإسْلامِية بامْتِياز، حيث رَعَت آخِرَ أكبر تَجَمُّعٍ ثَقافي إسْلامِي عَرَبي قبل العُصُورِ الحَـدِيثَة والذي نَدِينُ لعُلَمائِه ومُفَكِّرِيه بأغْلَبِ مَعَارِفِنا عن العُصُورِ الإسْلامِيَّة الأقْدَم. فقد تَحَوَّلَ الثِّقَلُ الثَّقافي والحَضَارِي للعالَم الإسْلامِي إلى مِصْـر وحَلَّت «القَـــاهِرَةُ» مَحَلَّ «بَغْـــدَاد» فانْتَقَلَ إليها عَدَدٌ غير قليل من عُلَماء الشَّرْقِ الإسْلامِي ساعَدَ على ازْدِهارِ مُناخٍ عِلْمِي أنْتَجَ العَدِيدَ من المُـؤَلَّفات في فُنُونٍ كثيرة[1].

وواقِعُ الأمْرِ أنَّ العَدَدَ الأكبر من المُصَنَّفات التي كُتِبَت في هذا العَصْرِ كانت مُؤَلَّفات نَقْلِيَّة، والقَلِيلَ منها يُمَثِّـلُ أصَالَةً في مَوْضُوعِه يأتي على

---

[1] انظر حول هذا الموضوع، محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، ١-٧، القاهرة ١٩٤٧-١٩٦٧م؛ أحمد شامخ الحميد العنزي: الحياة الفكرية في العصر المملوكي الثاني في مصر والشام والحجاز، دمشق - الهيئة العامة السورية للكتاب ٢٠١٠م.

رأسِها «مُقَــدِّمَةُ ابن خَلْدُون» و«المَواعِظُ والاعْتِبار» للمَقْرِيزِي .

واشْتَهَرَ القَرْنُ الثَّامِن الهجري/ الرَّابع عَشَر الميلادي بما أُلِّفَ فيه من «مَوْسُوعَات» بِدَايَةً بمَوْسُوعَة ابن الوَطْواط الكُتُبِي ، المتوفَّى سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م ، وانتهاءً بمَوْسُوعَة القَلْقَشَنْدِي ، المتوفَّى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، وتُعَدُّ هذه المُصَنَّفاتُ خَيْرَ ما أَنْتَجَه هذا العَصْر[١].

فقد أسْفَرَ النَّشَاطُ الهائِلُ للعُلَماء المُسْلِمِين على مَدَى عِدَّة قُرُون عن تأليف عَدَدٍ ضخمٍ من الكُتُب في كلِّ حُقُولِ المعرفة، بحيث أنَّ عُمْرَ العالِم مهما طال لم يكن يَكْفي لِقراءَة كُلِّ ما كُتِبَ في مَيْدانِه، ناهِيكَ عن دِراسَتِه . ومن هنا كانت الحاجَةُ إلى طَلَبِ الكُتُبِ المَوْسُوعِيَّة المُخْتَصَرَة[٢]، وإنْ عارَضَ ابنُ خَلْدُون في «مُقَــدِّمَتِه» هذه الظَّاهِرَة واعتبرها دَلِيلًا على التَّدَهْوُر الذي وَصَلَت إليه الحَيَاةُ العِلْمِيَّةُ في عَصْرِه[٣].

وظَهَرَت كلُّ هذه المَوْسُوعَات في مِصْر، كَتَبَها عُمَّالُ وعُلَماءُ عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك بغَرَضِ خِدْمَةِ كُتَّابِ الدَّواوِين للاسْتِفادَة بها في مَجالِ عَمَلِهم، ولكن واقِعَ الأمْر أنَّها أفادَت جُمْهورًا أعْظَم من المُثَقَّفين لأنَّها

---

(١) انظر كذلك حول هذا الموضوع ، كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٤٣٥ـ ٤٧٢؛ عوض الغباري : «ظاهرة التأليف الموسوعي في العصر المملوكي في مصر من منظور حضاري أدبي» ، مجلة كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ٣/٦١ (يونية ٢٠٠١م) ، ٩١ـ١٦٢.

(٢) روزنتال ، فرانز : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ١٦٦.

(٣) ابن خلدون : كتاب العبر ١: ٥، ٢: ٤٤٦ـ ٤٤٧.

عالَجت مَسائِلَ أعَمَّ وأكثر شُمُولًا في جميع فُرُوعِ العِلْم التي يُرِيدُ المُؤَلِّفُ أنْ يُعَرِّفَ بها.

والظَّاهِرَةُ الملفتةُ للنَّظر أنَّ مؤلِّفي هذه المَوْسُوعَات لم يَرَوْا في أنفسهم عُلَماء، بل كانوا في حقيقة الأمْر كُتَّابًا نابِهي الشَّأن في دِيوانِ الإنْشَاء المَمْلُوكِي واكتسبوا خِبْرَةً كبيرةً في هذا المجال. وأدَّت وِحْدَةُ الوَسَط الذي نَشَأت فيه هذه المَوْسُوعَات إلى تَشَابُهِها في التَّرْتِيب، وهو تَرْتِيبٌ يعكس أحْيانًا بوُضُوحٍ تام أثَرَ التَّدْرِيب الصَّارِم في الشُّئون الدِّيوانِيَّة[1]، ويبدو هذا واضِحًا أكثر ما يكون في كِتابِ القَلْقَشَنْدِي «صُبْح الأعْشَى».

ويَدْخُلُ في بابِ التَّأليف المَوْسُوعِي كذلك كِتابُ تارِيخٍ عامٍّ للعالَم الإسْلامِي يعتمد على ما وَرَدَ في المَصَادِرِ المُبَكِّرَة والوَسِيطَة مثلما فَعَلَ شَمْسُ الدِّين محمَّد بن أحمد بن عُثْمان الذَّهَبِيّ، المتوفَّى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، في كِتابِ «تارِيخ الإسْلام ووَفَيات المَشَاهِير والأعْلام» والذي يُؤْخَذُ عليه قِلَّةُ المادَّة التَّارِيخِيَّة التي يُقَدِّمُها في الحَوادِث مُقارَنَةً بالمادَّة الضَّخْمَة التي يُقَدِّمُها في التَّراجِم (٣٢ ألْف تَرْجَمَة)، ممَّا يَعْكِسُ مَفْهُومَه الأصْلي للتَّارِيخ نتيجةً لتأثُّر تكوينه الفِكْرِي بالبِيئَة الدِّمَشْقِيَّة التي نَشأ فيها وصُحْبَتِه لتَقِيّ الدِّين بن تَيْمِيَّة، إلى الحَدِّ الذي يُمْكِنُنا فيه اعْتِبارَ كِتابِه أقْرَب إلى سِجِلٍّ للوَفَيات أكثر منه تارِيخًا مُضْطَرِدًا. ومثلما فَعَلَ عبد الرَّحْمَن بن خَلْدُون، المتوفَّى سنة

---

[1] كراتشكوفسكي: المرجع السابق٤٣٥ـ٤٣٦.

٨٠٨هـ/ ١٤٠٦م، في «كتابِ العِبَر وديوان المُبْتَدَأ والخَـبَر» وهو، على عَكْسِ الذَّهَبِي، لم يَكْتَف فقط بتَناوُل التَّاريخ الإسْلامِي وإنَّما وَسَّعَ مَجالَه ليَشْمَل تارِيخَ اليُونان والرُّومان واليَهُود والنَّصارَى والقِبْط والفُرْس اعْتِمادًا على المَصَادِر الأصْلية التي نُقِلَت إلى العَرَبِيَّة والتي وَقَفَ عليها في خَزائِن كُتُبِ المَدَارِس المَمْلُوكِيَّة بعد انْتِقالِه إلى مصر سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م (تاريخ يُوسِفُوس الذي اخْتَصَرَه يُوسُف بن جُرْيُون وتارِيخ باوْلُوس أورُوشيوس (هُرُوشْيُوش) وتارِيخ أوتِيخْيوس وتارِيخ المَكِين جِرْجِس بن العَمِيد ....)[١].

وجَاءَ كِتابُ «الوافي بالوَفَيات» لخَلِيل بن أيْبَك الصَّفَدِي، المتوفَّى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م كأكبر كِتابِ تَرَاجِم عامَّة في الحَضَارَة الإسْلامِيَّة اسْتَوْعَبَ فيه مؤلِّفُه بتِمَكُّنٍ تَراجِمَ مَشاهِير الرِّجالِ في السِّياسَة والأدَب والفِقْه والطِّبّ وسائِر الفُنُون الذين عاشُوا في الدَّوْلَة الإسْلامِيَّة حتى منتصف القرن الثَّامِن الهجري/ الرَّابع عَشَر الميلادي، ويقع هذا الكِتابُ في ثلاثين جزءًا[٢]. وألَّفَ في هذه الفَتْرَة نفسها عَلاءُ الدِّين عَلِيُّ بن أبي الحَـرَم القَرْشِي المعروف بابن النَّـفِيس، المتوفَّى سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، أَحَدَ أشْمَلِ

---

(١) راجع أيمن فؤاد سيد: الكتابة التاريخية ومناهج النقد التاريخي عند المؤرخين المسلمين، القاهرة ٢٠١٧م، ١٩٤-١٩٧، ٢٦١-٢٩٠.

(٢) نشره المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت في ثلاثين مجلَّدًا بتحقيق مجموعة من العلماء وصدر في سلسلة النشرات الإسلامية بين سنتي ١٩٤٩-٢٠١٠ م.

الكُتُب المَوْسُوعِيَّة في الطِّبّ هو كِتابُ «الشَّامِل في الصِّنَاعَة الطِّبِيَّة» الذي يَقَعُ في ثلاث مئة مُجَلَّد انْتَهَى ابن النَّفِيس من تَبْييض ثمانين مُجَلَّدَةً منها وَقَفَها على البِيمارِسْتان المَنْصُورِي بالقاهِرَة[1].

*

* *

وأوَّلُ مَوْسُوعَات هذا العَصْرِ «مَباهِج الفِكَر ومَنَاهِج العِبَر» أَلَّفَها جَمالُ الدِّين محمَّد بن إبراهيم بن يحيى الكُتُبي الوَرَّاق المعروف بالوَطْوَاط، المتوفَّى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م[2]. ولم يكن الوَطْوَاطُ من عُمَّال الحُكُومَة الذين مارَسوا العَمَلَ في دَواوِينِها، بل كان ـ كما يَدُلُّ على ذلك لَقَبُه ـ من المُشْتَغِلِين بتِجارَة الكُتُبِ ونَسْخِها، يقولُ عنه الصَّفَدِيّ: «له مَعْرِفَةٌ بالكُتُب وقِيَمِها»، و«مَلَكْتُ بخَطِّه تارِيخَ ابن الأثِير المسمَّى بـ «الكامِل» وقد ناقَشَ المُصَنِّفَ في حَواشِيه وغَلَّطَه وواخَذَه»[3].

و«مَبَاهِجُ الفِكَر» مَوْسُوعَةٌ في العُلُوم الطَّبِيعِيَّة والجُغْرافْيا معروضةٌ بأسْلُوبٍ

---

[1] أصدره الباحث المصري يوسف زيدان في ثلاثين جزءً عن المُجَمَّع الثقافي بأبي ظبي سنة ٢٠٠٦م.

[2] راجع عنه الصفدي: الوافي بالوفيات ٢: ١٦ـ١٨؛ ابن حجر: الدرر الكامنة ٣: ٣٨٥ـ٣٨٦؛ أبا المحاسن: المنهل الصافي ٩: ٢٢١ـ٢٢٢؛ BROCKELMANN, C., *GAL* II, p.67, *S* II, p.59.

[3] الصفدي: المصدر السابق ٢: ١٦.

أدَبيّ ومُوَضَّحَة بالشَّواهِد من شِعْرٍ ونَثْرٍ وتَنْقَسِمُ إلى أربعة فُنُون : الفَلَك والأجْرام السَّماوِيَّة، والجُغْرافْيا والأجْناس، والحَيَوان، والنَّبات[1].

وأهَمُّ فُصُولِ هذه المَوْسُوعَة، الفَنُّ الثَّاني الذي خَصَّصه الوَطْواطُ للجُغْرافْيا حيث أمَدَّنا فيه بمعلومات بالِغَة القِيمَة عن نظام الزِّراعَة وجُغْرافِيَة القُطْر المِصْري بصِفَةٍ عامَّة.

ولَعِبَ كِتابُ «مَباهِج الفِكَر» دَوْرًا كبيرًا في تَطْوير نَمَطِ التَّأْليف المَوْسُوعِي، فقد نَقَلَ منه مِرارًا مُعاصِرُه النُّوَيْري واسْتَعارَ منه طَرِيقَة التَّبْوِيب إلى «فُنُون» محتفظًا أحْيانًا بمحتويات الكِتاب نفسها وخاصَّةً في القِسْمِ الخاصّ بالنَّبات[2].

---

(١) راجع مقال جرجس متّى الماروني الحلبي : «المنهج في وصف المباهج»، مجلة المشرق ١٠ (١٩٠٧)، ٧٢١ و ٧٤١؛ ومقدمة عبد العال الشّامي لكتاب صفحات من جغرافية مصر من مباهج الفكر ومناهج العبر للوطواط، الكويت ١٩٨١م .

(٢) لم يطبع هذا الكتاب إلى الآن، بل إن نُسَخه المختلفة لا تحتوي إلَّا على أجزاء متفرِّقة، وتوجد النسخة التامة الوحيدة لهذا الكتاب في المكتبة المارونية بحَلَب ومنها نسخة مصورة في دار الكتب المصرية برقم ٣٥٩ طبيعة وأخرى منسوخة عنها برقم ٣٢٣ف، كما تحتفظ الدار بأجزاء متفرقة من الكتاب تحت رقم ٣٢٤ و٤٢٠ طبيعة .ويُوجدُ الفن الأول والفن الثاني من الكتاب في نسخة قديمة كتبت سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٧م، في المكتبة التيمورية الملحقة بدار الكتب المصرية، إضافة إلى قطع أخرى متفرقة في إستانبول في مكتبات بايزيد وقَسْطَمُوني وحكيم أوغلي وآق سكي. (كراتسكوفسكي : المرجع السابق ٤٣٦-٤٣٩؛ فؤاد سيد : مجلة العالم العربي (يوليو ١٩٤٧م)، ٧٣).

ولِلكِتابِ مُخْتَصَرٌ عنوانه «نُزْهَة العُيُون في أَرْبَعَة فُنُون» منه نُسْخَةٌ في مكتبة أحمد الثَّالِث بإستانبول برقم ٢٦١٠ كتبها منصور بن محمَّد العَبَّادِي سنة ٩٨٧هـ، ولا ندري إنْ كان هو نفسه المُخْتَصِر، فالعُنْوانُ خلا من اسْم مؤلِّفه .

والمَوْسُوعَةُ الثَّانِيَةُ هي «نِهايَة الأَرَب في فُنُونِ الأَدَب» لشِهابِ الدِّين أحمد بن عبد الوَهَّاب البَكْرِي النُّوَيْرِي، المتوفَّى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، ويُعَدُّ النُّوَيْرِي خَيْرَ مُمَثِّلٍ للوَسَطِ الذي عُمِلَت فيه ومن أَجْلِه مَوْسُوعاتُ عَصْرِ المَمالِيك .

واسْتَعارَ النُّوَيْرِي من سَلَفِه الوَطْوَاط تَقْسِيمَ كِتابِه إلى أربعة فُنُون، وأضافَ إليها فَنًّا خامِسًا هو «التَّارِيخ» وعَدَّلَ كثيرًا في مادَّةِ الفَنِّ الثَّاني الخاصّ بالجُغْرافْيا كما جاءَت عند الوَطْوَاط .

واسْتَغْرَقَ تأْلِيفُ هذه المَوْسُوعَة نحو عشرين عامًا وجاءَت في واحِدٍ وثلاثين جزءًا كبيرًا . ويُعَدُّ القِسْمُ التَّارِيخي فيها أكثر أقْسامِها قِيمَةً سواءً بالنسبة للفترة التي عاصَرَها النُّوَيْرِي أو للفَتَرات السَّابِقَة ، فقد نَقَلَ النُّوَيْرِي نُصُوصًا كاملةً عن مؤلِّفين لم تَصِل إلينا مُؤَلَّفاتُهم فحَفِظَ لنا بذلك معلومات ما كان يمكننا الاطِّلاعُ عليها لو لم يدوِّنها النُّوَيْرِي . وحَقِيقَةُ الأَمْرِ أنَّ هذه قِيمَةٌ كبيرةٌ لمؤلَّفات عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك، والتَّارِيخية منها بوَجْهٍ خاصّ، حيث حَفِظَ لنا مُؤَرِّخُون من أمْثالِ ابن أَيْبَك الدَّوادَارِي وابن الفُرَات وابن خَلْدُون والمَقْرِيزِي وأبو المَحاسِن يُوسُف بن تَغْرِي بِرْدِي والسُّيوطِي وابن إيَاس

نُصُوصًا كامِلَةً من مُؤلَّفات ضاعَت عَنَّا أُصُولُها اليوم[١].

أمَّا أَهَمُّ ما أَنْتَجَه عَصْرُ سَلاطِين المَماليك فمَوْسُوعَة «مَسالِك الأَبْصَار في مَمالِك الأَمْصَار» لشِهابِ الدِّين أحمد بن يحيى بن فَضْلِ الله العُمَرِيّ، المتوفَّى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م، ووَصَفَها الصَّفَدي ـ مُعاصِرُ العُمَرِيّ ـ بأنَّها «كتابٌ حافِلٌ ما يَعْلَمُ أنَّ لأحَدٍ مثله»[٢]؛ وقال عنها المَـقْرِيزِي: «في عَشْرَةِ أسْفَارٍ كِبار، ولم يُسْبَق لمِثْلِه»[٣].

وقَسَمَ ابن فَضْلِ الله العُمَرِي كِتابَه إلى قِسْمَيْنِ كبيرين جَعَلَ أحَدَهُما: «في ذِكْرِ الأَرْضِ وما اشْتَمَلَت عليه بَرًّا وبحرًا»، والثَّاني: «في سُكَّانِ الأَرْضِ من طَوائف الأُمَم». وكُلٌّ من القِسْمَيْنِ ينقسم بدوره إلى أقْسام أَطْلَقَ عليها العُمَرِيّ اصْطِلاحًا «النَّـوْع».

ورَغْمَ أنَّ مادَّة مَوْسُوعَة ابن فَضْلِ الله العُمَرِيّ تقتصر على الجُغْرافْيا والتَّارِيخ فقط، بعكس مَوْسُوعَتَيّ الوَطْواط والنُّـوَيْرِيّ اللتين عالَجتا فُنونًا أخرى غير الجُغْرافْيا والتَّارِيخ، فإنَّ ثَقافَة ابن فَضْلِ الله العُمَرِي تبدو أكثر وُضُوحًا في مَوْسُوعَتِه وفي كِتابِه الآخَر «التَّعْرِيف بالمُصْطَلَح الشَّرِيف» عن

---

[١] اقتنت دار الكتب المصرية بفضل جهود أحمد زكي باشا (١٨٦٧ـ١٩٣٤م) نسخة كاملة، ولكنها مُلَفَّقة، من نِهايَة الأَرَب أصْلها محفوظ في تركيا، وشَرَعَت في نَشْرِ أجزائها وصَدَرَت تباعًا في ثلاثة وثلاثين جزءًا بين سنتي ١٩٢٣ـ١٩٩٨م! وانظر كذلك Elias Muhanna, *The World in a Book: al-Nuwayri and the Islamic Encyclopedic Tradition*, Leiden - Brill 2017.

[٢] الصفدي: المصدر السابق ٨: ٢٥٥.

[٣] المقريزي: المقفى الكبير ١: ٧٣٣.

الوَطْواط والنُّوَيْرِيّ اللذين يُمَثِّلُ مؤلَّفاهما مؤلِّفين نَقْلِيين بمعنى الكلمة. فمُصَنَّفا ابن فَضْلِ الله العُمَرِي «المَسَالِك» و«التَّعْرِيف» يُعَدّا من أهَمّ آثار عَهْدِه واعتمد عليها كثيرًا مُؤَرِّخُو عَصْرِ المَمالِيك المتأخِّرين، فيما يَخُصُّ نُظُمَ دَوْلَة سَلاطِين المَمالِيك وَرُسومَها، كما يبدو واضِحًا في مؤلَّفات القَلْقَشَنْدي والمَقْريزي والسَّخاوي وابن ناظِر الجَيْش وابن شَاهِين الظَّاهِري والسُّيُوطِي.

وكِتابُ «مَسَالِك الأبْصَار» لابن فَضْلِ الله العُمَرِي مَصْدَرٌ من الدَّرَجَة الأولى لدِراسَة عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك البَحْرِيَّة وعلى الأخَصِّ المعلومات التي يوردها عن البلاد التي رَبَطَتْها صِلاتٌ دبلُوماسِيَّةٌ مُنْتَظِمَةٌ أو مُتَقَطِّعَةٌ بدَوْلَة المَماليك. فقد هيَّأ له عَمَلُه الحُكُومِي، ككاتِب في دِيوانِ الإنْشَاء، الاطِّلاعَ على الوَثائِق ولِقاء كثيرٍ من المسئولين والسُّفَراء، كما أنَّ مَصَادِرَ أخْبارِه ومَعْلُوماتِه مُتَعَدِّدَة للغاية ممَّا مَكَّنَه من إخْراج لَوْحَةٍ مُفَصَّلَة في وَصْفِ العالَم المُعاصِر له[1].

---

[1] نُسَخُ هذا الكِتاب التي وَصَلَت إلينا ليست كثيرة ويُوجَد قِسْمُها الأكبر في مَكْتَبات تركيا في مكتبة آياصوفيا ومكتبة أحمد الثَّالِث بإستانبول إضافةً إلى مكتبتي لاله لي وكُوبريلي وزُوان كُشْك، كما توجد نسخ لأقسام من الكتاب في باريس ولندن وأكسفورد والإسكوريال ومكتبة القرويين بفاس، وتمتلك دار الكتب المصرية نُسَخَه مصورة بالفوتوستات عن نسختي آياصوفيا وأحمد الثالث بإستانبول أهداها إليها العلامة الراحل أحمد زكي باشا الذي بدأ مشروعًا لإخراج الكتاب في دار الكتب أصدر منه فقط الجزء الأول سنة ١٩٢٤م، ثم توالى نَشْرُ أجزاء من الكِتاب، كما صَدَرَت له نَشَرات كاملة كانت تحتاج إلى مَزِيد عِنايَة (راجع مقدِّمتي لقسم ممالك مصر والشَّام والحِجاز واليمن بتحقيقي، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥م، ٦١ـ٦٨).

وألَّفَ شِهابُ الدين أبو العَبَّاس أحمد بن علي الفَزَارِي القَلْقَشَنْدِي، المتوفَّى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م، آخِرَ مَوْسُوعَةٍ كبرى لعَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك. وكما يَتَّضِحُ من عنوانها «صُبْح الأعْشَى في صِنَاعَة الإنْشَا» فإنَّ مَوْضُوعَها الرَّئيس هو الكِتابَة الدِّيوانِيَّة. وبدأ القَلْقَشَنْدِيُّ تَصْنِيفَ هذا الكِتابِ الضَّخْم فَوْرَ الْتِحاقِه بالعَمَل بديوانِ الإنْشَاء في مِصْر سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م وانتهى من تأليفِه في شَوَّال سنة ٨١٤هـ/١٤١٢م.

وتنقسم هذه المَوْسُوعَة إلى مُقَدِّمَةٍ وعَشْرِ مَقالات عالَجَ فيها المُؤَلِّفُ كُلَّ ما يتعلَّق بالكِتابَة والخَطّ وآلاتِه والمُـكاتَبات وصِيَغِها والنِّظَام الإدَارِي لمِصْر في العَصْرِ الإسْلامِي وأوْرَدَ صُوَرًا للوَثائِق الصَّادِرَة من دِيوانِ الإنْشَاء عن السَّلاطِين والأُمَراء إلى غير ذلك من موضوعات مُهِمَّة تجعل من الكِتاب مَصْدَرًا أساسيًا فيما يتعلَّق بالتَّارِيخ والإدَارَة والحَيَاة الاجْتِماعِيَّة للعالَم الإسْلامِي والأقْطار المُتَصِلَة به طَوال أرْبَعَة قُرُون من القَرْنِ الخامِس حتى مطلع القرن التَّاسِع للهجرة[١].

وكان نَصِيبُ مَوْسُوعَة القَلْقَشَنْدِي من الاهْتِمام أوْفَر وأحْسَن حالًا من مَوْسُوعات عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك الأخْرَى. فبفضل جُهُودِ أحمد زكي باشا أيضًا الذي وَفَّرَ نُسْخَةً كامِلَةً منها لدارِ الكُتُبِ المِصْرية أخْرَجَت لنا في

---

(١) راجع كذلك ظمياء محمد عباس السامَرّائي: المنهج التأريخي عند القلقشندي ـ دراسة تحليلية، الرياض ـ مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

باكُورَة منشوراتها نَشْرَةً مضبوطَةً صحيحةً لِكِتاب «صُبْح الأَعْشَى» صَدَرَت في مَطْلَعِ القَـرْنِ العِشْرين، ممّا أتاحَ للعُلَماء فُرْصَة التَّـوَفُّر على دِراسَتِها والاسْتِفادَة منها .

*

* *

وأدَّت إقامَةُ المُؤَرِّخ وعالِم الاجْتِماع التُّونُسِي عبد الرَّحْمَن بن خَلْدُون الطَّويلَة في مِصْـر(٧٨٤ـ٨٠٨هـ/١٣٨٢ـ١٤٠٦م) إلى اتِّصَالِ العَدِيدِ من عُلَمَائِها ومُؤَرِّخيها به ممَّا أدَّى إلى تَكْوين مَدْرَسَةٍ حَوْلَه من المُعْجَبين به والمُـتَتَلْمِذِين عليه . وبالرَّغْم من وُجُودِ العَدِيدِ من المُؤَلَّفات التَّارِيخية التي تُؤَرِّخُ لعَصْرِ سَلاطِين المماليك منذ النِّصْفِ الثَّاني للقرن السَّابع الهجري / الثَّالِث عَشَـر الميلادي (ابن عبد الظَّاهِر ـ ابن وَاصِل الحَمَوِي ـ ابن أيْـبَك الدَّوادَارِي ـ شَافِع بن علي ـ بَيْـبَرْس المَنْصُورِي الدَّوادار ـ مُوسَى بن محمَّد بن يحيى اليُوسُفِي ـ شِهاب الدِّين النُّـوَيْرِي ـ ابن فَضْلِ الله العُمَرِي ـ محمَّد بن حَبِيب ـ ابن الفُرات ـ ابن دُقْماق ـ الأَوْحَـدِي)، فنَسْتَطِيعُ القَوْلَ إنَّه لم تَظْهَر مَدْرَسَةٌ مِصْـرِيَّةٌ بارِزَةٌ من المُؤَرِّخِين إلَّا في القَرْنِ الأخِير من حُكْمِ المَمالِيك . وبعد أنْ أنْجَبَت هذه المَدْرَسَةُ مجموعةً عَظِيمَةً من المؤرِّخين انْهارَت فَجْأَةً بعد الفَتْحِ العُثْماني لِمِصْر[1].

---

[1] راجع محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ،=

وتَتَلْمَذَ أغْلَبُ مؤرِّخي هذا القَرْن في مَدْرَسَةِ ابن خَلْدُون وتأثَّروا به، وعلى الأخَصِّ شَيْخُ مُؤَرِّخي مَصْرَ الإسْلامِيَّة تَقِيُّ الدِّين أحمد بن عليّ المَقْرِيزي، المتوفَّى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، الذي يُمَثِّلُ تَطَوُّرًا مَلْحُوظًا في مَنْهجِ الكِتابَةِ التَّارِيخِيَّة وفي تَناوُلِه لمَوْضُوعات اجْتِماعِية واقْتِصادِية وعُمْرانِيَّة. وتَسْتَمِرُّ هذه المَدْرَسَةُ مع مُنَافِس المَقْرِيزي بَدْر الدِّين العَيْني، المتوفَّى سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م، صاحِب كِتاب «عِقْد الجُمان في تارِيخ أهْلِ الزَّمان»؛ وابن حَجَر العَسْقَلاني، المتوفَّى سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م، صاحِب كِتاب «إنْباء الغُمْر بأبْناء العُمْر». ثم واصَلَ التَّأليفَ التَّارِيخي تِلْمِيذُ المَقْرِيزي أبو المَحاسِن يُوسُف بن تَغْرِي بِرْدي، المتوفَّى سنة ٨٧٤هـ/١٤٦٩م، صاحِب كِتابَيّ «النُّجُوم الزَّاهِرَة في مُلُوكِ مِصْر والقَاهِرَة» و«حَوادِث الدُّهُور في مَدَى الأيَّام والشُّهُور»؛ ومُنافِسُه عليّ بن داود الجَوْهَري الصَّيْرَفي، المتوفَّى سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م، صاحِب كِتاب «نُزْهَة النُّفُوس والأبْدان في تَوَارِيخ الزَّمان»؛ والمُحَدِّثُ النَّاقِدُ شَمْسُ الدِّين السَّخَاوي، المتوفَّى سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م، صَاحِب كِتاب «التِّبْر المَسْبُوك في الذَّيْل على السُّلُوك»؛ وصَاحِبُ التَّآليف المُتَنَوِّعة جَلالُ الدِّين السُّيُوطِي، المتوفَّى سنة ٩١١هـ/

=القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩م؛ وانظر كذلك D. LITTLE, *An Introduction to Mamluk Historiography: An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of al-Malik an-Nasir Muhammad ibn Qalawun*, Wiesbaden 1970؛ أيمن فؤاد سيد: الكتابة التاريخية ١٣٧ـ١٤٨.

١٥٠٥م؛ وأخِيرًا محمد بن أحمد بن إيَاس الحنَفي، المتوفَّى سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م، صاحِب كِتاب «بَدائِع الزُّهُور في وَقائِع الدُّهُور» . أمَّا أحمد بن زُنْبُل الرَّمَّال، المتوفَّى سنة ٩٥١هـ/١٥٤٤م، مؤرِّخُ الفَتْحِ العُثْماني صاحِب كِتاب «تارِيخ السُّلْطان سِلِيم خان بن السُّلْطان بايَزِيد خان مع قانْصُوه الغُورِي» أو «آخِرَة المَماليك»، الذي ظَهَرَ في الجِيلِ التَّالي لأولَئِكَ المؤرِّخِين، فيَنْتَمِي إلى مَوْرُوثٍ آخَر[١] .

وعلى الرَّغْم من أنَّ هؤلاء المؤرِّخِين ـ كما يقولُ جِبّ Gibb ـ يُشَارِكُون مَنْ سَبَقَهم من المؤرِّخين المُهْتَمِين بالتَّاريخ السِّياسِي في كثيرٍ من نَواحِي القُصُور، فإنَّ تَعاقُبَ العَالِم ورَجُلِ الدَّوْلَة بينهم وَسَّعَ أُفُقَ نَظْرَتِهم وأحْكامِهم . وأبْرَزُ خَصَائِص كِتاباتِهِم أنَّهم قَصَرُوها على مِصْر إلى حَدٍّ أنَّ أولَئِك الذين أرادُوا وَضْعَ تَوارِيخَ عامَّة أخْرَجُوها في أُطُرٍ مِصْرِيَّة خالِصَة . ويرى جِبّ Gibb أنَّ أبْرَزَ هؤلاء المؤرِّخين هو المَقْرِيزِي الذي لا تَعُودُ شُهْرَتُه فقط إلى دِقَّتِه التي لا مَطْعَنَ فيها، بقَدْرِ ما تَعُودُ إلى جَلَدِه وسَعَةِ إحاطَتِه بالمَوْضُوعَات التي تَناوَلَها والاهْتِمام الذي يُبْدِيه كذلك بنَواحِي التَّارِيخ التي تَتَّصِلُ أكثر ما تَتَّصِل بالاجْتِماع والسُّكَّان[٢]، والتي تَجْعَلُ منه أحَدَ أهَمِّ المُؤَرِّخِين المُسْلِمِين وأكْثَرِهم أصَالَةً وتَجْدِيدًا والذي تَناوَلَت مُؤَلَّفاتُه التَّارِيخية الأنْواعَ المُخْتَلِفَة للتَّأْلِيف التَّارِيخي والتي أثْبَتَ من خِلالِها امْتِلاكَه

---

(١) H. Gibb, *EI*[1] art. *Tarikh Suppl.* p.258.

(٢) *Ibid.*, p.258.

حِسًّا تاريخيًّا حَقِيقِيًّا بفَضْلِ نَفَسِه النَّـقْدِي المُـدَقِّق الذي يَظْهَرُ واضِحًا في أغْلَبِ مُؤَلَّفاتِه وعلى الأخَصّ «المَوَاعِظ والاعْتِبَار».

فقد ألَّفَ المَقْرِيزِي العَدِيدَ من المؤلَّفات التي تَناوَلَت تارِيخَ مِصْر الإسْلامِيَّة منذ الفَتْح العرَبي الإسْلامِي وحتى منتصف القرن التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشَر الميلادي مثل: «عِقْد جَواهِر الأسْفَاط» و«اتِّعَاظ الحُـنَفا» و«السُّلُوك» و«المُقَفَّى الكبير»، ولكن الكِتابَ الذي كَفَلَ له شُهْرَةً كبيرةً هو دون شك كِتابُه المَوْسُوعِي «المَوَاعِظ والاعْتِبَار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثَار» المعروف باسم «الخِطَط» الذي يُعَدُّ أهَمَّ كِتابٍ في تارِيخ مِصْرَ وجُغْرافِيَّتِها وطُبُوغْرافِيَّة عاصِمَتِها في العَصْرِ الإسْلامِي، فهو الكِتابُ الوَحِيد الذي وَصَلَ إلينا ويُقَدِّمُ لنا ـ اعْتِمادًا على المَصَادِر الأصْلِيَّة ـ عَرْضًا شامِلاً لتارِيخ مِصْر الإسْلامِية ولتأسِيس ونُمُوّ عَواصِمِها منذ الفَتْحِ العَرَبِي الإسْلامِي وحتى القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشَر الميلادي، ويُعَدُّ بذلك مَصْدَرًا لا غِنَى عنه للمُشْتَغِلِين بدِراسَة تارِيخ وآثار مِصْر الإسْلامِية من قُصُورٍ وجَوامِعَ ومَدارِسَ وخَوانِكَ إضافَةً إلى حَارَات وأخْطاط ودُرُوب عاصِمَتِها القَاهِرَة والفُسْطَاط، والذي طَبَّقَ فية بوُضُوح النَّظَرِيَّة الخَلْدُونِيَّة[1].

---

[1] راجع كتابي: المقريزي وكتابه المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م؛ N. RABBAT, «Was al-Maqrizis Khitat a Khaldunian History», *Der Islam* 89 (2012), pp.118-140.

ووَصَلَت إلينا العَدِيدُ من نُسَخِ هذا الكِتاب المُهِمّ وبعضها مُسَوَّدات ومُبَيَّضات بخَطِّ المَقْرِيزِي نفسه محفوظة في متحف طوب قابي سراي بإستانبول وجامعة ميتشجن بالوِلايات المُتَحِدَة، وأخرى منقولة مباشرةً عن خَطِّ المُؤَلِّف محفوظة كذلك في مكتبات الفاتح وآياصوفيا بإستانبول، تَوَفَّرَ على جَمْعِها ومُقَارَنَتِها كاتِبُ هذه السُّطُور وأصْدَرَ لها نَشْرَةً نَقْدِيَّةً في طَبْعَتَيْنْ صَدَرَتا في لندن بين سنتي ٢٠٠٢ و٢٠١٣م.

المَصَاحِفُ المَمْلُوكِيَّة

تَدُلُّ الكِتاباتُ الكثيرةُ الموجودةُ على مُخْتَلَفِ العَمائِرِ المَمْلُوكِيَّة: الجَوامِع والمَدَارِس والخَوانِك والدُّور والقُصُور والحَمَامات، وكذلك المَصَاحِفُ الضَّخْمَة التي وَصَلَت إلينا من العَصْرِ المَمْلُوكِي والتي كانت مَوْقُوفَةً على هذه الجَوامِع والمَدَارِس والخَوانِك، على أنَّ القَاهِرَة حَلَّت أيْضًا مَحَلَّ بَغْدَاد في فَنِّ الخَطِّ العَرَبِي وظَلَّت كذلك حتى العُقُودِ الأولى من القَرْنِ العاشِر الهجري/ السَّادِس عَشَر الميلادي. يقولُ ابنُ خَلْدون، في نِهايَة القرن الثَّامِن الهجري/ الرَّابِع عَشَر الميلادي:

«ثُمَّ لَمَّا انْحَلَّ نِظامُ الدَّوْلَة الإسْلامِيَّة وتَناقَصَت، تَناقَصَ ذلك أجْمَع ودَرَسَت مَعالِمُ بَغْدَاد بدُرُوسِ الخِلَافَة، فانْتَقَلَ شَأنُها من الخَطِّ والكِتابَة بل والعِلْم إلى مِصْر والقَاهِرَة، فلم تَزَل أسْواقُه نافِقَةً لهذا العَهْد، وله بها مُعَلِّمُون يَرْسِمُون للمُتَعَلِّم الحُرُوفَ بقَوانِين في وَضْعِها وأشْكالِها مُتعارَفَة بينهم، فلا يَلْبَث المُتَعلِّمُ أنْ يُحْكِمَ أشْكالَ تلك الحُرُوف على تلك الأوْضَاع»[1].

وتَشْهَدُ الأعْمالُ التي أنْتَجها العَصْرُ المَمْلُوكِي ووَصَلت إلينا على مَدَى

---

[1] ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ٢: ١٤٢.

ما بَلَغه فَنُّ الخَطِّ من تَجْويدٍ في هذا العَصْر. فقد وَقَفَ أغْلَبُ سَلاطِين المَماليك وكِبار أُمَرائهم، على الجَوامِع والمَدارِس والخَوانِك والتُّرَب التي أنْشأوها، مَصاحِفَ ضَخْمَة كَتَبَها كِبارُ الخَطَّاطين في هذه الفَتْرَة أمثال: ابن الوَحِيد وابن الصَّائِغ وعلي بن محمَّد الأَشْرَفي ومُوسَى بن إسْماعِيل الحُجَيْني، كُتِبَت بخَطِّ الطُّومار وخَطِّ الثُّلُث والخَطِّ الرَّيْحان والخَطِّ المُحَقَّق، وتَتَمَيَّزُ جَميعُ هذه المَصَاحِف بالتَّذْهِيب الكامِل والزَّخْرَفَة الكامِلَة لفاتِحَة المُصْحَف وخاتِمَتِه، وكذلك كَثْرَة نَماذِج الأرابِيسْك الموجودة في أوَّلِ المُصْحَف قَبْلَ الفاتِحَة (السَّرْلَوْح Frontispice)[١].

ويُوجَدُ القِسْمُ الأكبر من هذه المَصَاحِف الآن في دارِ الكُتُبِ المِصْرية بالقَاهِرَة، نُقِلَ إليها من هذه المَسَاجِد والمَدَارِس في نهاية القرن التَّاسِع عَشَر، ولكن قِسْمًا آخَرَ منها عَرَفَ طريقه، في تأريخٍ سَابِقٍ، إلى بعض المجموعات العالمية وعلى الأخَصِّ في المكتبة الوطنية في باريس والمكتبة البريطانية في لندن ومَتْحَف طُوبْقابي سَراي ومَتْحَف الأوْقاف بإستانْبول ومكتبة شِيسْتَربتي بدِبْلِن Chester Beatty ومجموعة Kheir بلندن.

ويَرْجِعُ إنْتَاجُ المَصَاحِف الفَخْمَة كبيرة الحَجْم دون شك إلى العِراق في العَهْدِ الإيلْخاني، بين سنتي ٧٠٠/١٣٠٠ و٧١٥هـ/١٣١٥م بعد اعْتِناقِهِم للإسْلام في عَهْدِ السُّلْطَان غازان خان، حيث وَصَلَ إلينا العَدِيدُ من هذه

(١) راجع D. JAMES, *Qur'ans of the Mamluks*, London 1988.

النُّسخ التي تُنسَبُ إلى مُدُنٍ إيرانية . وهي تنقسمُ إلى نوعين: المَصَاحِف المَلَكِيَّة كبيرة الحَجْم متعدِّدة الأجزاء المكتوبة بخُطوطٍ مَنْسُوبَة ومُعْتَني بتَزْيينِها، وكُتِبَت لخِزانَةِ أحَدِ السَّلاطِين أو لخِزانَةِ أحَدِ أفْراد البَلاطِ القَريبين من السُّلْطَان، والمَصَاحِف ذات المُجَلَّدِ الواحِد أو الرَّبْعات متعدِّدة الأجْزاء والتي لا تحمل اسْمَ من كُتِبت له . وتَتَراوَحُ قِيمَةُ هذا النَّوْع بين الفَخامَة والنُّسَخ المتواضعة.

ومن أهَمّ نَماذِج النَّوْع الأوَّل المُصْحَفُ المعروف بـ «مُصْحَف أولْجايْتُو» والمكتوب في هَمَدان، والمُصْحَفُ المعروف بـ «مُصْحَف الوَزير رَشِيدِ الدِّين» والمكتوب في رَبْع الرَّشِيدِي في تَبْرِيز.

فقد نَجَحَ الإيلْخانِيُّون، خُلَفَاءُ هُولاكُو، بعد سُقُوطِ الخِلافَة العَبَّاسِيَّة في بَغْدَاد، سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، في إنْشَاء دَوْلَةٍ مكتملَةٍ امتدت بين جَيْحُون في الشَّرْق والفُرات في الغَرْب، وبين القُوقاز في الشَّمال وخَلِيج فارِس في الجنوب، وفَرَضَت سِيادَتها على بَغْدَاد والمَوْصِل كبرى المُدُن العَبَّاسِيَّة.

وأصبح الإسْلامُ في عهد سُلْطانِهِم غازان خان (٦٩٤ـ ٧٠٣هـ/ ١٢٩٥ـ١٣٠٤م) دِينَ الدَّوْلَة الرَّسْمي . وأدَّى ذلك إلى بِدايَةِ مَرْحَلَةٍ جَدِيدَةٍ في كِتابَة المُصْحَف ظَهَرَت معها سِلْسِلَةٌ من المَصَاحِف الضَّخْمة التي تَتَمَيَّز بحَجْمِها وشَكْلِها وفَخامَتِها، بحيث يمكن القَوْلُ إنَّه لم يُماثِلُها في العِراق أيَّةُ مَصَاحِف كُتِبت قبل هذا التَّأريخ . وأمَرَ بكِتابَة هذه المَصَاحِف السُّلْطان أولْجايْتو خَدَبَنْدَه (٧٠٣ـ ٧١٠هـ/١٣٠٤ـ١٣١٧م) الذي شَيَّدَ

كذلك ما يمكن اعْتِبارُه أحَدَ أهَمّ أمْثِلَة العِمارَة الجَنائِزِيَّة الإيرانِيَّة وواحد من أرْوَع المَشَاهِد في الإسْلام، هو قُبَّتُه التي دُفِنَ فيها في مَدِينَةِ السُّلْطَانِيّة[١].

وتَزامَنَ ذلك مع وُجود أساتِذَة الخَطّ السِّتَّة تَلامِيذ ياقُوت المُسْتَعْصِمِي: أرْغُون بن عبد الله الكامِلِي، ونَصْرُ الله الطَّبِيب المعروف أيضًا بناصِر الدِّين مُتَطَبِّب، ومُبارَك شَاه بن قُطْب التَّبْرِيزِي الملقب «زَارِين قَلَم»، ويُوسُف المَشْهَدِي الخُراساني، وسَيِّد أومِير حَيْدَر المسمَّى «كِنْدَه نُوَيْس»، وأحمد بن السُّهْرَوَرْدِي المسمَّى «شَيْخ زَادَة»؛ والذين وَصَلَت إلينا العَدِيدُ من المَصَاحِف والرَّبْعَات التي تحمل تَوْقِيعَهُم[٢]، من أهمها: مُصْحَفٌ كُتِبَ في بَغْدَاد سنة ٧٠١هـ/ ١٣٠٢م بخَطّ أحمد بن السُّهْرَوَرْدِي محفوظ في مكتبة شيستربيتي بدَبْلِن برقم ١٤٦٧؛ ورَبْعَة أخرى في ثلاثين جزءًا كتبها أيضًا أحمد بن السُّهْرَوَرْدي بين سنتي ٧٠١-٧٠٧هـ/١٣٠٢-١٣٠٨م بدأها في زَمَنِ السُّلْطَان الإيلْخاني غازان خان وزَخْرَفَها محمَّد بن أيْبَك بن عبد الله موزَّعة الآن بين مَكْتَبات مُتْحَف طوب قابي سراي بإستانبول برقم EH 247-250 وشيستربيتي بدَبْلِن برقم a-b 1614، ومُتْحَف بُسْتان إيران بطَهْران ومُتْحَف المتروبوليتان بنيويورك. وقد سَجَّلَ ابن السُّهْرَوَرْدِي بآخر الرَّبعة:

«كتبه أحمد بن السُّهْرَوَرْدِي حامِدًا لله على آلائه ومُصَلِّيًا على نَبِيّ التَّوْبَة محمَّد وآله الغُرَر الأطهار ومُسَلِّمًا».

---

(١) D. JAMES, *op.cit*, p.76.

(٢) *Ibid*, p.76-77.

كما كَتَبَ المُـذَهِّبُ في نهاية الجزء الثَّالِث عَشَر المحفوظ بمُتْحَف طوب قابي سراي:

«ذَهَّبَه أضْعَفُ عِبادَه محمَّد بن أَيْبَك بن عبد الله بمدينة السَّلام بَغْـدَاد حماها الله ونَجَزَ منه يوم الاثنين عشرين ربيع الأوَّل سنة خمس وسبع مئة»[1].

ورُبَّما كان أحمد بن السُّهْرَوَرْدي هو الذي كَتَبَ كذلك «مُصْحَف السُّلْطان أولْجايْتُو» الذي كُتِبَ في بَغْـدَاد في ثلاثين جزءً [رَبْعَة] بين سنتي ٧٠٦-٧١٣هـ/١٣٠٧-١٣١٣م، والموزَّع الآن بين مكتبات مُتْحَف طوقابي سراي بإستانبول برقم EH 234-235 وجامعة كارْل ماركس في لَيْبتسِج، ودِرِسْدِن بألمانيا برقم ٤٤٤. فقد جاء في صَدْرِ أجْزائِه:

«كتبت هذا الجزء وما قبله وما بعده من أجزاء الكتاب العزيز لتعظيم دين الإسلام بتوفيق ذي الجلال والإكرام بأوامر السلطان الأعظم ظل الله في العالم عامر بلاد الله بالعدل والأمان غامر عباد الله بالفضل والإحسان المؤيد من الرحمن بنور الإيمان أولجايتو قان خدبنده سلطان غياث الدُّنْيا والدِّين محمَّد الذي به الربع المكون مهد . أتم الله نعمته عليه كما انتخبه وسلَّم؛ أزمة خلقه إليه، وذلك من خالص ماله بلَّغه الله من سعادة الدارين منتهى آماله بالمصطفى محمَّد».

---

(1) D. JAMES, *op.cit*, p.235.

كما وَقَّعَ على الجزء السَّابع منه مُذَهِّبُ المُصْحَف بما صيغته:

«ذَهَّبَهُ محمَّد بن أيبك بمدينة السَّلام في ذي الحجة سنة عشر وسبع مئة هجرية حامدا لله تعالى»[١].

وتُوجَدُ رَبْعَةٌ أخرى باسم السُّلْطان أولْجايتو موزَّعه بين مكتبتي مُتْحَف طوب قابي سراي ومُتْحَف الأوقاف بإستانبول كُتِبَت بالخط المُحَقَّق كَتَبَها وذَهَّبَها، بين سنتي ٧١٦-٧١١هـ/١٣٠٧-١٣١١م، علي بن محمَّد بن زَيْد بن محمَّد بن أحمد الذي ينتهي نسبه إلى الإمام عليّ بن أبي طالِب.

أمَّا أشْهَرُ المَصَاحِف المنسوبة إلى السُّلْطان أولْجايْتُو فهي دون شك الرَّبْعَةُ المحفوظة الآن في دار الكتب المِصْرية برقم ٧٢ مصاحف.

وقد كُتِبَت هذه الرَّبْعَة بمدينة هَمَدان كما جاءَ في حَرْدِ مَتْن الجزء الثلاثين منها:

«كَتَبَهُ وذَهَّبَهُ ممتثلًا للأمْر المُطاع الدَّاعِي لدَوْلَتِه من صَمِيمِ قَلْبِه وخلوص نيته الراجي عفو الحمداني أحقر عباده عبد الله بن محمَّد بن محمَّد الهَمَداني غفر الله له في جمادى الأولى من شهور سنة ثلاث عشرة وسبعمئة هجرية على صاحبها أفضل الصلوات بدار الخيرات الرَّشِيدِيَّة بهَمَدان حرسها الله تعالى من الحَدَثان»[٢].

---

(١) D. JAMES, *op.cit,* p.236.

(٢) *Ibid,* p.238.

وأُهْدِيَت هذه الرَّبْعَة في العَقْدِ الثَّاني من القَرْن الثَّامِن الهجري إلى المَمالِيك في مِصْر وإلى السُّلْطان النَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون بصِفَةٍ خاصَّة الذي أهْداها بدَوْرِه إلى مَمْلُوكِه أبي سَعِيد سَيْفِ الدِّين بَكْتَمُر بن عبد الله السَّاقي المَلَكِي النَّاصِرِي الذي وَقَفَها على قُبَّتِه التي أنشأها بالقَرافَة الصُّغْرَى بالقَاهِرَة في جُمادَى الثَّاني سنة ٧٢٦هـ/ أبريل سنة ١٣٢٦م.

ونَصُّ هذه الوَقْفِيَّة:

«بسم الله الرحمن الرحيم. وَقَفَ وحَبَّسَ وسَبَّلَ وأبَّدَ وتَصَدَّقَ العبد الفقير إلى الله تعالى حصن المسلمين ملجأ القاصدين أبو سعيد سَيْفُ الدِّين بَكْتَمُر بن عبد الله السَّاقي الملكي النَّاصِري نفعه الله بالقرآن العظيم جميع هذه الرَّبْعَة الشريفة المكرمة المعظمة وعدتها ثلاثون جزءً على كافة المسلمين في القراءة والمطالعة والنقل والدراسة، وقفا صحيحا شرعيا وجعل مستقرها بالقبة التي بالتربة المعروفة بإنشائه بالقرافة الصغرى المجاورة لحوش الملك الظاهر، وجعل النظر في ذلك لنفسه مدة حياته ثم من بعده لذريته وذرية ذريته وإن يعلوا الأرشد فالأرشد. فإذا انقرضت الذرية ولم يبق منهم أحد يكون النظر في ذلك الوقف للشيخ المقيم بالتربة المذكورة يجري الحال في ذلك كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. وشرط الواقف المذكور أن الربعة المذكورة لا تخرج من التربة المذكورة ولا تعاد ولا تخرج إلاَّ للإصلاح فحرامٌ حرامٌ على من غيَّره أو بدَّله ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾

وَقَعَ أجْرُ الواقِف المذكور على الله عَزَّ وجَلَّ والذي لا يُضِيعُ أجْرَ مَنْ
أحْسَنَ عَمَلا وذلك سنة ست وعشرين وسبع مئة».

يقولُ ابن إياس: إنَّ بَكْتَمُر السَّاقي «أنشأ بهذه الخانْقاه حَمَّامًا وفُرْنًا وطاحُونًا وسَاقِيَة وجُنَيْنَة... وجَعَلَ بها رَبْعَةً شَرِيفَةً مَكْتوبَةً بالذَّهَب، مَصْروفها ألف دينار، وكانت بخَطٍّ بعض الأعاجِم»، هي لاشك هذه الرَّبْعَة المنسوبة إلى أولْجايْتُو. ثم أضافَ في موضع آخر: «ولم تَزَل هذه الرَّبْعَةُ مقيمة بهذه الخانْقاه والنَّاسُ يتوجَّهون إليها بسبب الفُرْجَة على هذه الرَّبْعَة، فإنَّها كانت من مَحاسِن الزَّمان ولم تزل هناك إلى سنة تسع وتسع مئة، فلما أنشأ الملك الأشْرَفُ قانْصُوه الغُورِي مَدْرَسَتَه التي في الشَّرابِشِيين نَقَلَ هذه الرَّبْعَة إلى مَدْرَسِته وهي مقيمة بها إلى الآن»[1].

وقد نُقِلَت هذه الرَّبْعَة من مَدْرَسَة الغُورِي إلى الكُتُبْخانَة الخِدِيوِيَّة بالقَاهِرَة (دار الكتب المِصْرية) في نهاية القرن التاسع عشر وهي محفوظة بها تحت رقم ٧٢ مصاحف.

*
* *

ومن أهَمّ وأوَائِل المَصَاحِف المَمْلُوكِية التي وَصَلَت إلينا، مُصْحَفٌ كان مَوْقُوفًا على أحَدِ أهَمّ خَوانِك القَاهِرَة التي ذَكَرها المَقْريزي في «المَواعِظ

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور ١/ ١: ٤١٩.

والاعْتِبار»، هي «الخانْكاه الرُّكنية بَيْبَرْس» بالجَمالِيَّة؛ فقد وَصَلَ إلينا المُصْحَفُ الذي وَقَفَه بَيْبَرْس الجاشَنْكير على هذه الخانْكاه، وهو محفوظٌ الآن بالمكتبة البريطانية بلندن ويقع في سبعة أجزاء وقياسُه ٤٨×٣٢سم، وهو المُصْحَفُ المَمْلُوكِي الوَحيد المُـقَسَّم بهذا الشَّكْل. وذَكَرَ ابنُ إياس سَبَبَ كِتابَتِه، يقولُ في حَوادِث سنة ٧٠٥هـ/ ١٣٠٦م:

«فيها ابتدأ الأتابكي بَيْبَرْس الجاشَنْكير بعِمارَة خانْقاهِه التي برَحْبَةِ بابِ العيد قُبالَة الدَّرْبِ الأصْفَر؛ قيل: لمَّا كَمُلَت عِمارَةُ هذه الخانْقاه كَتَبَ الشَّيْخُ شَرَفُ الدِّين ابن الوَحيد للأتابِكي بَيْبَرْس «خَتْمَةً» في سبعة أجزاء في وَرَقٍ قَطْع البَغْدادي بقَلَم الشعر، قيل: إنَّ الأتابِكي بَيْبَرْس أصْرَف على لِيقَةِ هذه الأجْزاء ألْفًا وسبع مئة دينار حتى كُتِبَت بالذَّهَب، ووَضَعها في الخانْقاه فهي من مَحَاسِنِ الزَّمان»[١].

ولا جِدالَ في أنَّ مـا ذَكَرَه ابنُ إياس هو وَصْفٌ للمُصْحَفِ المحفوظ الآن في المكتبة البريطانية بلندن برقم Add 22406 - 13، فكُلُّ هذه الأوْصَاف تَنْطَبِقُ عليه. وإشارَةُ ابن إياس ليست الإشَارة الوَحيدَة في المَصَادِر إلى هذا المُصْحَف، فقد سَبَقَ أنْ ذَكَرَه ـ قَبْلَ ابن إياس ـ كلٌّ من الصَّفَدِي والمَقْريزي وابن حَجَر العَسْقلاني[٢]، ولكنَّ رِوايَتَهُم تُخالِفُ رِوَايَة ابن إياس في أنَّ

---

(١) ابن إياس : بدائع الزهور ١/ ١: ٤١٨-٤١٩.

(٢) الصفدي : الوافي بالوفيات ٣: ١٥٠-١٥١؛ المقريزي : المقفى الكبير ٥: ٧٢١؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ٢: ٤٠.

المُصْحَف لم يكن في وَقْتِهم في الخانْكاه التي شَيَّدَها بَيْبَرْس الجاشَنْكير وإنَّما في جَامِع الحاكِم، يقولُ ابنُ حَجَر في ترجمة بَيْبَرْس:

«وهو الذي جَدَّدَ الجامِع ـ أي جَامِع الحاكم عند بابِ الفُتُوح ـ بعد الزَّلْزَلَة ووَقَفَ له وَقْفًا مُخْتَصًّا، وعَمَّرَ له خِزانَة كُتُبٍ فيها أشياء نفيسة من جملتها «المُصْحَف» الذي كتبه ابنُ الوَحِيد بماءِ الذَّهَب بخَطِّه المَنْسُوب في سبعة أجزاء»[1].

وكاتِبُ هذا المُصْحَف الرَّائع هو شَرَفُ الدِّين أبو عبد الله محمَّد بن شَريف بن يُوسُف الذُّرْعي الدِّمَشْقي المعروف بابن الوَحِيد الكاتِب، المتوفَّى سنة ٧١١هـ/ ١٣١١م، أَحَدُ تلاميذ قِبْلَة الخَطَّاطِين ياقُوت بن عبد الله الرُّومي المُسْتَعْصِمِي، حيث تَتَلْمَذَ عليه في بَغْدَاد وصارَ بعد عَوْدَتِه إلى مِصْر «شَيْخَ التَّجْوِيد بها ويُضْرَبُ بجَوْدَةِ خَطِّه المَثَل» كما يقول المَقْرِيزِي. أمَّا خليلُ بن أَيْبَك الصَّفَدِي فقال عنه:

«صَاحِبُ الخَطِّ الفائق والنَّظْم والنَّثْر، كان تامَّ الشَّكْلِ حَسَن البِزَّة مَوْصُوفًا بالشَّجاعَة متكلِّمًا بعدَّة أَلْسُن يُضْرَبُ المَثَلُ بحُسْنِ كِتابته... وكان قد اتَّصَلَ بخِدْمَة بَيْبَرْس الجاشَنْكير وأعْجَبَه خَطُّه فكَتَبَ له «خَتْمَةً» في سبعة أجزاء بليقَةِ ذَهَبِيَّة قَلَم الأشْعار ثُلُث كبير قَطْع البَغْدَادي، دَخَلَ فيها جملةٌ من الذَّهَب أعطاه له الجاشَنكير برَسْم اللِّيقَة لا غير ألفًا وستّ مئة دينار أو ألْفًا وأربع مئة دينار، فدَخَلَ

---

[1] ابن حجر: الدرر الكامنة ٢: ٤٠.

الخَتْمَة ستّ مئة دينار وأَخَذَ الباقي؛ فقيل له في ذلك، فقال: مَتَى يعودُ آخَرُ مثل هذا يكتُبُ مثل هذه «الخَتْمَة»؟ وزَمَّكها صَنْدَل المُذَهِّب رأيتها في جَامِع الحاكم وفي ديوان الإنْشَاء بقَلْعَةِ الجَبَل غير مَرَّة. وهي وَقْفٌ بجامِع الحاكم، وما أَعْتَقِدُ أَنَّ أحدًا يكتب مثلها ولا مثل تَزْميكها فإنَّهما كانا فَرْدَيْ زَمانِهما، وأَخَذَ من الجاشْنْكير عليها جملةً من الأُجرة. وكَتَبَ الأَقْلامَ السَّبْعَة طَبَقَة، وأَمَّا فِصَاحُ النَّسْخ والمُحَقَّق والرَّيْحان، فما كَتَبه أَحَدٌ أحْسَنَ منه»[1].

ويُوجَدُ في نهاية كُلِّ سُبْعٍ منه حَرْدُ مَتْنٍ Colophon يُوَضِّحُ مَنْ أَمَرَ بكتابته واسْم كاتِبه، تَخْتلِفُ صيغَتُه اخْتِلافًا يَسِيرًا بين سُبْعٍ وآخَر، نَصُّه:

«أَمَرَ بكتابَةِ هذا السُّبْع الشَّريف وإخْوَتِه المَقَرُّ الكريم العالي المَوْلَوي المَخْدومي الرُّكْني ـ أَعَزَّ الله نَصْرَه ـ أُستاذ الدَّار العالية.
وكَتَبَ محمَّد ابن الوَحِيد، حامِدًا لله ومُصَلِّيًا على نَبِيِّه محمَّد وآلِه وصَحْبِه ومُسَلِّمًا، وفَرَغَ منها بأسْرِها في سنة خمس وسبع مئة».

كما وَرَدَ كذلك اسْمُ المُزَمِّك ـ الذي ذَكَرَه الصَّفَدِي ـ وهو أبو بكر محمَّد بن مُدَبِّر الشَّهير بـ «صَنْدَل»، والذي شارَكَه في ذلك شَخْصٌ آخَرُ يُدْعَى «أَيْدُغْدي بن عبد الله البَدْري»، حيث يُوجَدُ تَوْقيعُهُما على أجزاء المُصْحَف «الخَتْمَة» السَّبْعَة[2]، فقد جَاءَ في نهاية السُّبْع الثَّالِث: «بتَذْهيب صَنْدَل»؛ وبنهاية السُّبْع السَّابع: «زَمَّكَ هذا السُّبْع الشَّريف وإخْوَتَه العَبْدُ

---

(1) الصفدي: الوافي بالوفيات ٣: ١٥٠ـ١٥١؛ المقريزي: المقفى الكبير ٥: ٧٢١.

(2) المصدر نفسه ٣: ١٥٠.

الفَقِيرُ إلى الله تعالى الرَّاجي عَفْوَ الله ورَحْمَته أيْدُغْدي بن عبد الله البَدْرِي - عَفَا الله عنه - في سنة خَمْسٍ وسَبْع مئة».

وتحتفظُ مكتبةُ الأوْقاف بإستانبول TIEM 450 بخَتْمَةٍ كُتِبَت لخِزَانَة السُّلْطان النَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون سنة ٧١٢هـ/١٣١٣م تُوَضِّحُ طريقة كتابة المَصَاحِف وتَذْهِيبِها وتَزْمِيكِها ثم مُقَابَلَتِها بمعرفة أحد القُرَّاء وضَبْطِها بواسطة أحد العُلَماء، فهي تشتملُ على اسْم النَّاسِخ والمُزَخْرِف والمُزَمِّك والمُقابِل والضَّابِط لها، جاء بها أنَّها كُتِبَت.

«للخِزَانَة العالية المولوية السُّلْطانية الملكية النَّاصِرِية أدامَ الله أيامها ونَشَرَ في الخافقين أعلامها وعَظَّمَ قَدْرَها وجَعَلَ مُلُوكَ الأرْضِ طَوْعَ نَهْيها وأمْرِها».

وجاء بخاتمتها:

«وكان الفَراغُ من كتابتها يوم الثلاثاء لـ... بقين من شهر رمضان عام اثنى عشر وسبع مئة. نجزت الخَتْمَة الشَّرِيفَة شَرَّفَها الله وعَظَّمَها على يد العبد الفقير الراجي عفو ربه وغفرانه شاذي بن محمَّد بن شاذي بن داود بن عيسى بن أبي بكر بن أيوب».

ووَقَّعَ المُزَخْرِفُ والمُزَمِّكُ بما نَصُّه

«هذه الفواتح والغوالق من إذعان العبد الفقير إلى الله تعالى الراجى عفو ربه أيد غدي بن عبد الله البدري نَشْو المعلم صَنْدَل عفا الله عنهم»

«بسم الله الرحمن الرحيم. زَمَّكَ هذه الخَتْمَة الشريفة أقلّ

عبيد الله تعالى علي بن محمّد الرَّسَّام عُرِفَ بالأَعْسَر عفا الله عنهم».

ثم شَهادَة المُصَحِّح والضَّابِط للمُصْحَف:

«قابل هذه الخَتْمَة الشريفة من أولها إلى آخرها فوجدها سالمة من اللَّحْنِ والغَلَط مُنَزَّهَة من العُيُوب واللَّغَط كتبه محمَّد السّراج المقرئ».

ثم «ضَبَطَ هذه الخَتْمَة الشَّرِيفَة بالشَّكْل العَبْدُ الفَقِيرُ إلى الله تعالى خليل بن محمَّد البَهْنَسي حامِدًا ومُصَلِّيًا».

واتَّخَذَت جَمِيعُ المَصَاحِف المَمْلُوكِية والإيلْخانية التي وَصَلَت إلينا شَكْلَ الـ Codex أو الشَّكْل الرأسي الذي يزيدُ الارتفاعُ فيه عن العَرْض، ويَتَّصِلُ به لِسانٌ خُماسي الأَضْلاع تُعادِلُ مِساحَتُه ثُلث حَجْم الكتاب يكون الاتِّصالُ بينهما بواسِطَة ما يُطْلَقُ عليه «قَنْطَرَةُ اللِّسان».

ويتكوَّنُ تَجْلِيدُ الكتاب أو المُصْحَف من الجِلْدَة الخارِجية والبِطانَة الدَّاخِليَّة يتخلَّلُها دُفوفٌ من الوَرَق المُسْتَعْمَل المَضْغُوط.

أمَّا الكِتابُ أو المُصْحَف فيتكوَّن من عَدَدٍ من الكُرَّاسات تَحْزَمُ مَعًا بطريقةٍ تَجعلُ الخُيوطَ المستخدمة في حَبْكِ الكرَّاسات مَعًا تبدو كالسِّلْسِلَة أو الجَدِيلَة في خلفية الكُرَّاسات مع تَقْفِيَة كَعْبِ الكتاب أو المُصْحَف، أي تدويره حتى لا يَنْصَرِم إلى الأمام فيما بعد. وتَتَّصِلُ الكُرَّاساتُ بالغِلاف الجِلْد بواسطة الدُّقُوف. وتُتْرَكُ أوْراقٌ خالِيَةٌ من الكِتابَة في الكُرَّاسَة الأُولى والكُرَّاسَة الأخيرة لتَثْبِيت أطْراف البِطانَة بها من الجهتين، ثم يُشْبَك الجميع

في كعبٍ من القُماش في رأس وذَيْل الكتاب مَنْسُوجًا في طرفيه بخُيُوط مُلَوَّنَة.

وكان الغالِبُ على لَوْنِ الغُلافِ الخارِجي للكتاب الجِلْد البُنِّي بدَرَجاتِه، وهو قِطْعَةٌ واحِدَةٌ تمثل الدَّفَّه العُلْيا والدَّفَّه السُفْلَى والكَعْب واللِّسان.

أمَّا البِطانَةُ فكانت من الجِلْد المَبْشُور أو الخَفِيف، وقد تكون من القُماش الحرير الأزْرَق أو الأخْضَر بدَرجاتِه واسْتُخْدِمَ النَّشَا والكَثِيرَاء في لَصْقِ الجِلْد والكَعْب في خَلْفيات الكُرَّاسات.



سَرْ لَوْح السّبع الرابع من مصحف بيبرس الجاشنكير (المكتبة البريطانية)



فاتحة الكتاب من مصحف بيبرس الجاشنكير



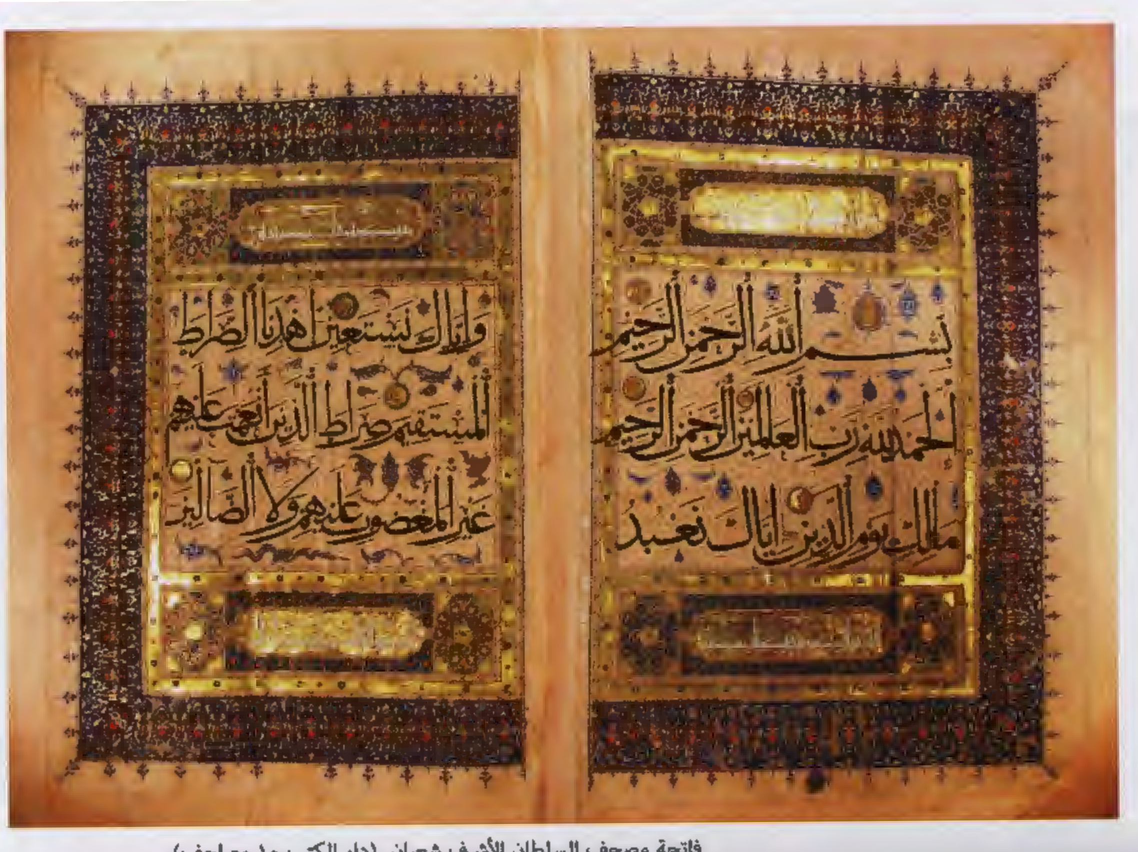
حرد متن مصحف بيبرس الجاشنكير بخط ابن الوحيد



وقفية الأمير بكتمر الساقي علي مصحف أولجايتو (دار الكتب ٧٢ مصاحف)



فاتحة مصحف أولجايتو (دار الكتب ٧٢ مصاحف)



فاتحة مصحف السلطان الأشرف شعبان (دار الكتب ١٠ مصاحف)



ربعة مملوكية من القرن الثامن الهجري (متحف الفنون الإسلامية بإستنبول



الجزء الثالث من ربعة صرغتمش (دار الكتب المصرية)



وقفية مصحف السلطان الناصر محمد بن قلاوون على جامع القلعة (دار الكتب)



وقفية مصحف خواند بركة أم السلطان شعبان (دار الكتب)



وقفية مصحف السلطان شعبان (دار الكتب)



وقفية مصحف السلطان قايتباي (دار الكتب)





نماذج لتجاليد مصاحف وربعات مملوكية بدار الكتب المصرية



تجليد ربعة ألجاي اليوسفي (دار الكتب المصرية)



تجليد ربعة مملوكية بدار الكتب المصرية رقم ١٠٤ مصاحف

خَزَائِنُ الكُتُب

من أهَمِّ ما يُمَيِّزُ «المَدْرَسَة» وُجُودُ «المكْتَبَة»، فقد حَلَّت «مَكْتَباتُ المَدارِس» أو «خَزائِنُ الكُتُب»، وعلى الأخَصّ في العَصْرِ المَمْلُوكِي، مَحَلَّ خَزائِن كُتُبِ الخُلَفاء وخَزائِن دُورِ العِلْم والحِكْمة، يقُولُ القَلْقَشَنْدي ـ وهو يَكْتُبُ في مَطْلَعِ القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشَر الميلادي ـ : «أمَّا الآن فقد قَلَّت عِنايَةُ المُلُوكِ بخَزائِنِ الكُتُب اكْتِفاءً بخَزَائِنِ كُتُبِ المَدَارِس التي ابْتَنوها من حيث إنَّها بذلك أمَسّ»[1]. فاشْتَمَلَت أغْلَبُ مَدَارِسِ القَاهِرَة التي أُنشِئَت في العَصْر المَمْلُوكي على خَزائِنَ للكتب مثل: المَدْرَسَة الظَّاهِرية العَتيقَة والمَدْرَسَة النَّاصِرية محمَّد بن قَلاوُون والمَدْرَسَة الحِجَازِيَّة والمَدْرَسَة الطَّيْبَرْسِيَّة والمَدْرَسَة المنكوتَمُرِيَّة والمَدْرَسَة المَلَكية والمَدْرَسَة السَّابِقِيَّة والمَدْرَسَة البَشيرية والمَدْرَسَة المَحْمودية ومَدْرَسة أُلْجاي اليُوسُفي ومَدْرَسَة أمّ السُّلْطان شَعْبان والقُبَّة المَنْصُورية[2]. وقد وَصَفَ النُّوَيْري، المتوفَّى سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٣م، خِزَانَة القُبَّة المَنْصُورية بأنَّ بها «من الخَتْمات الشَّريفَة والرَّبْعاتِ المَنْسوبة الخَطّ وكُتُبِ التَّفْسير والحَديث والفِقْه واللُّغَة والطِّبّ والأدَبِيَّات

---

(١) القلقشندي : صبح الأعشى ٥: ٤٦٧.

(٢) المصدر نفسه ١: ٤٧٦.

ودَواوين الشُّعَراء شيءٌ كثير»؛ وأنَّه رُتِّبَ لخازِنِ كُتُبِها في كُلِّ شهرٍ أربعون دِرْهَمًا[١]. وذَكَرَ المَقْريزي ـ الذي كَتَبَ بعد النُّوَيْري بنحو ثلاثة أرْباعِ القَرْن ـ أنَّه «قد ذَهَبَ مُعْظَمُ هذه الكُتُب وتَفَرَّقَ في أيْدي النَّاس»[٢].

ووَصَلَ إلينا من بين كُتُبِ هذه الخِزانَة: الجزءُ الأوَّلُ من كِتابِ «أدَب الخَواصِّ في المُخْتارِ من بَلاغاتِ قَبائِل العَرَب وأخْبارِها وأنْسابِها وأيَّامِها» للوَزير الحُسَيْنُ بن علي بن الحُسَيْنُ المَغْربي الكاتِب، المتوفَّى سنة ٤١٨هـ/ ١٠٢٧م، وهو مَحْفُوظٌ الآن في المكتبة العامَّة بمَدينَة بُورْصَة التُّرْكِيَّة، وجاءَ على ظَهْرِيَّة النُّسْخَة:

> «هذا الكِتابُ من الكُتُبِ المَوْقُوفَة المَخْزونَة في خِزانَة القُبَّة المَنْصُورية بمِصْر المحروسة للملك المَنْصُور قَلاوُون ـ رحمه الله سبحانه ورَحِمَ الله تعالى امراءً يُوَصِّلُ هذا الكتاب لمَقَرِّه المَزْبُور، بعد انْدراجي إلى رحمة الله تعالى، وأنا المحْتاج إليه ويسي عَفَا الله تعالى عنه».

وقِطْعَةٌ من كِتابِ «جَمْهَرَة نسَبِ قُرَيْش» للزُّبَيْر بن بَكَّار، محفوظةٌ في مكتبة كوبريلي بإستانبول برقم ١١٤١، كُتِبَ في أعلى ظَهْرِيتها فوق عنوان الكتاب:

---

(١) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، نشرة دار الكتب المصرية، ٣١: ١١١.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥٢.

«وَقْفٌ لله سبحانه
ومَقَرُّه بالقُبَّة المَنْصُورية»

ويَصِفُ لنا المَقْريزي ما تَخَلَّفَ من خِزَانَة كُتُبِ «المَدْرَسَة الأشْرَفِيَّة المستجدَّة» بالصُّوَّة تِجاه الطَّبْلَخاناه من قَلْعَةِ الجَبَل بعد هَدْمِها، حيث وُجِدَ بها «من المَصاحِف والكُتُب في الحديث والفِقْه وغيره من أنْواعِ العُلُوم جُمْلَةٌ»، فاشْتَرى جَمالُ الدِّين الأُسْتادَّار ذلك من الملك الصَّالِح المَنْصُور حَاجي بن الأشْرَف بمبلغ ستّ مئة دينار، وكانت قِيمَتُها عشرات أمثال ذلك، ونَقَلَها إلى دَارِه وكان مِمَّا فيها: «عشرة مَصَاحِف طُول كُلّ مُصْحَفٍ منها أربعة أشْبار إلى خمسة في عَرْضٍ يَقْرُب من ذلك، أحَدُها بخَطِّ ياقُوت، وآخَر بخَطِّ ابن البَوَّاب، وباقيها بخُطُوطٍ منسوبة، ولها جُلُودٌ في غاية الحُسْنِ معمولة في أكياسِ الحَرير الأطْلَس، ومن الكُتُبِ النَّفيسة عشرة أحْمَال جميعُها مكتـوبٌ في أوَّلِه الإشْهادُ على الملك الأشْرَف بوَقْفِ ذلك ومَقَرّه في مَدْرَسَتِه»[1].

ولعَلَّ أهَمّ خَزائِن كُتُبِ المَدارِس المَمْلُوكِية هي خِزَانَةُ كُتُبِ «مَدْرَسَة جَمال الدِّين محمود الأسْتادَّار» المعروفة أيضًا بـ «المَدْرَسَة المحمودِيَّة» بخُطِّ المَوازِينيين بالشَّارِع الأعْظَم خارِج بابِ زَوِيلَة المعروفة الآن بـ «جَامِع الكُرْدي» الواقِع في أوَّلِ الخِيَمِيَّة على يسار المُتَّجِهة إلى المُغَرْبلين والسُّرُوجِيَّة. يقولُ

(١) المقريزي: المواعظ ٤: ٦٣٦.

المَقْرِيزي في وَصْفِ خِزَانَتِها: «ولا يُعْرَفُ اليوم بدِيارِ مِصْر ولا الشَّام مثلها، وهي باقية إلى اليوم، لا يَخْرُجُ لأحَدٍ منها كِتابٌ إلَّا أنْ يكون في المَدْرَسَة، وبهذه الخِزَانَة كُتُبُ الإسلام من كُلِّ فَنٍّ، وهذه المَدْرَسَةُ من أحْسَنِ مَدارِس مِصْر»[١]. وكانت كُتُبُ هذه الخِزَانَة كثيرةً جِدًّا، كما يقولُ ابنُ حَجَر، وعَدَّها من أنْفَسِ الكُتُبِ الموجودة في وَقْتِه بالقَاهِرَة، وأصْلُها من جَمْعِ القاضي بُرْهانِ الدِّين أبي إسْحاق إبراهيم بن عبد الرَّحِيم بن محمَّد بن جَمَاعَة الكِناني الحَمَوي المَقْدِسي، المتوفَّى سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، في طُولِ عُمْره، واشْتَرَاها محمود الأُسْتادَّار من تَرِكَتِه بعد مَوْتِه ووَقَفَها، وشَرَطَ أنْ لا يَخْرُجَ منها شيءٌ من مَدْرَسَته. ويُضِيفُ ابنُ حَجَر أنَّ القاضي بُرْهان الدِّين بن جَماعَة «خَلَّفَ من الكُتُبِ النَّفِيسَة ما يَعِزُّ اجْتِماعُ مثله؛ لأنَّه كان مُغْرمًا بها، فكان يَشْتَري النُّسْخَة من الكِتاب التي إليها المُنْتَهى في الحُسْنِ، ثم يَقَعُ له هذا الكِتابُ بخَطِّ مُصَنِّفِه فيَشْتَريه ولا يَتْرُك الأولى، إلى أنِ اقْتَنى بخُطُوطِ المُصَنِّفين ما لا يُعَبَّر عنه كثرةً»[٢].

ونَظَرًا لقيمة وأهَمِيَّة هذه الخِـزَانَة تَوَلَّى أمْرَها الحَافِظُ ابن حَجَر العَسْقلاني، بعد عَزْلِ خازِنها الفَخْر عُثْمان المعروف بالطَّاغي في سنة ٨٢٦هـ/١٤٢٣م؛ لأنَّها نَقَصَت بتَفْرِيطِه العُشْر ـ أي أربع مئة مجلَّدة ـ لأنَّ

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥٩٢ـ٥٩٤.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ١: ٣٥٥، ٣: ٢٩٩، ٣٥٦.

كُتُبَها كانت أربعة آلاف مجلَّدة. وعَمِلَ لها فِهْرِسْتًا على الحروف فيه أسماءُ التَّصانِيف، وآخَرَ على الفُنُون. يقول السَّخَاوي تلميذ ابن حَجَر: «وقد انْتَفَعَ بذلك ونَفَعَ الله به فإنَّه كان يُقِيمُ بها في الأُسْبُوع غالِبًا يَوْمًا، وفي مُدَّةِ الأسْبوع يكتب في قائمةٍ ما يَحْتَاجُ لمراجعته منها بسببه في تصانِيفه وغيرها ليتذكّره في يوم حُلُولِه بها كما شاهَدته، وتيَسَّر على يَدِه عَوْدُ أشياءَ مِمَّا كان ضَاعَ قبله، واسْتَمَرَّت بيده حتى مات»[1]، تُوفِّي ابن حَجَر سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٩م.

ورَغْم أنَّ ابن حَجَر ذَكَرَ أنَّ مجموعَ كُتُبِ هذه الخِزَانَة كان نحو أربعة آلاف مُجَلَّدَة، فلم يتبق منها في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي عندما جُمِعَت الكُتُبُ الموجودة في المَدارِس والمَسَاجِد لتُضَمّ إلى الكُتُبْخانه الخِدِيوية (دار الكُتُب المِصْرية) سوى ثمانية وخمسين كتابًا فقط. فقد أُخِذَت أغْلَبُ كُتُبِ هذه الخِزَانَة مع غيرها من كُتُبِ خَزائِن المَدارِس الأخرى ونُقِلَت إلى إستانبولَ ـ عاصِمَة الخِلَافَة العُثمانية ـ غَداة الفَتْح العُثْماني لمِصْر، يقول ابنُ إياس عند وَصْفِه حَوادِثَ الفَتْحِ سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م: «ثم إنَّ الوُزَراءَ اسْتُدْرِجوا لأَخْذِ الكُتُبِ النَّفيسَة التي في المَدْرَسَة المَحْمودية والمُؤَيَّدية والصَّرْغَتْمُشِيَّة، وغير ذلك من المدارِس التي فيها

---

[1] السخاوي: الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، نسخة المكتبة الوطنية الفرنسية رقم BN-arabe 2105، ورقة ٢٢ ظ.

الكُتُبُ النَّفيسة فنَقَلوها عندهم ووَضَعُوا أيْديهم عليها، ولم يَعْرِفُوا الحَرَامَ من الحَلالِ في ذلك»[1].

ومن بين النُّسَخ التي كانت بهذه الخِزَانَة وتُوجَدُ الآن في مكتبات إستانبول المختلفة: نُسْخَةٌ من كِتابِ «تَجارِب الأُمَم» لمِسْكَوَيْه كُتِبَت سنة ٥٥٢هـ آيا صوفيا ٣١١٦-٣١٢١، و«كِتابُ الصِّناعَتَيْنْ» لأبي هلال العَسْكري بخَطِّه كوبريلي ١٣٣٣-١٣٣٤، و«مُعْجَمُ البُلْدان» لياقُوت الحَمَوي كوبريلي ١١٦١-١١٦٥، و«تاريخُ الإسلام» للذَّهَبي بخَطِّه، نُسْخَة في عشرة مجلَّدات كتبها سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م آيا صوفيا ٢٠٠٥-٢٠١٤ ونُسْخَة ناقصة من «سِيَر أعْلام النبلاء» للذَّهبي أيضًا كُتِبَت سنة ٧٣٩هـ/ ١٣٣٩م نَقْلًا عن نُسْخَة المُؤَلِّف أحمد الثالث ٢٩١٠أ، و«المَعْرِفَةُ والتَّارِيخ» لأبي يُوسُف يَعْقُوب بن سُفْيان الفَسَوي روان كشك ١٤٤٥، و«أبْكارُ الأفْكار في أصُولِ الدِّين» لسَيْف الدِّين الآمِدِي آيا صوفيا ٢١٦٥-٢١٦٦، و«ديوان البُحْتُرِي»، نُسْخَةٌ كتبها سنة ٤٢٤هـ/ ١٠٣٣م علي بن عبيد الله الشِّيرازي كوبريلي ١٢٥٢، وأجزاء من «مَسَالِك الأبْصَار» لابن فَضْلِ الله العُمَري آيا صوفيا ٣٤٢٥-٣٤٢٧.

ودَلَّنا على أنَّ هذه النُّسَخ كانت من بين كُتُبِ خِزَانَة «المَدْرَسَة المَحْمُودِيَّة» عَلامَةُ الوَقْفِ المُثْبَتَة على ظَهْرِيَّة هذه النُّسَخ، والتي كان

---

[1] ابن إياس: بدائع الزهور ٥: ١٧٩.

جَمالُ الدِّين محمود الأُسْتادَّار يُثْبِتُها على جميعِ كُتُبِ مكتبته التي وَقَفَها على المَدْرَسَة، وهي على المِثال التالي:

«الحَمْدُ لله حَقَّ حَمْدِه

وَقَفَ وحَبَسَ وسَبَّلَ المَقَرُّ الأَشْرَفُ العالي الجمالي محمود أُسْتادَّار العالية الملكي الظَّاهري ـ أعَزَّ الله تعالى أنْصَارَه وخَتَمَ بالصَّالِحات أعْمالَه ـ جميعَ هذا المُجَلَّد وما قبله من المجلَّدات من كِتاب (اسْم الكِتاب) لـ (اسْم المؤلِّف) وعِدَّة ذلك (عَدَد المُجَلَّدات) وَقْفًا شَرْعيًّا على طَلَبَة العِلْم الشَّريف يَنْتفعون به على الوَجْه الشَّرْعي، وجَعَلَ مَقرّ ذلك بالخِزانَة السَّعيدَة المُرْصَدَة لذلك بمَدْرَسته التي أنشأها بخُطِّ المَوازينيين بالشَّارِع الأَعْظَم بالقَاهِرَة المحروسَة، وشَرَط الواقِفُ المشَارُ إليه أنْ لا يَخْرُج ذلك ولا شيءٌ منه من المَدْرَسَة المذكورة برَهْنٍ ولا بغيره، ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. بتاريخ الخامس والعشرين من شَعْبان المُكَرَّم سنة سَبْع وتسعين وسبع مئة»

وكانت خِزَانةُ كُتُبِ جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن تُوجَدُ بإيوانِ المَدْرَسَة القِبْلي «لخَـزْنِ ما عَسَاه أنْ يكون بالمكان المذكور من المَصَاحِف والرَّبْعات الشَّريفَة والكُتُب، على جَاري العادَة في ذلك»[1].

---

(١) كتاب وقف السلطان الناصر حسن، حققته وعلَّقت عليه هويدا الحارثي، بيروت ـ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ٢٠٠١م، ١٤٩، ١٦٠.

وجَاءَ نَصُّ وَقْفِيَّة السُّلْطان حَسَن على أَحَدِ أَجْزاء كِتابِ «الأغَـاني» لأبي الفَرَج الأصْبَهاني ـ المحفوظ بدار الكتب المِصْرية برقم ٤٢٧ أدب ـ بالصِّيغة التالية:

«هذا ما أوْقَفَ العَبْدُ الفقيرُ إلى الله تعالى أبو المَحاسِن الحَسَن بن محمَّد بن قَلَاوُون ـ عَفَا الله عنه ورحمه ـ وهو من كتاب «الأغَـاني»، لله تعالى على طَلَبَة العِلْم الشَّريف ينتفعون به انْتِفاع أمْثالِهم وَقْفًا صَحيحًا شَرْعيًّا لا يُبَاعُ ولا يُوهَبُ ولا يُورَّثُ، ولا يكون إلَّا مِلْكًا لله إلى أبَدِ الآبِدين، وشَرَطَ النَّظَرَ في ذلك للإمام محمَّد بن النَّقَاش، وشَرَط على مُسْتَعِيره برَهْنٍ مَقْبُوض أنْ لا يَغِيبَ به أكثر من ثلاثة أشهر، ويكون مَقَرُّه بالجَامِع المَنْسُوب للعِمارَة، ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾. وكُتِبَ في شهور سنة خمسٍ وخمسين وسبع مئة».

أمَّا خِزانَةُ «مَدْرَسَة صَرْغَتْمُش» المُجاوِرَة لجَامِع ابن طُولُون، فقد وَصَلَت إلينا منها بعضُ نُسَخٍ محفوظة الآن في دار الكُتُب المِصْرية، بعضها «نُسَخٌ خَزائِنِيَّة». فقد جَاءَ على ظَهْرِيَّة المجلَّد الأوَّل من نُسْخَةِ كِتابِ «التَّـكْمِلَة والذَّيْل والصِّلَة» للحسَن بن محمَّد الصَّغَاني :

«برَسْم الخِـزَانَة الشَّريفَة العالية المَوْلويَّة المالِكية المَخْدُوميَّة السَّيْفِيَّة صَرْغَتْمُش رأس نَوْبَة أعَزَّ الله أنْصارَه خِدْمَة المملوك عبد الملك ابن عبد الكَريم القُرَشي».

وجَاءَ نَصُّ وَقْفِيَّة مُصْحَفِه الذي جَعَلَه بمَدْرَسَته المجاوِرَة لجامِع ابن طُولُون بالصِّيغَة التالية:

«وَقَفَ وحَبَّسَ وسَبَّلَ وتَصَدَّقَ العَبْدُ الفقير إلى الله تعالى صِيرْغَتْمُش [كذا] جميعَ هذا الجزء المُبارَك على المُشْتَغَلِين بالعِلْم الشَّريف وعلى المقيمين بالمَدْرَسَة الحَنَفِيَّة المجاورة لجامِع طُولُون لِيَنْتَفِعُوا بذلك في الكتابة والاشْتغال منه لَيْلًا ونَهارًا، بحيث لا يَخْرُجُ من المَدْرَسَة المذكورةِ ولا يُبَاعُ ولا يُرْهَنُ ولا يُوهَبُ ولا يُبَدَّلُ ولا يُغَيَّرُ، وَقْفًا صَحِيحًا شَرْعِيًّا، قَصَدَ الوَاقِفُ بهذا الوَقْفِ ابْتِغاءَ وَجْهِ الله العَظيم تَقَبَّلَ الله منه، ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ وهُوَ حَسْبي ونِعْمَ الوَكيل».

ولم يَقْتَصِر إنْشَاءُ خَزَائِن الكُتُبِ على المَدارِس المَمْلُوكِية فقط، بل أُلْحِقَت أيضًا بالجَوامِع والخَوانِك والرُّبُط «خَزائِنُ للكُتُب»، فعندما أنشأ الأميرُ عِزُّ الدِّين أَيْدَمُر الخَطِيري جامِعَه ببُولاق سنة ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م «جَعَلَ فيه خِزَانَةَ كُتُبٍ جَليلَة نَفيسَة ... وَوَقفَ عليها عِدَّةَ أَوْقافٍ جَليلَة»، كما كانت هناك خِزَانَةُ كُتُبٍ في كُلٍّ من الخانْقاه البَكْتَمُرِيَّة بالقَرافَة الصُّغْرى ورِباطِ الآثار الواقع خارِج مَدينَة مِصْـر على النِّيل.

وكانت خِزَانَةُ الكُتُب تَحْتَلُّ مَكانًا رَئِيسًا كجزءٍ لا يتجزَّأ من المَدْرَسَة المَمْلُوكِية، فهي ليست قائمةً بذاتها في مبنًى مُسْتَقِلّ أو مُلْحَقٍ بالمَدْرَسَة، بل تُوجَدُ ضمن عِمارَة المَدْرَسَة نفسها في مَكانٍ مُتَوَسِّطٍ ومُناسِبٍ من البِنَاء كُلِّه بين الإيوانات الأَرْبَعَة التي كانت بها مَساكِنُ الطَّلَبَة لِيَسْهُل الوُصُولُ إليها

وليكون مَوْقِعُها وَظِيفِيًّا، وغالِبًا ما تكون خِزَانَةُ الكُتُب في إيوانِ القِبْلَة بالذَّات أو مُلْحَقَة بقُبَّةِ المَدْفَن، وذلك حتى تكون كُتُبُها في مُتناوَل الجميع من العُلَماء والطَّلَبة والدَّارِسِين في مختلف الإيوانات؛ فكانت دائمًا قريبةً من مَساكِن الطَّلَبَة بها وفي مَكانٍ مُرْتَفِع عن أرْضيَّة الشَّارع وبعيدة في الوَقْت نفسه عن دَوْراتِ المياه والرُّطُوبَة، لذلك كان إيوانُ القِبْلَة الذي به المِحْرابُ أو قُبَّةُ المَدْفَنِ خَلْفَه هو أَنْسَبُ مَكانٍ لها.

التَّارِيخُ العُمْرَاني

القَاهِرَةُ في القَرْنِ الثَّامِن الهجري/ الرَّابع عَشَر الميلادِي

جاءَ أكبرُ نُمُوٌ مَلْحُوظٍ للقاهِرَة المَمْلُوكِيَّة أثْناء السَّلْطَنَة الثَّالِثَة للنَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤١م)، التي تُعَدُّ نُقْطَة تَحَوُّلٍ مُهِمَّةٍ في تارِيخ المَدِينَة[1]. وتَرَكَّزَ هذا النُّمُوُ في الأساس خارِج بابِ زَوِيلَة جَنُوبي القاهِرَة الفاطِمِيَّة وفي المنطقة الواقِعَة أسْفَل قَلْعَةِ الجَبَل حيث عَمَّرَ الأُمَرَاءُ المَماليكُ العَدِيدَ من المُنْشآت الجَدِيدَة في هذه المنطقة بِناءً على طَلَبِ السُّلْطَان، وتَضَمَّنَ ذلك ـ إضَافَةً إلى الدُّور والقُصُور ـ بِناءَ عَدَدٍ من المَسَاجِد الجامِعَة الضَّخْمَة. فحتَّى نحو سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م كان الرأيُ الذي يَرَى إلْقَاءَ خُطْبَةِ الجُمُعَة في جامِعٍ واحِدٍ في المَدِينَة (وهو ما يراهُ المَذْهَبُ الشَّافِعِي الذي أَخَذَ به الأيُّوبِيُّون) مأخُوذًا به بطَرِيقَةٍ أو بأُخْرى. فكان بالقَاهِرَة: الجامِعُ الأزْهَر في قِسْمِها الجَنُوبي، وجامِعُ الحاكِم في قِسْمِها الشَّمالي، وكان بالفُسْطَاط جامِعُ عَمْرو، وجَدَّدَ السُّلْطانُ المَنْصُور لاجِين جامِعَ ابن

---

(1) راجع AL-HARITHY, H., «The Patronage of al-Nasir Muhammad ibn Qalawun, 1310-1341», *MSR* IV (2000), pp.219-236.

طُولُون سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م لخِدْمَة المَنْطِقَة الواقعة جنوبي بابِ زَوِيلَة، وكان لقَلْعَةِ الجَبَل جامِعُها الخاصّ بها الذي بَناهُ النَّاصِرُ محمَّد بن قَلاوُون سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، كما كان بالحُسَيْنِيَّة خارج باب الفُتُوح الجامِعُ الذي بَناهُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م. ولكن بين سنتي ٧٣٠هـ/١٣٢٩م و٧٤٠هـ/١٣٤٠م تَمَّ تَشْييدُ أرْبَعَةَ مَساجِدَ جامِعَة جَدِيدَة بين بابِ زَوِيلَة وقَلْعَةِ الجَبَل: جامِعُ أُلْماس الحاجِب بشارِع الحِلْمِيَّة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، وجامِعُ قُوصُون بشارِع القَلْعَة (محمَّد علي سابقًا) (٧٣٠هـ/١٣٣٠م)، وجامِعُ بَشْتاك بشارِع دَرْبِ الجَماميز (٧٣٦هـ/١٣٣٦م)، وجامِعُ أَلْطُنْبُغا المارْدِيني بشارِع التَّبَانَة (٧٣٩هـ/١٣٤٠م) أضْخَم هذه الجَوامِع وأفْخَمها، وذلك إضَافَةً إلى العَدِيدِ من الجَوامِع والمَدارِس التي شُيِّدَت في مَواضِعَ أخرى من المَدِينَة مثل: مَدْرَسَة مُغُلْطاي الجَمالي بالجَمالِيَّة (٧٣٠هـ/١٣٢٩م)، وجامِع الخَطِيري ببُولاق (٧٣٧هـ/١٣٣٧م)، وجامِع السِّتّ حَدَق (مِسْكَة) في غَرْبِ الخَلِيج عند مَدْخَلِ شارِع مَجْلِسِ الشَّعْب الآن (٧٤٠هـ/١٣٣٩م)[1].

وأكْمَلَ النَّاصِرُ محمَّد خِلالَ فَتْرَة سَلْطَنَتِه الثَّانِيَة المَدْرَسَة التي بَدَأ بتَشْيِيدِها أخُوه السُّلْطان الأشْرَف خَلِيل ثم السُّلْطان العادِل كَتْبُغا مُلاصِقَةً

---

[1] راجع لتفاصيل أكثر شاهنده فهمي كريم: جوامع ومساجد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، رسالة دكتوراه بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٧م.

للمَجْموعَة التي أنْشأها والِدهُما المَنْصُور قَلاوون بيَنْ القَصْرَيْن، حيث أَتَمَّ بَقِيَّة إيوانات المَدْرَسَة والمِئْذَنَة والمَدْخَل الرُّخامِيّ ـ الذي كان في الأَصْل أحَدَ أبْواب كَنائِس مَدِينَة عَكًّا استولت عليه جُيوشُ المَمالِيك بعد أنْ وَضَعَت نِهايَةً للوُجُود الصَّلِيبِي في سَواحِل بِلاد الشَّام سنة ٦٩٢هـ/١٢٩١م ـ وهو بالتَّالي مَدْخَلٌ مُتَفَرِّدٌ بين مَداخِل المَدارِس المَمْلُوكِيَّة في القاهِرَة[١]. وأنْشأ الأمِيرُ بَيْبَرْس الجاشَنْكِير الخانْقاه المعْروفة به في الجَمالِيَّة أمامَ الدَّرْبِ الأصْفَر سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٧م وافْتَتَحها سنة ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م أثْناء فَتْرَة سَلْطَنَتِه القَصِيرَة. كما أنْشأ الأمِير سِنْجِر الجاوْلي، في العام نفسه، مَدْرَسَةً بجوار دارِه جنوبي الجامِع الطُّولُوني تشتملُ على قُبَّةٍ ضَرِيحِيَّة دُفِنَ فيها[٢].

وبعد وَفاةِ النَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م استمرَّ أُمَرَاؤه في التَّشْييد في هذه المنطقة التي أضْحَت منطقةَ الأرِسْتُقْراطِيَّة المَمْلُوكِيَّة. فبُنِيَت ثَلاثَةُ جَوامِعَ جَدِيدَة: جامِعُ أَصْلَم السِّلِحْدار البَهائي بدَرْبِ شُغْلان (٧٤٦هـ/١٣٤٥م)، وجامِعُ آق سُنْقُر النَّاصِري بشارِع بابِ الوَزِير (٧٤٧هـ/١٣٤٦م) الذي رَمَّمَه إبراهيم أغا مُسْتَحْفَظان سنة ١٠٦١هـ/ ١٦٥١م وأصبح يُعْرَفُ بالجامِع الأزْرَق، وجامِعُ شَيْخُو العُمَري بشارِع شَيْخُون بالصَّلِيبَة (٧٥٠هـ/١٣٤٩م).

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥٢٤-٥٣٠.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٧٣٢-٧٤٠، ٦٠٤-٦٠٦.

وأثَّرَ ازْدِهارُ المنطقة الجنوبية للقاهِرَة خارِج بابِ زَوِيلَة تأثِيرًا سَلْبِيًّا على نُمُوِّ المنطقة الشَّمالية خارِج بابِ الفُتُوح حيث «الحَـارَة الحُسَيْنِيَّة»، وعلى الأخَصّ في أعْقَابِ «المَوْت الأسْوَد» أو «الفَنَاء الكبير» الذي اجْتاحَ شُعُوبَ البحر المُتَوَسِّط بدءً من سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٨م، حيث هُجِرَت هذه المنطقة ثم خَرِبَت نهائيًّا ونُقِضَت مَبانِيها في أعْقَابِ مِحْنَة سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م. ومع ذلك فلم يُوقِف «الفَنَاءُ الكَبير» حَرَكَة التَّشْييد والإعْمار خارِجَ بابِ زَوِيلَة، فتَمَّ بِناءُ جامِع شَيْخُو في هذه الفترة، ودار صَرْغَتْمُش بمنطقة بِئْر الوَطاوِيط (٧٥٣هـ/١٣٥٣م)، وقَصْر الأمير طَاز بشارِع السُّيُوفِيَّة (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)، وقُبَّة وخانْقاه شَيْخو (٧٥٧هـ/١٣٥٦م) في مُواجَهَة جامِعِه بشارِع شَيْخُون، ومَدْرَسَة صَرْغَتْمُش بجوار جامِع ابن طُولون (٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م)؛ غير أنَّ أهَمَّ هذه المُنْشآت على الإطْلاق هي جامِعُ ومَدْرَسَةُ السُّلْطَان حَسَن بمَيْدان الرُّمَيْلَة تحت القَلْعَة (٧٥٧-٧٦٤هـ/ ١٣٥٦-١٣٦٣م) أحَد أعْظم الجَوامِع والمَدارِس الإسْلامِيَّة والذي تَكَلَّفَ بِناؤه أكثر من عشرين مليون درهمًا، الأمْر الذي يَجْعَل منه أكثر مُنْشآت القَاهِرَة تَكْلِفَةً على الإطْلاق[1]، والذي هُدِمَ من أجْلِ بِنائِه اثْنان من أفْخَم قُصُورِ القَاهِرَة المَمْلُوكِيَّة: «قَصْر يَلْبُغا اليَحْياوِي» و«قَصْر أَلْطُنْبُغا المارْدِيني»[2].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٧٠.

(٢) المصدر نفسه ٣: ٢٣٣، ٢٣٥.

ولا يَدُلُّ تَشْييدُ هذه الجَوامِعِ والمَدارِس على أنَّها ـ كما قد يَتَبَادَر إلى الذِّهْن ـ قد بُنِيَت تَلْبِيَةً لزيادَةٍ سُكَّانِيَّةٍ، فعلى العَكْسِ من ذلك تمامًا فإنَّ عَدَدَ سُكَّانِ مِصْر قد انْخَفَضَ في هذه الفترة نتيجةً للفَنَاء الكبير أو المَوْت الأسْوَد، ولكن كَثْرَةَ عَدَدِ الوَفَيات أدَّت إلى زِيادَة حَصِيلَة ضَرائِب المَوارِيث والمَوارِيث الحَشْرِيَّة، ممَّا سَمَحَ للحُكَّام وكِبارِ الأُمَرَاء بتَنْفيذ سِياسَةٍ إنْشائِيَّةٍ طَمُوحَة.

وأدَّى حَفْرُ «الخَلِيج النَّاصِري» سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م في غَرْبِي القَاهِرَة، حيث كان يستمدّ ماءَه من النِّيل في مُواجَهَةِ الحَدِّ الشَّمالي لجَزِيرَة الرَّوْضَة ويسير مُوازِيًا للخَلِيج المِصْرِي إلى أنْ يلتقي به شَمالي جامِع الظَّاهِر بَيْبَرْس عند بِرْكَة الرَّطْلي[1]، أدَّى إلى حَكْرِ العَدِيدِ من الأراضي الواقِعَة بين الخَلِيجَيْن، وبين الخَلِيج النَّاصِري والنِّيل، ومَنْحِها للأُمَرَاء الذين أقامُوا عليها العَدِيدَ من المَباني التي صارَت نَواةً لعُمْرانِ هذه المنطقة الذي تَمَّ بصُورَةٍ واضِحَةٍ في العَصْرِ العُثْماني؛ يقولُ المَقْرِيزِيُّ: «فأنافَت الأحْكارُ التي اسْتُجِدَّت في أيَّامِه ـ أي النَّاصِر محمَّد بن قَلاوُون ـ على سِتِّين حِكْرًا، حتى لم يُوجَد مَوْضِعٌ يُحْكَر»[2].

ونَمَّا النَّاصِرُ محمَّد كذلك ضَفَّةَ النِّيل الواقِعَة بين فُسْطَاطِ مِصْر جَنُوبًا وبُولاق شَمالًا، فأنْشَأ الجَامِعَ الجَديد شَمالي الفُسْطَاط[3]، وأنْشَأ دارَ وَكالَة

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٥٤٠-٥٤١.

(٢) المقريزي: السلوك ٢: ٥٤٣.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٠٦-٢٠٧.

ورَبْعَيْن كبيرين في المنطقة التي عُرِفَت بزَرْبِيَّة السُّلْطَان (حَيّ النَّاصِرِيَّة الآن)[1]، وأضافَ إليها الأمِيرُ بَكْتَمُر السَّاقي حَمَّامَيْن، وبَنَى الأمِيرُ عَلاءُ الدِّين طَيْبَرْس الخازِنْدار جامِعًا وخانْقاهًا في أرْضِ بُسْتانِ الخَشَّاب (المَنْطِقَة الواقعة بين القَصْر العَيْني وشارِع بورسَعِيد بحَيّ المُنِيرَة)[2] ؛ ونَشَأ كذلك حَيٌّ آخَر مُماثِلٌ على يَسار المَيْدان الظَّاهِري (مَيْدان الفلَكي الآن) ، هو المَنْطِقَةُ التي عُرِفَت بزَرْبِيَّة قُوصُون[3] ، اشْتَمَلَ على جَوامِعَ ومَدارِسَ ومَناظِرَ مُطِلَّة على النِّيل وأسْواق على طُولِ شاطىء النِّيل بالقُرْبِ من بُولاق، هُجِرَ أغْلَبُها أو تَهَدَّمَ في أعْقابِ مِحْنَة سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م.

وكان إعْمارُ مَنْطِقَة بُولاق قد بدأ منذ عام ٧١٣هـ/١٣١٣م، فعَمَّرَ النَّاسُ بها دُورًا على النِّيل، كما امْتَدَّت المَناظِرُ على النِّيل من هنالك وحتى جَزِيرَة الفِيل (شُبْرا الحالية)، وانْتَظَمَت العِمارَةُ على شاطىء النِّيل من مُنْيَة السِّيرِج شَمالًا إلى مَوْرَدَة الحَلْفاء جَنُوبًا بجوار الجامِع النَّاصِري الجَدِيد خارِج فُسْطاط مِصْر، ومن حافَّة الخَلِيج المِصْري الغربية تِجاه الخَنْدَق بَحْري القَاهِرَة (منطقة الدِّمِرْداش الآن) إلى مُنْشأة المَهْراني جَنوبًا (جنوبي شارع القَصْر العَيْني الآن)[4] ، وظَلَّت «هذه المَسَافَةُ العظيمةُ كُلُّها بَساتِينَ وأحْكارًا عامِرَةً

---

[1] المقريزي : المواعظ والاعتبار ٣: ٤٣٦.

[2] المصدر نفسه ٤: ٢٠٥.

[3] المصدر نفسه ٣: ٤٣٥.

[4] المصدر نفسه ٣: ٣٦٢.

بالدُّور والأسْواق والحَمَّامات والمَسَاجِد والجَوامِع ... وبَلَغَت بَساتِينُ جَزِيرَة الفِيل (ضاحِيَة شُبْرا شمالي القَاهِرَة الآن) خاصَّةً ما ينيفُ على مئة وخمسين بُسْتانًا بعدما كانت سنة إحدى عشرة وسبع مئة نحو العشرين بُسْتانًا»[١]، كما عَمَّرَ بها الأميرُ أيْدَمُر الخَطِيري في سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٦م جامِعًا ومَدْرسَةً شافِعِيَّةً لخِدْمَة السُّكَّان المُحِيطِين بها[٢].

ولكن علينا أنْ نُلاحِظَ أنَّ تَعْمِيرَ الأحْياء الواقعة في البَرِّ الغربي للخَلِيج لم يكن قد اكْتَمَلَ حتى في عَصْرِ النَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون، كما أنَّه تأثَّرَ تأثُّرًا سَلْبِيًّا بالأزَمات الاقْتِصَادِيَّة التي مَرَّت بها مِصْرُ والقَاهِرَةُ بين منتصف القرن الثَّامِن الهجري/ الرَّابِع عشر الميلادي ومَطْلَع القرن التَّاسِع الهجري/ الخامِس عَشَر الميلادي. ولم يَعُد إليه النَّشَاطُ إلَّا في نهاية هذا القرن بعد إنْشَاء الأمير أزْبَك من طُطُخ لحيّ الأزْبَكِيَّة، ثم نَمَت هذه الأحْيَاءُ في العَصْرِ العُثْماني وفي زَمَنِ الحَمْلَة الفِرنْسِيَّة حتى اسْتَقَرَّت على وَضْعِها الحالي مع المشروع الحَضَارِي الذي تَبَنَّاهُ في النِّصْف الثَّاني للقرن التَّاسِع عَشَر الخِدِيو إسْماعِيل باشا.

هكذا بَلَغَت القَاهِرَةُ في سَلْطَنَة النَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون الثَّالِثة ـ التي تُعَدُّ أكثر فَتَرات تارِيخ القَاهِرَة ازْدِهارًا وعلى الأخَصّ في مَجالِ العِمارَة ـ

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٤٣٢.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٢٥١-٢٥٣.

أبْعادًا غير مَسْبوقَة، وهو أمْرٌ لن يتكرَّر أيضًا بعد ذلك ـ باستثناء فَتْرَة سَلْطَنَة الاشْرَف قايتْباي في الرُّبْع الأخِير من القرن التَّاسِع الهجري/الخامِس عَشَر الميلادِي ـ إلَّا بعد تَوَلِّي الخِدِيو إسْماعِيل باشا عَرْشَ مِصْر سنة ١٨٦٣م، الذي يُعَدُّ أوَّلَ حاكِم منذ تسعة قُرُون يتبنَّى مَشْرُوعًا شامِلًا لتَنْمِيَة المَدِينَة، قامَ في الأساس على مُحاكاة الأُنْمُوذَج الغَرْبي لتنمية المُدُن.

وتَرْجِعُ سِياسَةُ التَّعْمِير التي سادَت في النِّصف الأوَّل للقرن الثَّامِن الهجري/ الرَّابع عشر الميلادي إلى شَخْصِيَّة النَّاصِر محمَّد بن قَلَاوُون نفسه والظُّرُوف التي أحاطَت به، حيث تَحَقَّقَ في فَتْرَةِ حُكْمِه سَلامٌ مُسْتَمِرٌ، وأعادَ رَوْكَ الأراضي الزِّراعية في مِصْر والشَّام، ممَّا ساعَدَ على زيادَة الإنْتاج الزِّراعِي وعلى الرَّخاء الاقْتِصادِي، كما أنَّ النَّاصِرَ محمَّد لم يكن مَمْلوكًا بل ابن سُلْطَانٍ، ولم يَصِل إلى الحُكْم من خِلال الجَيْش، وتَمَتَّعَ بشَعْبِيَّةٍ كبيرةٍ طَوال فترة سَلْطَنَته الثَّالثَة والتي استمرَّت واحدًا وثلاثين عامًا؛ يقولُ المَقْرِيزِي: «مَتَّعَه الله من الدُّنْيا بالسَّعادَة العَظِيمَة في المُدَّة الطَّوِيلَة مع كثرة الطُّمأْنِينَة والأمْن وسَعَة الأمْوال، واقْتَنى كُلَّ حَسَنٍ ومُسْتَحْسنٍ من الخَيْل والغِلْمان والجَواري، وساعَدَه الوَقْتُ في كُلِّ ما يُحِبُّ ويَخْتار إلى أنْ أتاهُ المَوْت»[1]. واقْتَدَى الأُمَرَاءُ والأعْيانُ وأثرياءُ التُّجَّار بالأُنْمُوذَج الذي قَدَمَّه السُّلْطانُ نفسه ببناء العَدِيدِ من الآثار الدِّينِيَّة وذات الطَّابع الاجْتماعي. يقولُ المَقْرِيزِيُّ أيْضًا:

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢١٣.

«فلمَّا كان سنة ثلاث عشرة وسبع مئة رَغِبَ النَّاسُ في العِمارَة بدِيارِ مِصْر لشَغَفِ السُّلْطان الملك النَّاصِر بها ومُوَاظَبَتِه عليها، فكأنَّما نُودِيَ في القَاهِرَة ومِصْر أنْ لا يَتَأَخَّر أَحَدٌ من النَّاسِ عن إنْشَاء عِمارَة، وجَدَّ الأُمَرَاءُ والجُنْدُ والكُتَّابُ والتُّجَّارُ والعَامَّةُ في البِناء»[1]. وأضافَ في «السُّلُوك»: «وكان يُحِبُّ العِمارَة، فلم يَزَلْ من حين قَدِمَ من الكَرَك إلى أنْ ماتَ مستمرّ العِمارَة، فجاءَ تَقْديرُ مَصْرُوفِه في كلِّ يومٍ مُدَّة هذه السِّنين ثمانية آلاف دِرْهَم». «وكان يُنْفِقُ على العِمارَة المئة ألْف دِرْهَم، فإذا رأى فيها ما لا يعجبه هَدَمَها كلَّها وجَدَّدَها على ما يختار، ولم يكن مَنْ قَبْلَه من الملوك في الإنْفاقِ على العِمارَة كذلك... فكانوا لا يَسْمَحون بالمال، وإنَّما يَدَّخِرُونَه صِيانَةً وخَوْفًا»[2]؛ فعندما شَرَعَ الأميرُ رُكْنُ الدِّين بَيْسَري الشَّمْسِي الصَّالِحِي في بناء الدَّار البَيْسَرِيَّة بخُطِّ بَيْن القَصْرَيْن، سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١م، «تأنَّقَ في عِمارتِها وبالَغَ في كثرة المَصْرُوف عليها فأنْكَرَ الملكُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس ذلك من فِعْلِه». وقال في مَوْضِعٍ آخر: «وأكثر السُّلْطانُ من العَمائِر ووَلَّى آقْسُنْقُر أميرآخور شادّ العَمائِر، وأحْضَرَ العَتَّالين من سائِر البلاد الشَّامِيَّة، وأفْرَدَ للعَمائِر دِيوانًا بَلَغَ مَصْرُوفُه في كلِّ يومٍ اثني عشر ألْف دِرْهَم إلى ثمانية آلاف، وهي أقلّ ما كان يُصْرَفُ في اليوم الواحِد... فامْتَدَّت أيْدِي النَّاس إلى العِمارَة، وكأنَّما

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٣: ٤٣٢.

[2] المقريزي: السلوك ٢: ٥٣٧.

نُودِيَ في النَّاس ألَّا يبقى أحَدٌ حتى يُعَمِّر، وذلك أنَّ النَّاسَ على دِينِ مَلِكِهم»[١].

وقد أوْرَدَ كُلٌّ من ابن أيْبَك الدَّواداري والمَقْرِيزِي وأبي المَحَاسِن يُوسُف بن تَغْري بِرْدِي وابن إياس، قائِمَةً مُفَصَّلَةً بما أُنْشِئ في عَصْرِ النَّاصِر محمَّد من مُنْشآتٍ سَواء قامَ بها هو أو أُمَرَاؤه[٢]. ويرى ديفيد آيلون D. AYALON أنَّ النَّفَقات الباهِظَة التي أُنْفِقَت على حَرَكَةِ البِناء والتَّعْمِير في زَمَنِ النَّاصِر محمد كانت أحَدَ الأسْباب التي ساهَمَت في تَدَهْوُر المَدِينَة في العُقُود التَّالِيَة[٣]!

القَاهِرَةُ في القَرْنِ التَّاسِع الهِجْرِي/ الخامِس عَشَر الميلادِي

لم تكن مَدِينَةُ القَاهِرَة في القَرْنِ التَّاسِع الهجري/الخامِس عَشَر الميلادي مَدِينَةً مُحَصَّنَةً، فقد اخْتَفَى السُّورُ الفاطِمي وَسَطَ أحْياء المَدِينَة المَمْلُوكِيَّة،

---

(١) المقريزي: السلوك ٢: ١٣٠، ١٣١.

(٢) ابن أيبك الدواداري: كنز الدرر ٩: ٣٨٨-٣٩٠؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢١٤-٢٥٥ والسلوك ٢: ٥٣٧-٥٤٥ (محمد مصطفى زيادة: «حركة البناء والتعمير في عصر الناصر محمد من كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي»، المجلة التاريخية المصرية ٩-١٠ (١٩٦٢)، ٢٤١-٢٥٠)؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٩: ١٧٨-٢١٠ (عبد الرحمن زكي: «آثار مصر والقاهرة في النجوم الزاهرة» في كتاب المؤرخ ابن تغري بردي، القاهرة ١٩٧٤م، ١٦٥-١٨٠؛ ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ١: ٤٨٥-٤٨٦.

(٣) D. AYALON, «The Expansion and Decline of Cairo under the Mamluks and its Background» in *Itineraires d'Orient - Hommages à Claude Cahen, Res Orientales* IV (1994), pp.13-19.

كما أنَّ القَصَــبَةَ أو الشَّارِعَ الأَعْظَم لم تكن الشُّرْيانَ التِّجارِي للمَدِينَة فحَسْب، وإنَّما المَكانُ الذي كانت تَتِمُّ فيه كذلك الاحْتِفالاتُ المَوْكِبِيَّة والتي كان يَظْهَرُ فيها السَّلاطِينُ للشَّعْب، وهي تُعِيدُ إلى الأذْهان المِـيراثَ الفاطِمِيّ الذي كان يمكن إدْراكُه حتى هذا الوَقْت. وكما كان الشَّارِعُ الأعْظَمُ هو المركزُ السِّياسي والرُّوحِي للقاهِرَة الفاطِمِيَّة، فقد أصْبَحَ في العَصْرِ المَـمْلُوكِي أشْبَه بمَدِينَةٍ جامِعِيَّةٍ؛ فعلى طُولِ القَصَــبَة ـ وعلى الأخَصِّ في منطقة بَيْن القَصْـرَيْن ـ كانت تُوجَدُ سِلْسِلَةٌ من المَدارِس: دارُ الحَدِيث الكامِلِيَّة (٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، والمَدارِسُ الصَّالِحِيَّة النَّجْمِيَّة (٦٤١هـ/١٢٤٣م)، والمَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّة بَيْبَرْس (٦٦٠-٦٦٢هـ/١٢٦٢-١٢٦٣م)، وقُبَّةُ ومَدْرَسَة المَنْصُور قَلَاوُون (٦٨٣-٦٨٤هـ/١٢٨٤-١٢٨٥م)، والمَدْرَسَةُ النَّاصِرِيَّة محمَّد بن قَلَاوُون (٦٩٥-٧٠٣هـ/١٢٩٥-١٣٠٤م)، والمَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّة بَرْقُوق (٧٨٦-٧٨٨هـ/١٣٨٤-١٣٨٦م)، والمَدْرَسَةُ الأشْرَفِيَّة بَرْسِباي (٨٢٩هـ/١٤٢٥م)، وإلى الجنوب قَلِيلًا كان يُوجَدُ آخِرُ جَوامِع دَوْلَة المَماليك الشَّراكِسَة: جامِعُ الأشْرَف قانْصُوه الغُورِي وتجاهه مَدْرَسَةٌ وَقُبَّةٌ وسَبِيلٌ وكُتَّاب (٩٠٩-٩١٠هـ/١٥٠٤-١٥٠٥م)، ثم جامِعُ ومَدْرَسَةُ المُـؤَيَّد شَيْخ المَحْمُودي (٨١٨-٨٢٣هـ/١٤١٥-١٤٢٠م) بجوار باب زَوِيلَة جنوبي المَدِينَـة الفاطِمِيَّة.

وعلى جانبي القَصَــبَة في شَوارِع مُوازِيَة لها كان يُوجَدُ أيضًا عَدَدٌ كبيرٌ من المُـنْشآت الدِّينِيَّة: خانْقاه بَيْبَرْس الجاشَنْكِير (٧٠٦-٧٠٩هـ/

١٣٠٦-١٣١٠م) والمَدْرَسَةُ القراسُنْقُرِيَّة (٧٠٠هـ/١٣٠٠م) مُلاصِقَةً له إلى الجنوب منه بشَارِع الجَماليَّة، وجامِعُ سابِق الدِّين مِثْقال (٧٦٣هـ/ ١٣٦١م) بدَرْب قِرْمِز، ومَدْرَسَةُ جَمال الدِّين يُوسُف الأُسْتادَّار (٨١١هـ/ ١٤٠٨م) بشارِع التُّمْبَكْشِيَّة، وجامِعُ أبي بكر بن مُزْهِر (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) بحَارَة بَرْجَوان. وكان مَجْلِسُ القاضي يُعْقَدُ في بَيْن القَصْرَيْن في المَدارِس الصَّالِحيَّة النَّجْمِيَّة، كما كان يُوجَدُ المارِسْتانُ المَنْصُوري، مَرْكز مِصْر الطِّبِي في العَصْرِ الإسْلامِي والذي ظَـلَّ يُؤَدِّي دَوْرَه حتى القرن التَّاسِع عَشَر الميلادي.

وإضَافَةً إلى الجَوامِع والقُصُورِ التي أُنْشِئَت على الأخَصّ في فَتْرَة سَلْطَنَة النَّاصِر محمَّد بن قَلاوُون الثَّالِثَة حَوْل القَلْعَة وخارِج باب زَوِيلَة، تَمَّ تَشْييدُ عَدَدٍ آخر من الجَوامِع والمَدارِس منها : مَدْرَسَةُ أمّ السُّلْطان شَعْبان (٧٧٠هـ/ ١٣٦٩م) بشارِع باب الوَزير، ومَدْرَسَةُ الأشْرَف شَعْبان (٧٧٧هـ/١٣٧٦م) على الصُّوَّة مُقابِل باب القَلْعَة، وجامِعُ أيْتَمُش البِجاسِي (٧٨٥هـ/١٣٨٣م) بشارِع بابِ الوَزير، والمَدْرَسَة الظَّاهِرِيَّة الجَدِيدَة بين القَصْرَيْن (٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م)، والمَدْرَسَة المُؤَيَّدِيَّة داخِل باب زَوِيلَة (٨١٨هـ/ ١٤١٦م)، ومَدْرَسَة الأشْرَف بَرْسِباي بخُطّ العَنْبَرَنِيين (٨٢٩هـ/١٤٢٥م)، وأخِيرًا مَدْرَسَة وقُبَة الأشْرَف قانْصُوه الغُورِي بخُطّ الشَّرابِشِيين (٩٠٨هـ/ ١٥٠٤م) ؛ بحيث أصْبَح القِسْمُ الأكبر من الآثار التَّارِيخية لمِصْر الإسْلامِية مُرَكَّزًا داخِل حُدُودِ القَاهِرَة المَمْلُوكِيَّة التي يَدُلُّ عليها الآن مَناطِقُ الجَمالِيَّة

والدَّرْب الأحْمَر والخَلِيفَة حتى صَلِيبَة ابن طُولُون جَنُوبًا، وكَمُّ التُّراثِ المَمْلُوكِي بينها هائِلٌ وعَظِيمٌ.

وقُرْبَ نِهايَة القَرْنِ التَّاسِع الهجري/الخامس عَشَر الميلادي تَمَّ تَنْفِيذُ مَشْرُوعٍ عُمْراني كبير على بُعْدِ نحو ٥٠٠ مترًا غَرْبِيّ الخَلِيج حيث قام المُقِرّ الأتابِكي أَزْبَك مِنْ طُطُخ الظَّاهِري بتَعْمِير مَنْطِقَة الأزْبَكِيَّة التي نُسِبَت إليه. وبَدَأت هذه الأعْمالُ نحو سنة ٨٨٠هـ/١٤٧٦م واسْتَمَرَّت حتَّى عام ٨٨٨هـ/١٤٨٤م وتَضَمَّنَت حَفْرَ البِرْكَة التي عُرِفَت بالأزْبَكِيَّة وأجرى إليها الماءَ من الخَلِيج النَّاصِرِي ثم شَرَعَ النَّاسُ في بِناء القُصُورِ والدُّورِ حَوْلَ البِرْكَة وأخَذَت العِمارَةُ تتزايَدُ في المَنْطِقَة حتَّى صارَت كما يقولُ ابن إياس: «مَدِينَةً على انْفِرادِها». وأنْشأ أزْبَك على الضَّفَّة اليُمْنَى للمَنْطِقَة جامِعَهُ الكَبير المنسوب إليه «جامِع أزْبَك» (الذي أُزِيلَ عام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م في المشروع الحَضارِي الكبير الذي تَبَنَّاه الخِدِيو إسْماعِيل باشا لتَطْوِير مَيْدان الأزْبَكِيَّة وبناء دار الأوبرا) وأقامَ حَوْلَه الرِّباعَ والطَّواحِين والحَمَامات والقَياسِر والأفْران وغير ذلك من المَنافِع. واسْتَثْمَرَ أزْبَك في هذا المشروع، كما يقولُ ابن إياس، مِئَتَيّ أَلْف دِينار، وهو مَبْلَغٌ هائِلٌ يَتَناسَبُ مع قُوَّةِ ونُفُوذِ الأمِير ووَفْرَة إمْكاناتِه المالِيَّة[1].

---

[1] راجع ابن إياس: بدائع الزهور ٣: ١١٧-١١٨؛ ١٣٤؛ - D. Behrens Abouseif, *Azbakiyya and its Environs from Azbak to Ismail 1476-1879,* Supplement aux Annalles Islamologiques n. 6, Le Caire - IFAO 1995.

وبفَضْلِ الشَّواهِد القَلِيلَة التي بَقِيَت من عَمائِر القرنين الثَّامِن والتَّاسِع للهجرة/ الرَّابع عَشَر والخامِس عَشَر للميلاد، نستطيعُ أنْ نَتَخَيَّلَ شَكْلَ القَاهِرَة في هذا العَصْر، وهي تَذْخَرُ بهذا الكَمِّ من الجَوامِع والمَدارِس والخَوانِق والدُّور والقُصُور والقَياسِر والوَكالات والرِّباع والحَمَّامات التي زالَ القِسْمُ الأكبر منها الآن[1].

---

[1] راجع لتفاصيل أكثر أيمن فؤاد سيد: القاهرة خِطَطُها وتَطَوُّرُها العُمْراني، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨م؛ D. BEHRENS ABOUSEIF, *Cairo of the Mamluks: A History of the Architecture and its Culture,* Cairo - AUC 2007.

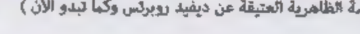


The Mousqe of al Zahir Baybars out of Bab al Futuh

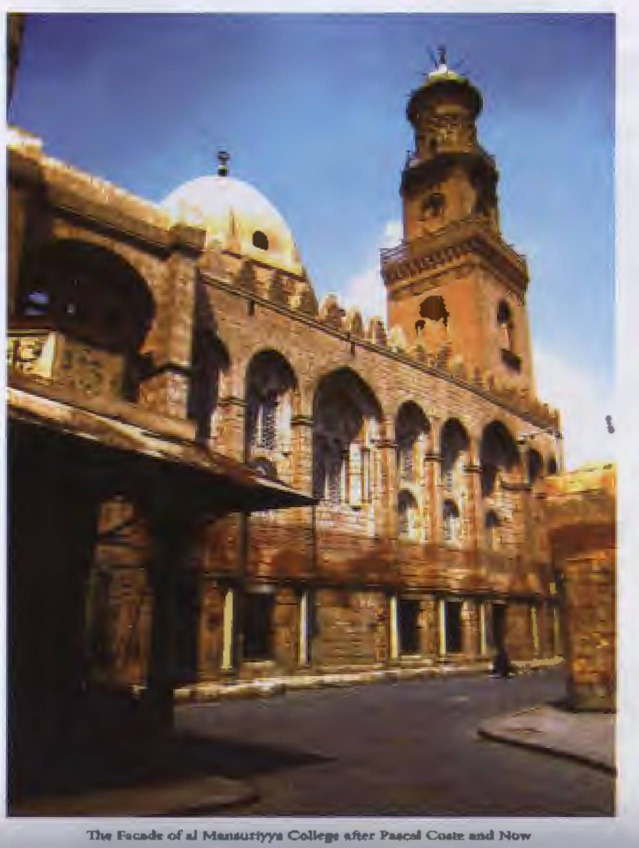
جامع الظاهر بيبرس خارج باب الفتوح







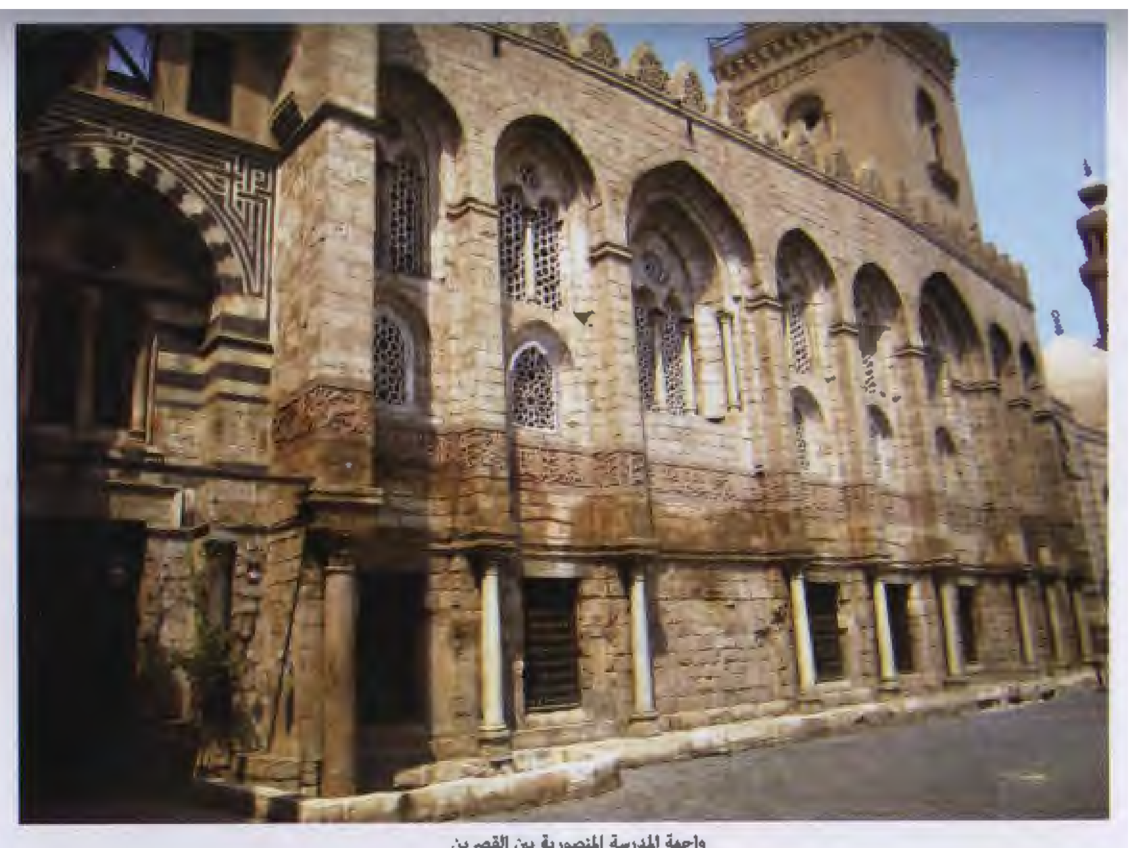
The Ancient al Zahiryya College at Bayn al Qasrayn (David Roberts) and Now (المدرسة الظاهرية العتيقة عن ديفيد روبرتس وكما تبدو الآن)



The Facade of al Mansuriyya College after Pascal Coste and Now



واجهة المدرسة المنصورية عن باسكال كوست وكما تبدو الآن



واجهة المدرسة المنصورية بين القصرين

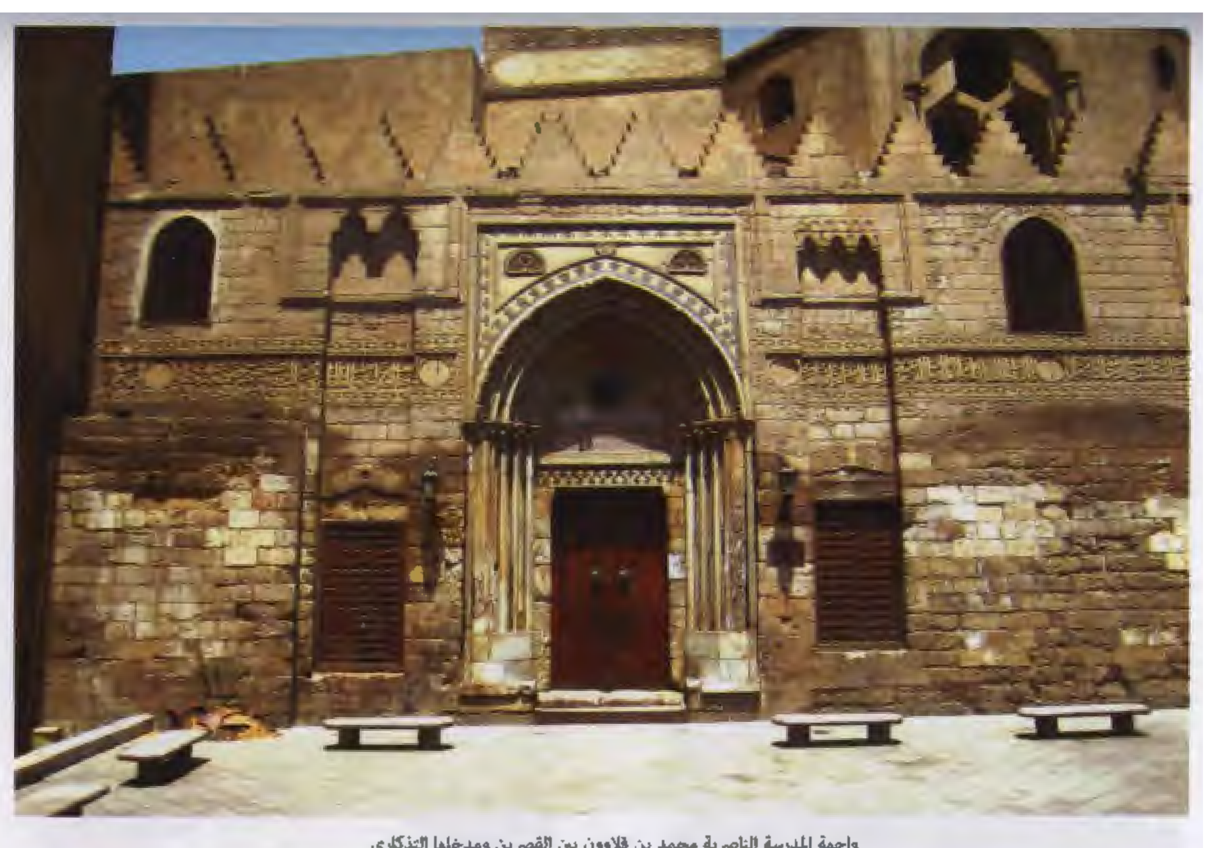
The Facade of al Mansuriyya College at Bayn al Qasrayn





محراب القبة المنصورية

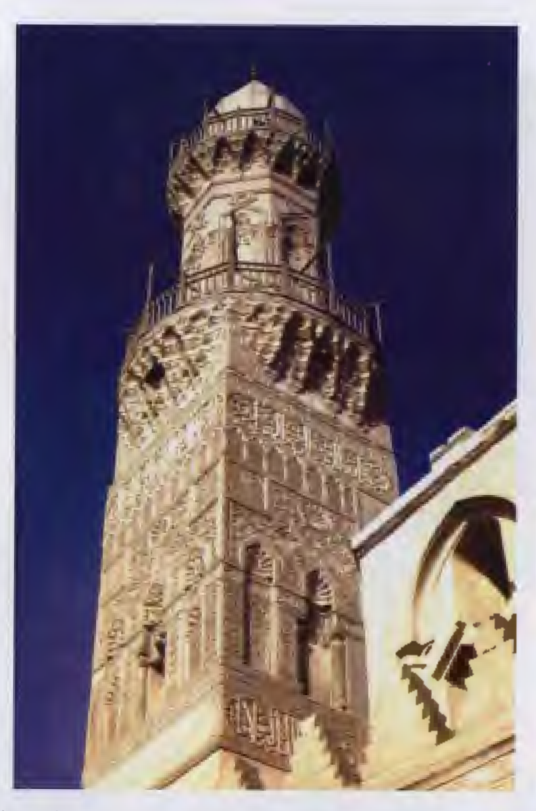
The Mihrab of al Mansuriyya Dome



واجهة المدرسة الناصرية محمد بن قلاوون بين القصرين ومدخلها التذكاري

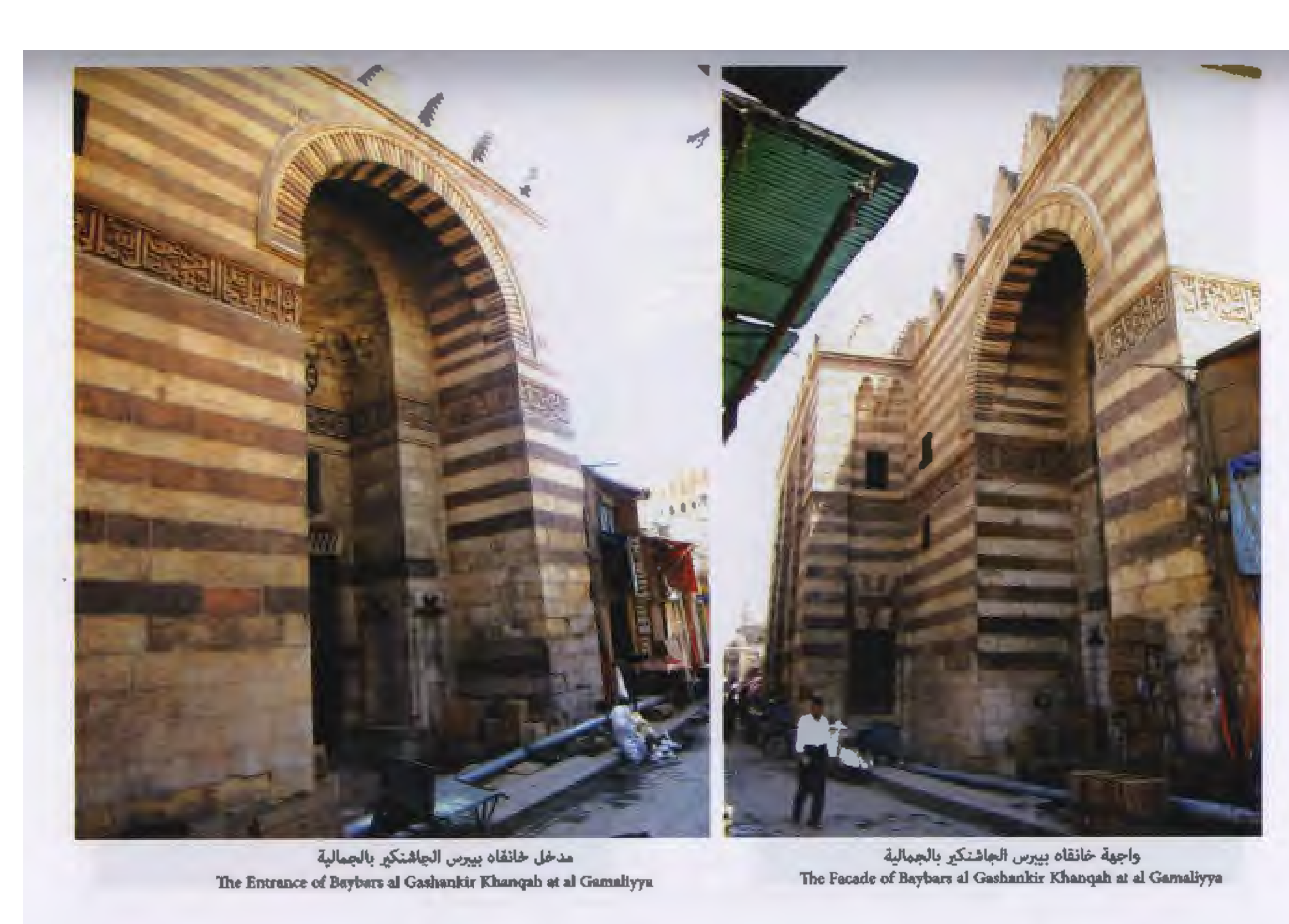
The Facade and The Monumental Entrance of al Nasiriyya Muh. b. Qalawun College





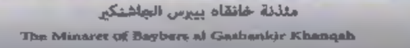
تفاصيل مئذنة المدرسة الناصرية محمد بن قلاوون

Details of the Minaret of al Nasiriyya Muh. b. Qalawun College



مدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية
The Entrance of Baybars al Gashankir Khanqah at al Gamaliyya

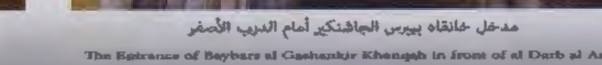
واجهة خانقاه بيبرس الجاشنكير بالجمالية
The Facade of Baybars al Gashankir Khanqah at al Gamaliyya



مئذنة خانقاه بيبرس الجاشنكير

The Minaret of Baybars al Gashankir Khanqah





مدخل خانقاه بيبرس الجاشنكير أمام الدرب الأصفر

The Entrance of Baybars al Gashankir Khanqah in front of al Darb al Asfar



المدخل التذكاري لجامع شيخون بالصّليبة

The Entrance of Shikhon Mousqe at al Saliba

واجهة جامع شيخون بالصّليبة

The Facade of Shikhu n Mousqe at al Saliba



تفاصيل المدخل التذكاري للخانقاه جامع الشيخونية بالصّليبة

Details of the Entrance of al Shikhuniyya Khanqah



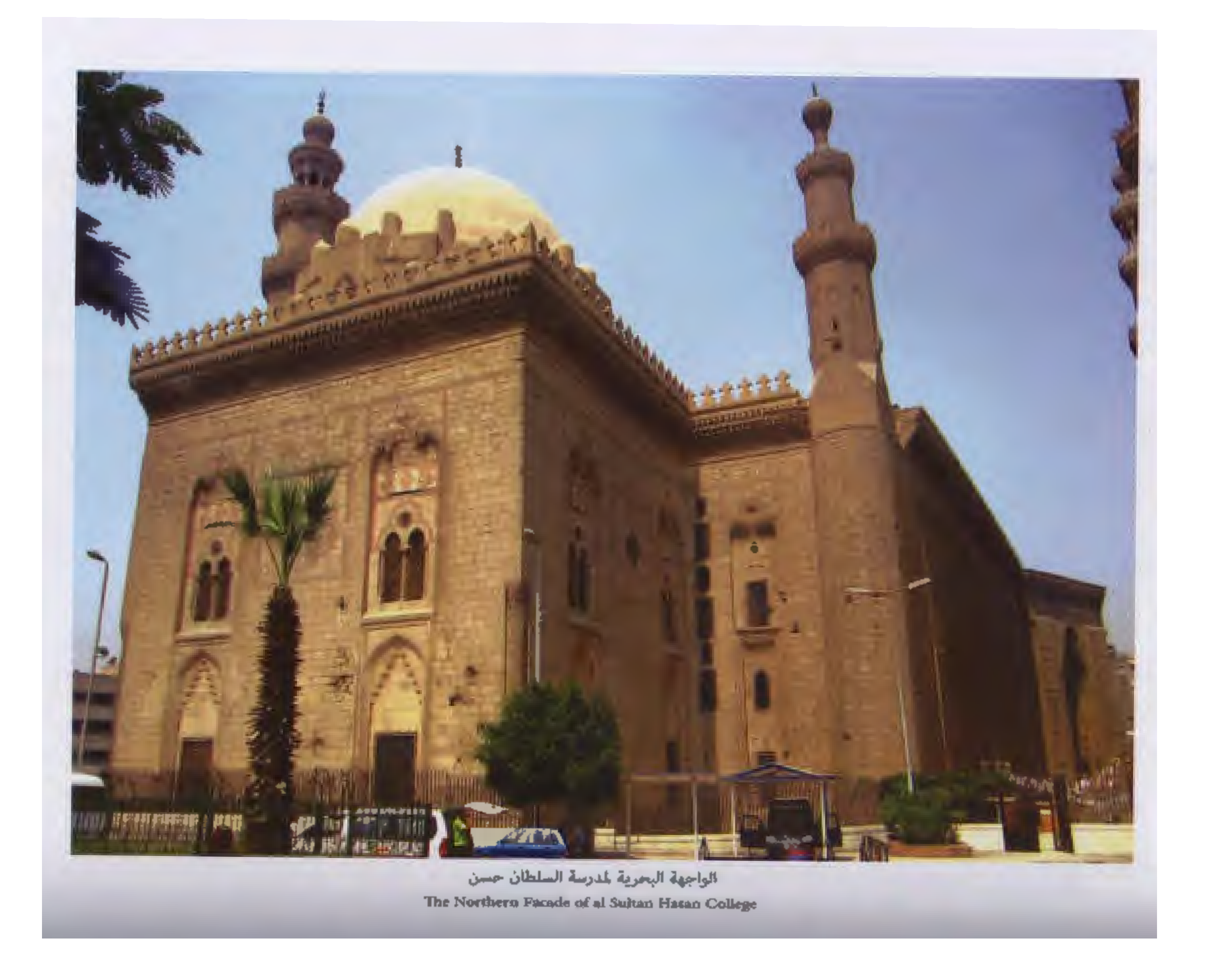
المدخل التذكاري لخانقاه جامع الشيخونية بالصّليبة

The Entrance of al Shikhuniyya Khanqah at al Saliba



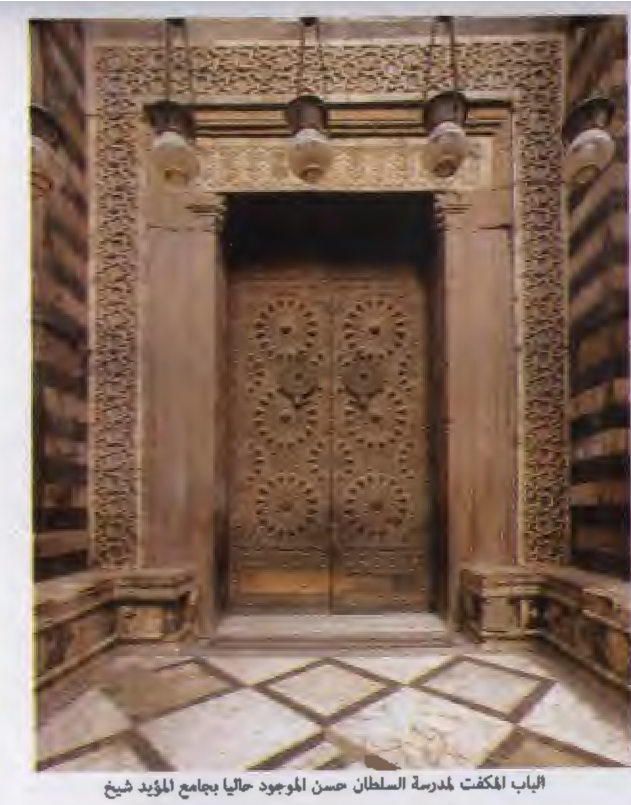
The College of al Sultan Hasan at al Rumayla Square

مدرسة السلطان حسن بميدان الرميلة كما تبدو الآن



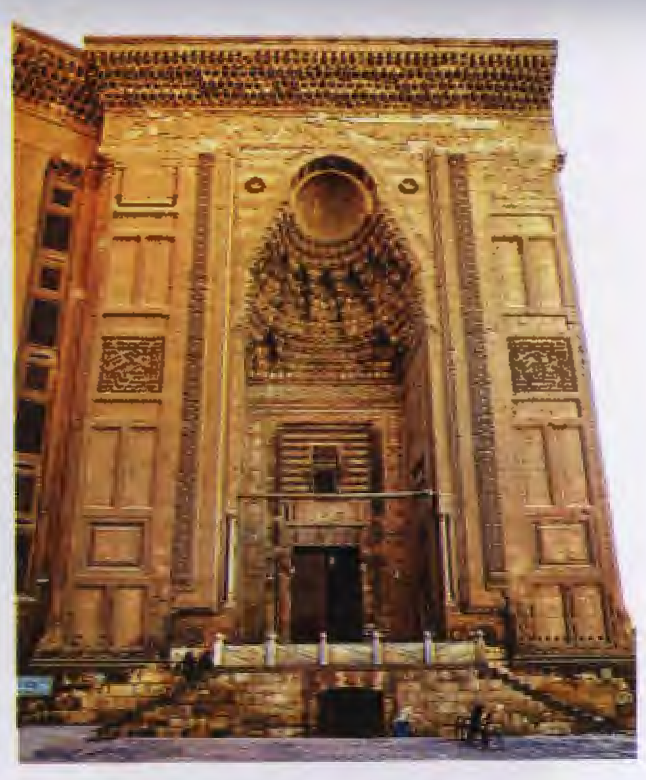
الواجهة البحرية لمدرسة السلطان حسن

The Northern Facade of al Sultan Hasan College



الباب المكفت لمدرسة السلطان حسن الموجود حاليا بجامع المؤيد شيخ

The Door of the College actualy at al Mu'ayyad



المدخل التذكاري لمدرسة السلطان حسن

The Entrance of al Sultan Hasan College



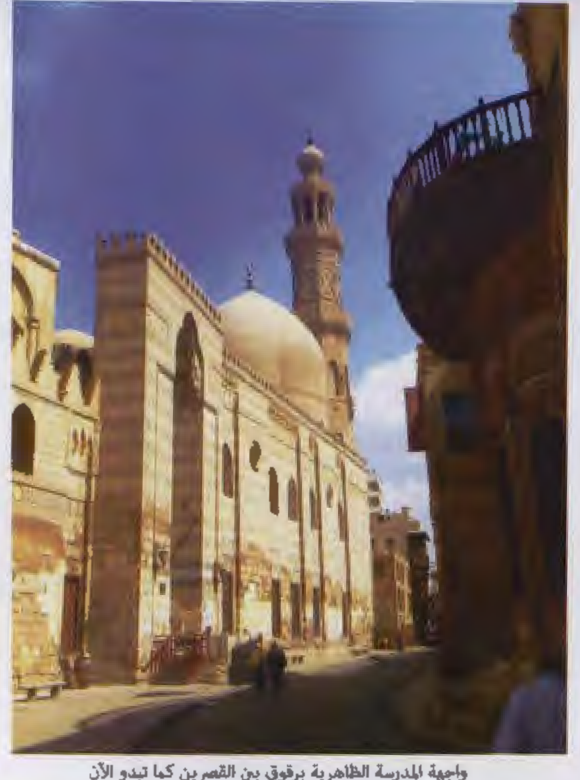


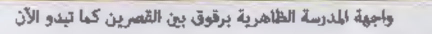

The Minbar and the mihrab of al Sultan Hasan College

منبر ومحراب مدرسة السلطان حسن



واجهة المدرسة الظاهرية برقوق بين القصرين (عن روبرت هاي)





واجهة المدرسة الظاهرية برقوق بين القصرين كما تبدو الآن

The Facade of the College of al Zahir Barquq at Bayn al Qasrayn after Robert Hay And Now



منبر ومحراب المدرسة الظاهرية برقوق بين القصرين

The Minbar and the Mihrab of the College of al Zahir Barquq at Bayn al Qasrayn



واجهة الجامع المؤيد داخل باب زويلة

The Facade of the Mosque of al Mu'ayyad inside Bab Zawila



منظر عام لجامع المؤيد من الجهة الغربية

Genral View of the Mosque of al Mu'ayyad



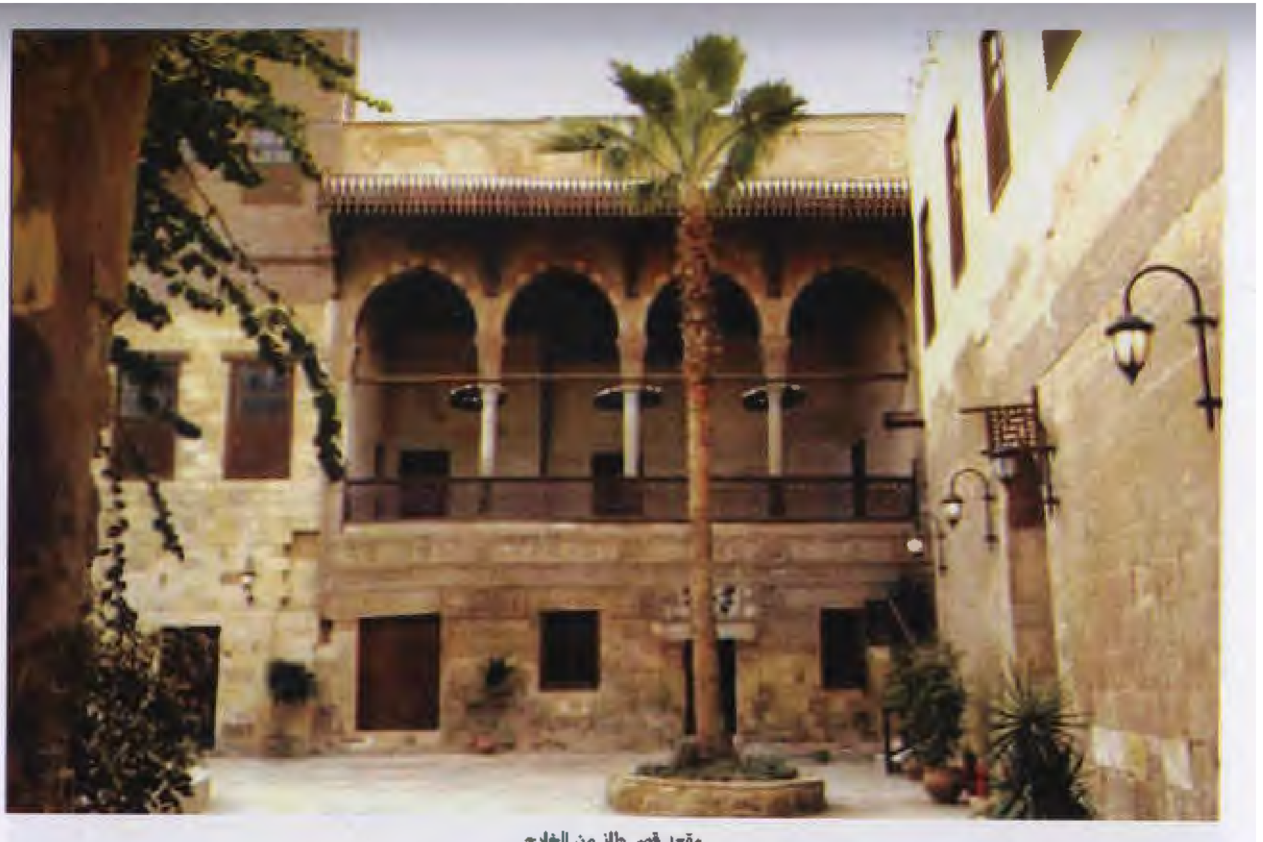
The Courtyard of al Mu'ayyad Mosque, the Dome and the two Minarets

صحن جامع المؤيد والقبة والمئذنتان

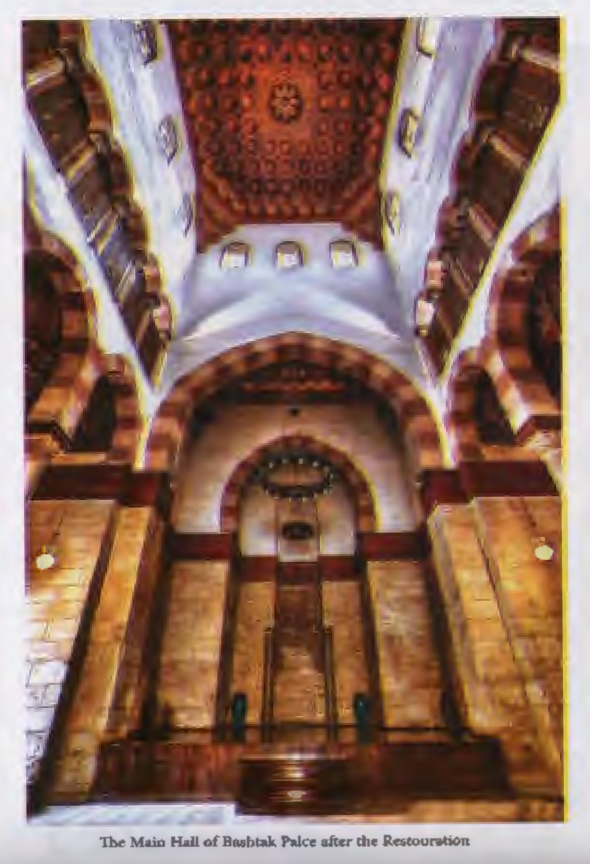


منظر عام لجامع الناصر محمد بن قلاوون بقلعة الجبل

General View of the Mosque of al Nasir Muhammad b. [illegible] at the Cetadel



مقعد قصر طاز من الخارج



The Main Hall of Bashtak Palce after the Restouration



القاعة الرئيسة لقصر بشتاك بعد الترميم



Sabîl and Kuttab of al Ashraf Qaytbay at al Saliba

سبيل وكُتّاب الأشرف قايتباي بالصليبة

المَدارِسُ المَمْلوكِيَّة

نَشأةُ المَدْرَسَة

تُعَدُّ المَدْرَسَةُ ـ دون جِدالٍ ـ ابْتِكارًا سُنِّيًّا، وهي أحَدُ أهَمِّ مُؤَسَّساتِ الحَضَارَة الإسْلامِية اعْتِبارًا من مَطْلَعِ القَرْنِ الخامِس الهجري / الحادي عَشَر الميلادي. وغَطَّت أهَمِيَّتُها الدِّينِيَّة والتَّعْليمِيَّة والسِّياسية والاجْتماعية ـ على الأخَصّ في عَصْرِ المَماليك ـ على أيَّةِ مُؤَسَّسةٍ إسلاميةٍ مُشابِهَةٍ أخرى مثل: دار العِلْم ودار الحَديث ودار القُرْآن. ولم يَحْتَفِظ بأهَمِيَّتِه ومَكانَتِه الخاصَّة بين مُؤَسَّساتِ الحَضَارَة الإسْلامِيَّة سوى «المَسْجِد الجَامِع» فقط.

ويَخْتَلِفُ العُلَماءُ والدَّارِسُون حَوْلَ أصْلِ «المَدْرَسَة» ونَشْأتِها، فيَفْتَرِضُ بارْتُولْد BARTHOLD ـ بما أنَّ المَدارِسَ الأولى ظَهَرَت في نَيْسابُور ومَرْو وبُخَارَى في فترة حُكْم السُّلْطان محمود الغَزْنَوي (٣٩١ـ٤٢١هـ/ ٩٩٩ـ١٠٣٠م) ـ أنَّها اسْتُوحِيت من الأدْيِرَة البُوذِيَّة في آسْيا الوُسْطى (الفيهارَا) (؟)[1] . ويَرَى أحمد فكري أنَّ المَدْرَسَة هي التَّطَوُّر المَنْطِقي لوَظيفَة المَسْجِد، وأنَّ تَعْريفَها مُسْتَمَدٌّ من البُيُوت المُخَصَّصَة فيها لسُكْنَى الشُّيُوخ

(1) G. LEISER, «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society», *MW* LXXVI (1986), p.16.

والفُقَهَاء لا من قاعات التَّدْريس والمُدَرِّسين[١]. أمَّا جورج مَقْدِسي George Makdisi فيَعْتَقِد أنَّ المَدْرَسَةَ هي تَطَوُّرٌ لـ «الخَانات» التي كان يُقيمُ بها الطَّلَبَةُ الغُرَباءُ عند تَرَدُّدِهم على كِبارِ العُلَماء والشُّيُوخ في بَغْدَاد في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي[٢]. فالمَدْرَسَةُ عنده هي نِتاجُ مَراحِلَ ثلاثٍ تَطَوَّرَت خِلالها المُؤَسَّسَةُ التَّعْلِيميةُ في الإسلام:

مَرْحَلَةُ «المَسْجِد الجَامِع» في القُرُونِ الأُولى للإسْلام حيث كانت تُعْقَدُ به حَلْقاتُ العِلْم ودُرُوسُ الفِقْه والحَديث. ومَرْحَلَةُ «الخَـان» القريب من المَسْجِد الذي كان يُخَصَّصُ لإقامةِ الطَّلَبَةِ الغُرَباءِ عن المَدينَة، والذي انْتَشَرَ في شَرْقِ العالم الإسْلامِي في القرنِ الرَّابع الهجري/ العاشِر الميلادي. ثم مَرْحَلَةُ «المَدْرَسَة» بمعنى الكلمة التي تُعَدُّ مُؤَسَّسَة التَّعْليم الإسْلامِية الحقيقية.

ويَتَّفِقُ الباحِثون في العُمُوم على أنَّ «المَدْرَسَة» بمعنى الكلمة نَشَأت تلبيةً لثَلاثةِ اعْتِباراتٍ أساسية:

أوَّلًا: لدَعْمِ الإسْلامِ السُّنِّي في مُوَاجَهَةِ التَّحَدِي الشِّيعي في القرنِ الرَّابِع الهجري/ العاشِرِ الميلادي، الذي يَحِقُّ لنا أنْ نُسَمِّيه «عَصْر انْتِصَار الشِّيعة»، ففيه تَحَكَّمَ البُوَيْهِيُّون الشِّيعَة في إمبراطوريةٍ عَريضَةٍ كان مركزُها العِراق وفَرَضُوا سَيْطَرَتَهُم على الخَلِيفَة العَبَّاسي السُّنِّي في بَغْدَاد، ومَدَّ الفَاطِمِيُّون

---

[١] أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها ٢: ٧٢، ١٣١، ١٦٠، ١٦٣.

[٢] G. Makdisi, *The Rise of Colleges. Institutions of Learning in Islam and the West,* Edinburgh 1981, pp.27, 29-30.

الإسْماعِيلِيُّون نُفُوذَهم على مِصْر والشَّام وشمال إفْريقيا وجَزيرَة صِقِلِّيَّة واليمن وعُمَان، وقامَ دُعاتُهم بدَورٍ نَشِطٍ في طُولِ الأراضي العَبَّاسِيَّة وعَرْضِها تَدْعَمُهم العَديدُ من المُؤسَّسات الشِّيعية مثل: الجَامِع الأَزْهَر ودُور العِلْم التي كانوا يتَلَقَّوْن فيها تَدْريبات خاصَّة.

في هذا الوَقْتِ كان السُّلْطانُ محمود الغَزْنَوي وأخُوه الأميرُ نَصْرُ بن سُبُكْتكين هما المُدافِعيَنْ عن السُّنَّة، وبَدَءَا في إنْشَاءِ المَدارِس الأولى في مَشْرِقِ العالَم الإسْلامِي في نَيْسابُور ومَرْو وبُخَارى، كالمَدْرَسَةِ البَيْهَقِيَّة والمَدْرَسَةِ السَّعْدِيَّة ومَدْرَسَةِ ابن فُورَك.

ثانيًا: إعْداد كوادِر مُوالية للدَّوْلَة عن طَريقِ تأييدِ المَذاهِب الفِقْهِيَّة الأربعة، بحيث أصْبَحَت هذه المَدارِسُ بمثابَةِ مُؤَسَّساتٍ رَسْمية لتَخْريج القُضَاة وكُتَّابِ بَيْتِ المال والوُزَرَاء وغيرهم من المُوَظَّفين الرَّسْميين.

ثالِثًا: لتَلْبِيَة رَغْبَة السَّلاطين والحُكَّام في إحْكامِ سَيْطَرَتِهم على طَبَقَة العُلَماء الذين دَرَسُوا المَذاهِبَ الفِقْهِيَّة المُعْتَمَدَة في الدُّوَلِ السُّنِّيَّة في هذه المَدارِس[1].

كانت المَدارِسُ الأولى التي أُنْشِئَت في عَصْرِ الغَزْنَويين مُوَجَّهَةً ضِدَّ المخالِفين في الرأي من الكَرَّامِيَّة الذين أنشأوا «خانْقاوات» كمراكِزَ للتَعْليم

---

(1) G. LEISER, «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society», *MW* LXXVI (1986), p.16.

والدَّعْوَة وحَياة التَّقَشُّف، خاصَّةً في مَناطِق خُراسَان وما وَرَاء النَّهْر وفي جُرْجَان وطَبَرِسْتان، وأصْبَحَت هذه «الخانْقاوات» ـ في رأي بُوزْوُرْث BOSWORTH ـ الأُنْمُوذَج والمُحَرِّك لحَرَكَة إنْشَاء المَدارِس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي على أيْدي الأشَاعِرَة(١). ولكنَّ هذه الصِّلَة تَظَلُّ مع ذلك في حاجَةٍ إلى إثْبات.

وعندما خَلَفَ السَّلاجقَةُ الغَزْنَويين بعد هَزيمَتِهم في مَوْقِعَةِ دانْدِنْقان سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م، أخَذُوا في فَتْحِ أراضي المَشْرق الإسْلامِي، ودَخَلَ زعيمُهُم طُغْرُلْبك إلى بَغْدَاد في سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، وبَلَغَت إمبراطوريتهم أقْصَى اتِّساعٍ لها في عَهْدِ خَليفَتَيْه ألْب أرْسَلان ومَلِك شَاه، حيث امْتَدَّت من وَسَطِ آسيا حتى حُدُودِ بيزَنْطَة.

كان السَّلاجِقَةُ، في هذا الوَقْتِ، هم القُوَّة الفَتِيَّة في الإسْلام الآخِذَة في النَّمَاء والقُوَّة المُدافِعَة عن مَذْهَبِ أهْلِ السُّنَّة في مُواجَهَة الفاطِمِيين الشِّيعَة والتي وَضَعَت نهايةً لحُكْم البُوَيْهيين الشِّيعَة في بَغْدَاد مركزِ الخِلافَة العَبَّاسِيَّة. وكان وُصُولُ السَّلاجِقَةِ إلى قِمَّة السُّلْطَة يُمَثِّلُ انِتصارًا للمَذْهَب الأَشْعَري مُمَثِّل عِلْم الكلام السُّنِّي الذي حَلَّ مَحَلَّ آراءِ المُعْتَزِلَة الكلامِيَّة التي أخَذَت في الانْزِواءِ. وحَقَّقَ المَذْهَبُ الأشْعَري انتِصارَه في بَغْدَاد في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عَشَر الميلادي بفَضْلِ «المَدارِس النِّظامِيَّة» وخاصَّةً

(١) C. E. BOSWORTH, *EI*² art. *Karramiyya* IV, pp.694-96.

«نِظامِيَّة بَغْدَاد»، بحَيْث نَستطيعُ أن نَعُدَّ بحَقٍّ القَرْنَ الخامِس الهجري/ الحادي عشر الميلادي «عَصْر ازْدِهارِ المَدارِس»؛ فقد تَوَلَّى السَّلاجِقَةُ ـ مع تَوَلِّي نِظَام المُلْك رُتْبَةَ الوَزَارَة للسَّلاجِقَة ـ مُحارَبَة الفاطِميين عن طريقِ المَدارِس لتأييد المَذَاهِبِ العَقَدِيَّة والفِقْهِيَّة السُّنِّيَّة، وعلى الأَخَصِّ المَذْهَب الأَشْعَري[1].

وزَعَمَ الذَّهبيُّ، في النِّصفِ الأَوَّل للقرن الثَّامِن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أنَّ نِظامَ المُلْك ـ وَزيرَ السَّلاجِقَة الشَّهير ـ هو أَوَّل من بَنَى المَدارِس، ولكنَّنا رأينا ـ فيما سَبَق ـ أنَّ الغَزْنَويين سَبَقوا السَّلاجِقَة في ذلك بالمَدارِس التي أنشأوها في نَيْسَابُور ومَرْو، ويُعَلِّقُ السُّبْكي على ذلك بقولِه: «ويَغْلُب على ظَنِّي أنَّ نِظامَ المُلْك هو أَوَّلُ من قَدَّرَ المَعالِيم للطَّلَبَة»[2] ـ أي الجِرايات والرَّواتِب لمن يَدْرُس فيها، وإنْ كان العَزيزُ بالله الفاطِمي قد سَبَقه إلى ذلك ـ في أواخِر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي ـ مع الفُقَهاءِ الذين كانوا يَتَحَلَّقُون في الجَامِع الأَزْهَر بالقَاهِرَة[3].

ويَرْجِعُ تأريخُ أَوَّلِ مَدْرَسَةٍ أنشأها نِظامُ المُلْك، وهي «نِظاميَّةُ بَغْدَاد»، إلى سنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م[4]، ثم تَوالَى بناؤه للمَدارِس حتى قيل إنَّ له في

---

(1) G. MAKDISI, «Muslim Institutions of Learning Eleventh Century Baghdad», *BSOAS* XXIV (1961), p.3.

(2) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٤: ٣١٤.

(3) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٩٤، ٤٥٢.

(4) ابن خلكان: وفيات ٢: ١٢٩.

كُلِّ مَدينَةٍ بالعراقِ وخُراسان مَدْرَسَةٌ عُرِفَت جميعُها بـ «النِّظاميَّة»[١].

وهكذا أصْبَحَت «المَدارِسُ النِّظامِيَّة» مُؤَسَّسةً سياسِيَّةً تَخْضَعُ للإشْرافِ الرَّسمي للدَّوْلَة لتَدْريس الفِقْه على المذاهب الأربعة مع إفْساحِ مِساحَةٍ كبيرةٍ للمَذْهَبِ الأشْعَري في الأصُول. ولم يَرْتَبط هذا الانْتِصارُ وهذه المَدارِسُ فقط باسم نِظام المُلْك، ولكن أيضًا بأعْلامِ المَذْهَبِ الأشْعَري كأبي إسْحاقٍ الشِّيرازي وأبي بَكْرِ الباقِلَّاني وإمام الحَرَمَيْنْ الجُوَيْني وحُجَّةِ الإسلام الغَزَالي، الذين كان لهم دَوْرٌ كبيرٌ في قَبُولِ جُمْهُورِ أهْلِ السُّنَّة للمَذْهَبِ الأشْعَري. وانْتَشَرت المَدارِسُ السُّنِّيَّة وذَاعَت في العِراقِ في القرنِ السَّادِس الهجري / الثَّاني عشر الميلادي، حتى إنَّ ابْنَ جُبَيْرٍ - الذي زارَ العِراقَ نحو سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م - يُشِيرُ إلى وُجُودِ نحو ثلاثين مَدْرَسَةٍ تَقَعُ جَميعُها في الجانِب الشَّرْقي لبَغْدَاد[٢].

وفي هذا الإطارِ أدْخَلَ السَّلاجِقَةُ عن طَريقِ الزَّنْكيين المَدارِسَ إلى الشَّام في القرنِ السَّادِس الهجري/ الثَّاني عشر الميلادي كمُؤَسَّسَةٍ قويَّةٍ للدِّعاية الدِّينية والسِّياسية لنَشْرِ المَذْهَب الأشْعَري، ووَجَدَت هذه السِّياسَةُ تأييدًا واضِحًا من نُورِ الدِّين محمود خِلالَ مواجهته للفِرِنْج الصَّليبيين في أواسِطِ

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية ٤: ٣١٤. وبلغت المدارس النِّظاميَّة تِسْع مَدارِس في المَوْصِل والبَصْرَة وأصْبَهان وآمُل وطَبَرِسْتان ومَرْو ونَيْسابُور وهَراة وبَلْخ، بالإضافَة إلى نِظاميَّة بَغْداد. (G. MAKDISI, *op.cit.*, p.4).

(٢) ابن جبير: الرحلة ٢٠٥.

هذا القَرْن، حيث أنشأ العَدِيدَ من المَدارِس للفُقَهاءِ الشَّافِعِيَّة «في دِمَشْق وحَلَب وحمَاه وحِمْص وبَعْلَبَك ومَنبِج والرَّحْبة»[1]، رَغْم كَوْنِه حَنَفِيًّا، كما أسَّسَ أوَّلَ «دارٍ للحَديث» في دِمَشْق سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. وتَبَنَّى هذه السِّياسَة بعد ذلك صَلاحُ الدِّين يُوسُف بن أيُّوب بعد نجاحِه في القَضاءِ على الدَّوْلَةِ الفاطِمية ووَضْعِه نِهايَةً لها، حيث أدْخَلَ إلى مِصْر المَذْهَبَ الأشْعَري، ثم تَبِعَه خُلَفاؤه في إنْشَاءِ المَدارِس بمعنىٰ الكلمة[2].

المَدارِسُ في مِصْر قبل عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك

أبانَ المَقْرِيزيُّ في نَصٍّ جَامِعٍ أوْرَدَه في بداية الفَصْلِ الذي خَصَّصَه لذِكْر المَدارِس عن نَشْأةِ المَدارِس وتَطَوُّرِها، ولماذا لم تَعْرِف مِصْر نِظامَ المَدْرَسَة قَبْل العَصْرِ الأيُّوبي، يقول:

> «والمَدارِسُ مِمَّا حَدَثَ في الإسْلام، ولم تكُن تُعْرَفُ في زَمَنِ الصَّحابَة ولا التَّابِعين، وإنَّما حَدَثَ عَمَلُها بعد الأربع مئة من سني الهِجْرَة. وأوَّلُ مَنْ حُفِظَ عنه أنَّه بَنَى مَدْرَسَةً في الإسلام أهْلُ نَيْسَابور فبُنِيَت بها المَدْرَسَةُ البَيْهَقِيَّة، وبَنَى بها أيضًا الأميرُ نَصْرُ بن سُبُكْتكين مَدْرَسَةً، وبَنَى بها أخوه السُّلْطانُ محمود بن سُبُكْتكين مَدْرَسَةً، وبَنى بها أيضًا المَدْرَسَة السَّعْدِيَّة، وبَنَى بها أيضًا مَدْرَسةً رابعةً. وأشْهَرُ

---

[1] ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥: ١٨٥.

[2] المقريزي: المواعظ ٤: ٤٨٤.

ما بُني في القديم المَدْرَسَةُ النِّظامِيَّة بِبَغْدَاد لأنَّها أوَّلُ مَدْرَسَةٍ قُرِّرَ بها للفُقَهاءِ مَعاليم، وهي منسوبةٌ إلى الوَزير نِظام المُلْك أبي علي الحَسَن بن علي بن إسْحاق بن العَبَّاس الطُّوسي وَزير مَلِكْشاه ابن أَلْب أَرْسَلان بن دَاوُد بن ميكال بن سَلْجُوق في مَدينَة بَغْدَاد، وشَرَعَ في بنائها في سنة سبع وخمسين وأربع مئة، وفَرَغَت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربع مئة؛ ودَرَّسَ فيها الشَّيْخُ أبو إسْحاق الشِّيرازي الفيروزآبادي صَاحِب كتاب «التَّنْبيه في الفِقْه» على مَذْهَبِ الإمام الشَّافِعي ـ رضي الله عنه ورحمه ـ فاقْتَدَى النَّاسُ به من حينئذٍ في بلادِ العِراق وخُراسَان وما وَرَاء النَّهْر وفي بِلادِ الجَزيرَة ودِيارِ بَكْر.

وأمَّا في مِصْر فإنَّها كانت حينئذٍ بيَدِ الخُلَفاءِ الفاطِميين، ومَذْهَبُهم مُخالِفٌ لهذه الطَّرِيقَة، وإنَّما هم شِيعَةٌ إسْماعِيلِيَّةٌ»[1].

ورغْم أنَّ المَقْريزي يَذْكُر أنَّ بِدايَةَ معرفة مِصْر بـ «المَدارِس» جاءَت مع اسْتيلاءِ صَلاحِ الدِّين على السُّلْطَة في مِصْر وعَوْدَتها إلى دَائِرَة الأقاليم التي يَحْكُمُها أهْلُ السُّنَّة، فقد عَرَفَت مِصْر ـ وعلى الأخَصّ مَدينَة الإسْكَنْدَرِيَّة ـ المَدارِسَ في العُقُودِ الأخيرة لعَصْرِ الدَّوْلَةِ الفاطِمِيَّة. فقد كان الوَضْعُ في مِصْر في العَقْدِ الرَّابِع من القرن السَّادس الهجري/ الثَّاني عشر الميلادي يُمَثِّلُ مُواجَهةً بين المسلمين والنَّصَارَى الأرْمَن، ومُوَاجَهَةً بين أهْلِ السُّنَّة والسُّلْطَة

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٤٥١ـ ٤٥٢.

الفاطِمِيَّة الحاكِمَة. وكان وُصُولُ رِضْوان بن وَلَخْشِي إلى مَنْصِب الوَزارَة كأوَّلِ وَزيرٍ سُنِّي للفاطِميين، بِدايَةَ تَحَوُّلٍ سُنِّي بطيء، فَتَحَ الطَّريقَ إلى انْتِصارِ السُّنَّة النِّهائي في مِصْر بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا مع انْقِلابِ صَلاحِ الدِّين.

كان من أهَمِّ ما مَيَّزَ هذا التَّحَوُّل السُّنِّي إنْشاءُ مَدْرَستين لتَدْريس الفِقْه السُّنِّي في الإسْكَنْدَرِيَّة: الأولى أنشأها الوزيرُ رِضْوانُ بن وَلَخْشي لتَدْريس المَذْهَبِ المالِكي، سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٨م، وقَرَّرَ في تَدْرِيسِها الفَقِيه المالِكي المعروف أبا الطَّاهِر بن عَوْف، إسْماعِيل بن مَكِّي بن إسْماعِيل بن عِيسَى[1]؛ والثَّانية أنْشأها، في سنة ٥٤٦هـ/ ١١٥٠م، وَزيرٌ سُنِّيٌّ آخَر هو العادِلُ بن السَّلار، ولكن في هذه المَرَّة كانت لتَدْريس المَذْهَبِ الشَّافِعي، وقَرَّرَ في تَدْريسها الحافِظ الشَّهير أبا الطَّاهِر أحمد بن محمَّد السِّلَفِي[2].

ولا شَكَّ أنَّ الظُّروفَ السِّياسِيَّة والدِّينيَّة والاجْتِماعية لم تكن واحِدةً في كُلِّ العالم الإسْلامِي في القرنين الخامس والسَّادس للهجرة/ الحادي عشر والثَّاني عَشَر للميلاد. وهو الوقت الذي بدأت فيه المَدارِسُ في الازْدِهار. فالوَسَطُ الاجْتِماعي لبَغْدَاد عند تأسيس النِّظامِيَّة، سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م،

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ١٦٧.

(٢) راجع المقريزي: اتعاظ الحنفا ٣: ١٦٧؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان ١: ١٠٥، ٣: ٤١٧.

لم يكن كمُجْتَمع الإسْكَنْدَرِيَّة أو قُونية في آسيا الوُسْطَى عندما ظَهَرت المَدارِسُ لأوَّلِ مَرَّةٍ بهذه المُدُن في النِّصف الأوَّل للقَرْنِ السَّادِس الهجري. وبالتالي فلم يكن للمَدْرَسَة نفسُ الدَّوْرِ أو الوَظيفة في هذه المُجْتَمعات، وبالتَّحْديد لم يكن دَوْرُ مَدارِس الإسْكَنْدَرِيَّة مُشَابِهًا لدَوْرِ مَدارِس بَغْدَاد. فقد نَشَأت مَدارِسُ بَغْدَاد في مُجْتَمَع سُنِّي بهَدَفِ تأييد المَذْهَبِ الأشْعَرِي ولمُواجَهَة مَذَاهِبِ الشِّيعَة، وللمُساهَمَة في إعْدادِ رِجالِ الدِّين والمُوَظَّفين الرَّسْمِيين، ولتَمْكِين الحُكَام بصِفَةٍ خاصَّةٍ من احْتِكارِ طَبَقَة «العُلَماء» والتأثير عليهم. أمَّا في مِصْر فقد كان غَرَضُها تَدْعيمَ الإسْلام ضِدَّ تَحَدِّي أو اسْتِفْزاز أهْلِ الذِّمَّة من النَّصَارَى، ثم إمْدادَ الإسْلامِ بوَسائِل إضْعافِ قُوَّتِهم وإجْبارِهِم على التَّحَوُّل إليه. فرَغم كَوْنِ الإسْلام دين الدَّوْلَة الرَّسْمي وهو الأعْلى، إلَّا أنَّه كان يُواجِه أقَلِّيَّةً نَصْرانيةً عَريضَةً وقَوِيَّةً تَتَرَكَّز في غَرْبِ الدِّلْتا وأجزاءَ من مِصْر العُلْيا والواحات، بدأ نُفوذُهَا في التَّسَلُّط مع وُصُولِ بدْرِ الجمالي إلى قِمَّة السُّلْطَة في مِصْر سنة ٤٦٦هـ/ ١٠٧٣م، والذي كان أرْمَني الأصْل واسْتَصْحَبَ معه عندما قَدِمَ إلى مِصْر جَيْشًا قِوامُه من الأرْمَن النَّصَارَى الذين اصْطَحَبُوا عائِلاتِهم واسْتَقَرُّوا في مِصْر في ظَواهِر القَاهِرَة، وتَزايَدَ عَدَدُهُم مع قُدُوم مُهاجرين جُدُدٍ لَحِقُوا بهم، وكان لهم بَطْرَكُهُم وكنيسَتُهم المُسْتَقِلَّة، حتى بَلَغَ الأمْرُ مَداهُ مع تَوَلِّي بَهْرام الأرْمَنيّ النَّصْراني رُتْبَة الوَزارَة للخَلِيفَة الحافِظ لدين الله سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م[1].

---

(١) أيمن فؤاد: الدولة الفاطمية في مصر ـ تفسير جديد ٥٩٠ـ ٥٩١.

ونستطيعُ القَوْل بأنَّ «المَدْرَسَة» كمُؤسَّسَةٍ سُنِّيَّةٍ رسميةٍ لم تُعْرَف على مستوًى واسِعٍ في مِصْـر إلَّا بعد تَولِّي صَلاحِ الدِّين الوَزارَة للعَاضِدِ آخِر خُلَفَاءِ الفاطِميين. فقد هَدَمَ صَلاحُ الدِّين، في عام ٥٦٦هـ/ ١١٧١م، دارَ المَعُونَة بمِصْـر وعَمَّرَها مَدْرَسَةً للشَّافعية، يقولُ المَقْرِيزي: «وهي أوَّلُ مَدْرَسَةٍ عُمِّرَت بمِصْـر لإلْقاءِ العِلْم» ، كما حَوَّلَ دارَ الغَزْلِ بجوارِ جَامِعِ عَمْرو «مَدْرَسَةً للمالِكية»، عُرِفَت فيما بعد بـ«المَدْرَسَةِ القَمْحِيَّة»، كذلك اشْتَرَى ابنُ عَمِّه الملكُ المُظَفَّرُ تَقِيّ الدِّين عُمَر بن شاهِنْشَاه ابن أيُّوب «مَنازِلَ العِزِّ» بالفُسْطاط وجَعَلَها مَدْرَسَةً للشَّافِعية، وقَفَ عليها عِدَّةَ أوْقافٍ وعُرِفَت بـ«المَدْرَسَة التَّقَوِيَّة»[1] .

وتُعَبِّرُ الكِتَابَةُ التَّارِيخِيةُ التي كانت تُوجَدُ بالمَدْرَسة المجاوِرَة لضَرِيحِ الإمام الشَّافِعِي، ونُقِلَت الآن إلى مُتْحَفِ الفنِّ الإسْلامِي بالقَاهِرَة برقم ١١٨، بوُضُوحٍ عن رَدِّ الفِعْلِ الأيُّوبي السُّنِّي الذي كان وَراءَ إنْشَاءِ المَدارِس في مِصْـر، يقولُ نَصُّ الكتابَة:

> «بُنِيَت هذه المَدْرَسَةُ باسْتِدْعَاءِ الشيخ الفَقيه الإمام [كلمة ساقطة] الزَّاهِد نَجْم الدِّين رُكْنِ الإسْلام قُدْوَةِ الأنَام مُفْتي الفِرَق أبو البـركات بن المُوَفَّق الخَبُوشَاني ـ أدامَ الله تَوْفيقه ـ لفُقَهاءِ أصْحابِ الشَّا فِعي ـ رضوان الله عليه ـ المَوْصُوفين بالأصُوليَّة المُوَحِّدَه: الأَشْعَرِيَّة على الحَشَوِيَّة وغيرهم من المُبْتَدَعة، وذلك في شهر

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦.

رَمَضان سنة خَمْسٍ وسبعين وخمس مئة»[١].

وقد زالَت كُلُّ آثارِ هذه المَدارِس المُبَكِّرة ، سَواءٌ التي أُقِيمَت في الإسْكَنْدَرِيَّة أو في الفُسْطاط . وكُلُّ ما نعرفه عنها أنَّها كانت مُخَصَّصةً لتَدْرِيس مَذْهَبٍ واحِدٍ، حيث إنَّ أوَّلَ مَدْرَسَةٍ جُمِعَ فيها تَدْرِيسُ المذاهِب الفِقْهِيَّة الأربعة هي «المَدْرَسَةُ المُسْتَنْصِرية» في بَغْدَاد، التي أُنشئت فيما بين سنتي ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م و٦٣١هـ/ ١٢٣٤م[٢]، كما أنَّنا نَجْهَلُ كُلَّ شيءٍ عن تَخْطيطِ هذه المَدارِس.

وعَرَفَت القَاهِرَة كذلك في العَصْرِ الأيُّوبي نَوْعًا آخَر من المُؤسَّسات التَّعْليمية هو «دارُ الحَدِيث»، وهي مُؤسَّسَةٌ اختصَّت فقط بتَدْريس عُلُومِ الحَدِيث. وأوَّلُ دارٍ أُنْشِئَت من هذا النَّوْع هي «دارُ الحَدِيث النُّورِيَّة» التي أنْشأها نُورُ الدِّين محمود في دِمَشْق سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م. ثم تتابَعَ إنْشَاءُ دُورِ الحَدِيث وعلى الأخَصِّ في دِمَشْق وضَواحِيها، حيث يَذْكُر النُّعَيْمي أسْماءَ ستة عشر دَارًا للحَديث ، إلى أنْ أنْشَأ السُّلْطانُ الملكُ الكامِلُ محمَّد «دَارَ الحَدِيث الكامِلِيَّة» في القَاهِرَة سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م، وهي إضافَةً إلى «دَارِ الحَدِيث المَرَاغِيَّة» التي عَمَّرَها الشيخُ شَمْسُ الدِّين المَراغي على شاطئ النِّيل، والتي ذكرها ابنُ دُقْماق ، دارُ الحَدِيث الوَحِيدَة المعروفة بالقَاهِرَة[٣] .

---

[١] G. Wiet, *RCEA* IX, n. 3339.

[٢] راجع عنها كوركيس عواد : «المدرسة المستنصرية ببغداد» ، مجلة سومر ١ (١٩٤٥) ، ٧٦-١٢٠؛ أحمد فكري : مساجد القاهرة ومدارسها ٢: ١١٥-١١٦، ١٥٦-١٦٠.

[٣] ابن دقماق : الانتصار لواسطة عقد الأمصار ٤: ٩٩.

ويَتَّضِحُ من ذلك أنَّ التَّعْليمَ في العَصْرِ المَمْلُوكي انْحَصَرَ في المَدارِس ولم يكن للمَساجِد الجامِعَة ، بما فيها الجامِع الأزْهَر ، دَوْرٌ تَعْليمِيٌّ مُهِمٌّ . وإنْ لم يَمْنَع ذلك من إلْقاءِ بعض كِبارِ العُلَماءِ لدُرُوسٍ في الجامِع الأزْهَر ، مثل عالِم الاجْتِماعِ والفَقِيه المالِكِي المعْروف عبدالرَّحْمَن بن خَلْدُون عندما قَدِمَ إلى القاهِرَة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م ، ولكنَّها لم تكن دُرُوسًا نِظامِيَّةً مثل تلك التي كانت تَضْطَلِعُ بها المَدارِسُ بما كانت تَشْتَمِلُ عليه من خَزائِنَ للكُتُبِ وأماكِنَ لإعاشَةِ الطَّلَبَة وإقامَتِهِم وجِرايات وجامَكِيّات لمُدَرِّسيها تقومُ بها الأوْقافُ المَوْقوفَة على هذه المَدارِس .

وهكذا اسْتِكْمالًا لشَكْلِ النَّمَطِ التَّعْليمِي الذي كان سائِدًا في العَصْرِ المَمْلُوكي ، أُقِيمَت على بابِ الجامِعِ الأزْهَر الغَرْبي مَدْرَسَتان : المَدْرَسَةُ الطَّيْبَرْسِيَّةُ سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م[١]، والمَدْرَسَةُ الآقْبُغاوِيَّةُ سنة ٧٤٠هـ / ١٣٤٠م[٢]، ثم المَدْرَسَةُ الجَوْهَرِيَّةُ في طَرَفِه الشَّرْقِيّ التي أنْشأَها ، في سنة ٨٤٤هـ / ١٨٤٥م ، الأميرُ جَوْهَرُ القُنْقُبائيّ[٣] .

---

(١) المقريزي : المواعظ ٤: ٥٣٦-٥٣٨.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٥٤٠-٥٤٤.

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٥: ٤٨٥-٤٨٦ والمنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ٥: ٤٢؛ ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور ٢: ٢٢٧ وانظر كذلك أيمن فؤاد سيد : «الجامع الأزهر تاريخه وتطوره» ، المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦) ، ٧-٣٢.

المَدَارِسُ المَمْلُوكِية

تَخطِيطُ المَدْرَسَة

ومع اخْتِصَاصِ المَدارِسِ بتَدْريس المَذاهِبِ الفِقْهِيّة الأربعة، كان التَّخْطيطُ المُتعامِد على صَحْنٍ مُرَبَّع Cruciform Plan يتَّفِقُ تمامًا مع وَظيفَةِ المَدْرَسَة الجَديدَة، ومع ذلك فإنَّ تَخْطيطَ المدارِسِ الأولى التي دَرَّسَت المذاهِبَ الفِقْهية الأربعة والتي وَصَلَت إلينا آثارُها، وهي: المَدْرَسَةُ المُسْتَنْصرية في بَغْدَاد (٦٣١هـ/ ١٢٣٤م)، والمَدْرَسَةُ الصَّالِحِيَّة في القَاهِرَة (٦٤١هـ/ ١٢٣٤م) لم يكن مُتَعامِدًا. فالأولى كانت تتألَّفُ من أربعة إيوانات غير مُتَجانِسَة تُحيطُ بصَحْنٍ مُسْتَطيل. بينما تكوَّنَت الثَّانية من كُتْلَتَيْن من المباني كُلٌّ منها عبارَة عن صَحْنٍ وإيوانَيْن مَعْقودَيْن بقَبْوٍ دائري مُدَبَّب يَفْصِلُهما دِهْليزٌ بطُولِ ٢٨ مترًا وعَرْض ٢١ مترًا من وَسَطِ الواجِهَة. فكانت الظَّاهِرةُ التي مَيَّزت العِمارَة الأيُّوبية في القَاهِرَة، إضَافَة إلى اسْتِحْداث نِظَام المَدْرَسَة، هي ظُهُور «الأواوين» في تخْطِيطِ العِمارَة الدِّينية[1].

ولم يَجْتَمع تَدْريسُ المذاهِبِ الفِقْهِيَّة السُّنِّيَّة الأربعة في مِصْـر في مبنًى واحدٍ، بعد المَدْرَسَة الصَّالِحِيَّة، إلَّا عند ظُهُورِ المَدْرَسَةِ ذات التَّخْطيطِ المُتعامِد

---

(١) أحمد فكري: «خصائص عمارة القاهرة في العصر الأيوبي»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ١: ١٦٧-١٦٨.

Cruciform Plan. وتُعَدُّ «المَدْرَسَةُ النَّاصِرِيَّةُ محمَّد بن قَلَاوُون» بيَيْنْ القَصْرَيْن، التي افْتُتِحت سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م ، أوَّلَ مَدْرَسَةٍ في مِصْر ذات تَخْطيطٍ مُتعامِد دُرِّسَ بها الفِقْهُ على المذاهِبِ الأرْبَعَة (المالكي بالإيوان القِبْلي الكبير، والحَنْبَلي بالإيوان الغَرْبي ، والحَنَفي بالإيوان الشَّرْقِي، والشَّافِعي بالإيوان البَحْري) ، أي أنَّها جَمَعَت بين التَّخْطيط المُتعامِد شَكْلًا والمَذاهِب الأربعة وَظيفَةً. أمَّا «المَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّةُ العَتيقَة» التي شَيَّدَها السُّلْطانُ الظَّاهِرُ بَيْبَرْس بيَيْنْ القَصْرَيْن كذلك وافْتُتِحَت قبل ذلك بنحو أربعين عامًا، سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، فتُعَدُّ أوَّلَ مَدْرَسَةٍ ذات تَخْطيطٍ مُتَعَامِدٍ في مِصْر، لكنَّها لم تُدَرِّس الفِقْهَ فقط، إذْ خُصِّصَ إيوانُها القِبْلي لتَدْريس الفِقْه على المَذْهَبِ الشَّافِعي، وإيوانُها البَحْري لتَدْريس الفِقْه على المَذْهَبِ الحَنَفي، بينما خُصِّصَ إيوانُها الشَّرْقي لتَدْريس عُلُومِ الحَديث، وإيـوانُها الغَرْبي لإقْراءِ القِراءَات السَّبْع[1] .

وذَهَبَ كريزويل Creswell إلى أنَّه إذا كانت أوَّلُ مَدْرسَةٍ لتَدْريسِ المَذَاهِبِ الفِقْهيَّة الأربعة هي: مُسْتَنْصِرِيَّةُ بَغْدَاد، فإنَّ أوَّلَ مَدْرَسَةٍ ذات تَخْطيطٍ مُتَعامِد ـ وهي «المَدْرَسة الظَّاهِرِيَّة العَتيقَة» ـ أُسِّسَت في القَاهِرَة، واسْتَنَدَ كريزويل Creswell في ذلك على أنَّ التَّخْطيطَ المُتعامِد القائم على تَخْطيطِ القاعَة مِصْري الأَصْل ولم يُعْرَف عَمَليًّا خارِجها. وهو يُخالِفُ في ذلك رأي فان برْشم Van Berchem الذي يرى أنَّ هذا النِّظامَ انْتَقَل إلى

---

(١) المقريزي : المواعظ ٤: ٥٠٦ـ٥٠٨، ٥٣٠.

مِصْر من الشَّام وأنَّه مُشْتَقٌّ من الكنائِس البِيزَنْطية ذات الشَّكْل الصَّليبِي المُنْتَشِرَة بالشَّام[١].

وقد اعْتَرَضَ أنْدريه جُودار A. Godard على الرأيين مَعًا، مُعْتَمِدًا على أنَّ الحَفَائِرَ التي أُجْرِيَت في إيران أظْهَرت آثارًا لعَدَدٍ كبيرٍ من المباني ذات صَحْنٍ أوْسَطٍ تُحيطُ به أواوينُ أربعة يَرْجعُ تأريخُها - حَسَب تقديره لها - إلى قَرْنٍ أو أكثر قَبْل ظُهُورِ ظَاهِرِيَّة القَاهِرَة؛ وأنَّ هذا النِّظام كان شائِعًا في بِلادِ فارِس وتَبَنَّته بعضُ المَساجِد الجامِعَة هناك كـ «جَامِع أصْبَهان» الذي أُنْشئ سنة ٥١٥هـ/ ١١٢٠م ؛ إلَّا أنَّه أضافَ أنَّ المَدارِسَ التي أُنْشِئَت في القرنِ السَّابع الهجري/ الثَّالِث عشر الميلادي اتَّخَذَت هذا النِّظام لأنَّه يُلائِم فقط وَظيفَتها في تَدْرِيس المَذَاهِب الأربعة[٢]. ولكنَّ كريزويل Creswell عادَ وتَشَكَّكَ في الآثار التي اسْتَنَدَ إليها جودار Godard؛ سواءً من حيث تأريخها أو من حيث موضوعها، وتَمَسَّك بنظرية القَاعة المِصْرِيَّة[٣].

والذي لا شَكَّ فيه أنَّ المُنْشآت الإسْلامية على اخْتِلافِها تأثَّرت بتَصْميم المَسْجِدِ الجَامِع المُتألِّف من صَحْنٍ أو فِناءٍ أوْسَطَ مُرَبَّعٍ أو مُسْتَطيلٍ تُحِيطُ به في

---

(١) K. A. C. Creswell, «The Origin of the Cruciform Plan of Cairen Madrasa», *BIFAO* XXI (1922), p.43.

(٢) A. Godard, «L'origine de la Madrasa, de la Mosquée et du Caravanserail à quatre Iwans», *Ars Islamica* XV-XVI (1951), pp.2-9.

(٣) K. A. C. Creswell, *MAE* II, p.123.

جوانبه أرْوِقَةٌ أربعة مثل ما هو الحالُ في المَدارِس والخَوانِق (الخَوانِك) والوَكالات والخَانات وحتى القُصُور والدُّور، إلَّا أنَّه اسْتُبْدِل بالأَرْوِقَة في كُلٍّ منها كُتَلٌ بنائِيَةٌ مُناسِبَةٌ لوَظيفَتها[1].

وبما أنَّ أقْدَمَ المَدارِس ظَهَرَت في شَرْقِ إيران ثم أخَذَت تتَّجه غَرْبًا وخاصَّةً مع السَّلاجِقَة، فيُفتَرَضُ أنَّ تَخْطيطَها تأثَّر بالأساليبِ المعمارية السَّائِدَة في إيران وبخاصَّةٍ اسْتِخْدام «الإيوانات» كما سَبَق ولاحَظَ جُودار GODARD، ثم انْتَقَلَ هذا التَّصْمِيمُ إلى المَدارِس السَّلْجوقية، ومنها إلى مَدارِس الشَّام ومِصْر، مع خُضُوعِ كُلٍّ منها للتَّقاليد المعمارية المَحَلِّيَّة في بعض عَناصِرِه[2]، حيث تأثَّر تَخْطيطُ المَدارِس في مِصْر بِنظام تَخْطِيطِ القاعَة[3].

وسَاعَد على تَعْمِيم فِكرة «الأواوِين» في تَخْطيطِ المُنْشآت الدِّينية شُيُوعُ اسْتِخْدام الحِجارَة في البِناء، مِمَّا أدَّى إلى الاسْتِغْناء عن الأَعْمِدَة واسْتِبْدال الدِّعامات بها، وإقامَة الأَسْقُف المبنية المعقودة بَدَلًا من الأَسْقُف المُسَطَّحَة الخشبية؛ فأصبح بَيْتُ الصَّلاة قاعَةً واحِدَةً فَسِيحَةً بعد أنْ كان مجموعةً من

---

[1] فريد شافعي : العمارة العربية في مصر الإسلامية ٢٨ـ ٢٩؛ حسن الباشا : «دراسة جديدة في نشأة الطراز المعماري للمدرسة المصرية ذات التخطيط المتعامد» ، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٣ (١٩٨٩) ، ٥١.

[2] حسن الباشا : المرجع السابق ٥٥ـ ٥٦.

[3] المقريزي : المواعظ ٢: ٤٩٩.

الأساكِيب والبَلاطات. وسَاعَدَ هذا النِّظامُ الجديد كذلك على إضْفاءِ جَوٍّ من الفَخامَة على وَاجِهات بُيوتِ الصَّلاةِ، وأدَّى إلى إحْلالِ فكرة العُلُوِّ والعَظَمَة والتركيز، مَحَلَّ الفِكْرَة الأولى في العِمارَة الإسْلامِيَّة الدِّينِيَّة التي كان قِوامُها الفُسْحَة والامْتِداد[1].

ولوحِظَ في تخْطيطِ المَدْرَسة ـ ابتداءً من العصر المَمْلُوكِي ـ صَلاحيتها لإقامَة الصَّلَوات الجامِعَة حيث اشْتَمَلَت على مَكانٍ رَحْبٍ مُرَبَّعٍ أو مُستطيل التَّخْطيط مُوَجَّه نحو القِبْلَة ومُزَوَّد بِمِحْرابٍ ومِنْبَر، ودائمًا ما كان هذا المكانُ أكبر أواوين المَدْرَسَة واصْطُلِحَ على تسميته بـ«إيوانِ القِبْلَة». وتأكيدًا لصَلاحِيَّة المَدْرَسَة لوَظيفَةِ الصَّلاة كانت تَشْتَمِلُ على مآذِن أو مَنارات، كما هو الحالُ مع المَدارِس المِصْرية ومَدارِس السَّلاجِقَة بآسْيا الوُسْطى التي كانت تَشْتَمِلُ في بعض الأحْيان على مَنارَتَيْن[2]، وتَمَيَّزت المآذِنُ الأيُّوبية بأنَّها ارْتَقَت على البَوَّابات وأضْفَت بذلك أهَمِّيَّةً خاصَّةً على هذه البَوَّابات (المَدْرَسَةُ الصَّالِحِيَّة)[3].

---

(١) أحمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها ١: ١٧٠ـ ١٧١.

(٢) حسن الباشا: المرجع السابق ٥١ـ ٥٢.

(٣) أحمد فكري: المرجع السابق ١: ١٦٦ـ ١٦٧.

وَظِيفَةُ المَدْرَسَة

أمَّا الوَظِيفَةُ الأساسيةُ للمَدْرَسة، والتي اشْتُقَّ اسْمُها منها، فهي: التَّدْرِيسُ؛ حيث خُصِّصَت أواوِينُها الأربعة لتَدْريس المَذَاهِب الفِقْهية السُّنِّيَة الأربعة، ودائمًا ما كان يُخَصَّصُ إيوانُ القِبْلَة ـ وهو الإيوانُ الأكثر اتِّساعًا ـ لتَدْريسِ المَذْهَبِ الأكبر أو المَذْهَبِ الذي يأخُذُ به أو اشْتَرَطَه مُنْشئُ المَدْرَسَة[1].

وما يُمَيِّزُ المَدْرَسَة عن الجَامِع ـ بخلافِ التَّخْطِيط ـ هو تَوْفيرُ أماكِنَ لإقامَةِ الطَّلَبَة وإعاشَتِهم؛ ويَرَى أحمد فكري أنَّ المَدْرَسَة اتَّخَذَت وَظيفَتَها الرَّئيسة من كَوْنِها أُعِدَّت لسُكْنَى الفُقَهاءِ لا من قاعاتِ التَّدْرِيس والمُدَرِّسِين[2]. وقد ساعَدَت هذه الوَظيفَةُ في رأي حسن الباشا على ظُهُورِ الطِّراز المِحْوَري وعلى إبْدالِ أرْوِقَةِ المَسَاجِدِ بأواوِين المَدْرَسَة؛ لأنَّ الإيوانَ لا يَشْغَل جانِبَ الفِنَاء كُلَّه، ومن ثم كان من الممكن بِنَاءُ مَساكِن الطَّلَبَة بين الأواوِين وحَوْلَ أرْكانِ الفِناء. كما أنَّ الإيوانَ، على عكس سَقْفِ رِواقِ الجَامِع المَسْقُوف، كان مُرْتَفِعًا بحيث يمكن أنْ يُعادِلَ ارْتفاعَ عِدَّة طَوابِقَ من المساكِن، وخَيْر مِثالِ

---

(١) حسن الباشا: المرجع السابق ٥٢.

(٢) أحمد فكري: المرجع السابق ٢: ١٦٠ وخصائص عمارة القاهرة في العصر الأيوبي ١٨٣-١٨٧.

على ذلك هو جَامِعُ ومَدْرَسَةُ السُّلْطان حسن بالرُّمَيْلَة التي احْتَفَظَت بجميع معالمها الأصلية تَقْرِيبًا[١].

وإلى أنْ ظَهَرَت المَدْرَسَةُ في العِمارة القاهرية كان الجَامِعُ لا يُلْحَقُ به مَدْفَنٌ، لا للمنشئ ولا لغَيْره، ثم بدأت القِبَابُ تُلْحَقُ بالمَدارِسِ وأَقْدَمُ أُنْمُوذَجٍ لها هو «القُبَّةُ المَنْصُورية» الملحقة بمَدْرَسَة المَنْصُور قَلَاوُون بالنَّحَّاسين بشارع المُعِزِّ لدين الله[٢].

وكما رأينا فإنَّ المَقابِرَ التي تَعْلُوها «قُبَّةٌ» عُرِفَت في مِصْر قَبْل هذا التأريخ، ويَرْجِعُ أَقْدَمُها إلى العَصْرين الإخْشيدي والفاطِمِي: «مَشْهَدُ آل طَباطَبا» (٣٣٤هـ/٩٤٣م) و«القِبَابُ السَّبْع» (٤٠٠هـ/١٠٠٩م) و«المَشْهَدُ الجُيُوشي» (٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)، و«قُبَّةُ يُونُس السَّعْدي (قُبَّةُ بَدْر الجمالي») (٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م). وأَخَذَ نَمَطُ القُبَّة التي تَعْلُو القَبْر في الانْتِشار في العَصْرِ الأَيُّوبي مع «قُبَّةِ الإمام الشَّافِعي» (٦٠٨هـ/ ١٢١١م)، و«قُبَّةِ الصَّالِح نَجْم الدِّين أَيُّوب» (٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م)، و«قُبَّةِ شَجَرِ الدُّرّ» (٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م). وهي عبارة عن مُنْشآتٍ مُرَبَّعَة الشَّكْل تَعْلوها رَقَبَةٌ مُثَمَّنَةٌ ترتكز عليها قُبَّةٌ بَيْضويَّةُ الشَّكْل ذات جِدارٍ رقيق تَفْتَح فيه ثمانيةُ شَبابيك مستطيلة.

---

[١] حسن الباشا: المرجع السابق ٥٥.

[٢] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٥١٦.

أمَّا في العَصْرِ المَمْلُوكِي فأُلْحِقَت هذه القِبَابُ بالمدارِس، وكانت تتَّجه دائمًا تجاه القِبْلَة ـ الأَمْرُ الذي يُفَسِّر سَبَبَ بِناءِ أغْلَب هذه المَدارِس على الجانِبِ الغربي للشَّارِعِ الأعْظَم أو القَصَبة (القُبَّة المَنْصُورية ـ المَدْرَسَة النَّاصِرية ـ المَدْرسَة الظَّاهرية الجديدة) وزادَ ارْتِفاعُها عن طَريق رَفْع الرَّقَبَة المُـثَمَّنَة وأصبحت كُلُّ مَدْرَسَةٍ أو خانْقَاه مُلْحقًا بها قُبَّةٌ لدَفْنِ مُنْشئها وأحْيانًا عائلته[١].

وامْتازَت مَدارِسُ العَصْرِ المَمْلُوكِي البَحْري بضَخَامَة البِنَاء وارْتفاعِه ومساحته الكبيرة؛ أمَّا في العَصْرِ الشَّرْكسي فاعْتَمَدَ المهندسون أيضًا النِّظامَ المتعامِد Cruciform Plan في بِنَاء المَدارِس ولكنَّهم لجأوا ـ نظَرًا لظُرُوفِ المكانِ ـ إلى تَصْغير مساحَةِ الصَّحْنِ وتَغْطيته، ونَتَجَ عن ذلك صِغَرُ واجهاتِه واتِّسَاعُ فَتَحات الإيوانات المُطِلَّة عليه. وللاحْتِفاظِ بمِساحَةٍ مناسبةٍ للمَدْرسة قامَ المُهَنْدسون بتوسيع إيوانِ القِبْلَة والإيوانِ المُقابِلِ له فقط بالامْتدادِ بهما من جانبيهما بشَكْلٍ لا يتَّضِحُ من الصَّحْنِ ولكن يُدْرِكُه فقط من يَدْخُل إلى هذين الإيوانين لأنَّ واجهتيهما المُطِلَّتَيْن عليه لا تُنْبِئان باتِّساعِهما الحَقِيقي[٢].

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٦٧٣، ٦٨٠؛ E. DIEZ, *EI*² art. *Kubba* V, pp.288-96؛ محمد حمزة الحداد: القباب في العمارة المصرية الإسلامية، القاهرة ١٩٩٣م.

(٢) K. A. C. CRESWELL, *MAE* II, p.123.

وأدَّى هذا التَّطَوُّرُ الذي لَحِقَ تلك الكُتَل المعمارية إلى تَغْيير الأسماء المُطْلَقَة عليها والتي عَبَّرَت عنه «حُجَجُ الأوْقافِ» التي تَصِفُ هذه المدارِس. فأطْلَقت الحُجَجُ على الإيوانَيْن الجانِبيين لَفْظ «السَّدِلَّة» أو «المَرْتَبة»، كما أُطْلِقَ على الصَّحْنِ ـ الذي جَاءَ مُنْخَفِضًا عن الإيوانات بمقدار ٠٠٢٥ من المتر ـ لَفْظُ «الدُّورقاعَة» (وهو تَعْبيرٌ فارِسِي معناه الجزء المُنْخَفِض من القاعَة)، وهي نفس المُصْطَلحات التي أُطْلِقَت على تَنْظيم القاعَة في الدُّورِ المَمْلُوكِية. وعلى ذلك فقد أصبح النِّظامُ المتعامِد للمَدارِس في العَصْرِ المَمْلُوكِي الشَّرْكسي يتكوَّن من دُورْ قاعَة وُسْطَى مُغَطَّاة، وبكُلٍّ من جانبيها الجنوبي الشَّرْقي والشَّمالي الغَرْبي إيوانٌ كبيرٌ، وبجانبيها الشَّمالي الشَّرْقي والجنوبي الغَرْبي سِدِلَّتان أو مَرْتَبَتان[١] .

ووُجِدَت في العَصْرِ المَمْلُوكِي مُنْشآتٌ اتُّبِعَ في تَخْطيطها التَّخْطيطُ المُتَعامِد ذو الإيوانات، ومع ذلك وُصِفَت في نُقُوشِها الإنْشائية بأنَّها جَوامِعُ، مثلُ جامِع جاني بك الذي يَرَى فان برشم أنَّ إطْلاقَ اسم الجَامِع في نَصٍّ إنْشائي على هذا التَّخْطيط تَطَوُّرٌ مهمٌّ يَدُلُّ على أنَّ الأسماءَ كانت تُحَدِّدُ وَظيفَةَ البِنَاء لا طِرازَه المعماري الذي بُنِيَ عليه[٢] .

---

(١) مصطفى نجيب : «نظرة جديدة على النظام المعماري للمدارس المتعامد ة وتطوره خلال العصر المملوكي الجركسي»، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢(١٩٧٨) ، ٢٠.

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤ : ٣٥٦؛ M. VAN BERCHEM, *CIA Egypte* I, n. 248؛ حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ٢٢٠.

كذلك لم يكن وُجودُ أربعة إيوانات بِبناء المَدْرَسة دَليلًا على أنَّه يُدَرَّسُ بها أربعةُ دُرُوسٍ مختلفة، سواء الفِقْه بمَذاهِبِه الأُربعة أو الفِقْه إلى جانِب عُلُوم الحَديث والقِراءات، فـ«المَدْرَسَةُ المَلَكِيَّة» التي أنشأها الأميرُ آل مَلِك الجُوكَنْدار تجاه دارِه بخُطِّ المَشْهَدِ الحُسَيْني كانت مُخَصَّصَةً فقط للفُقَهاءِ الشَّافِعية[1]، كما خُصِّصَت «المَدْرَسَةُ المِهْمَنْدارِيَّة» الموجودة بشارع التَّبَّانَة لتَدْريس المَذْهَبِ الحَنَفي فقط[2]، أمَّا «المَدْرَسَةُ السَّابِقِيَّة» الموجودة بدَرْبِ قِرْمِز فكان بها فقط دَرْسٌ للشَّافِعية وتَصْديرُ قِراءَات[3].

ويُؤَيِّدُ رأي كريزويل Creswell في تَأَثُّرِ عِمارَة المَدَارِس القاهِرِيَّة ذات الأواوين بِنِظام القاعَة المِصْرية، سُهُولَةُ تحويل بعض القاعات القديمة إلى مَدارِس. فتُوجَدُ في القَاهِرَة مَدْرَسَتان تحملان نُقُوشًا تاريخية تدُلُّ على أنَّها كانت في الأَصْلِ «قاعات»، هي: المَدْرَسَةُ الغَنَّامِيَّة (أثر رقم ٩٦) التي كانت في الأَصْلِ قاعَةً تُعْرَفُ بـ «قاعَة شاكِرِ بنِ الغَنَّام» أُنشِئَت سنة ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م[4]، ومَدْرَسَةُ خُشْقَدَم الأَحْمَدي (أثر رقم١٥٣)، التي كانت في

(١) المقريزي: المواعظ ٤: ٥٧١.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٦١٢.

(٣) المصدر نفسه ٤: ٥٨٠.

(٤) فيوجد بدائر إيوان القاعة كتابةٌ تاريخية تحمل النَّصَّ الآتي:

«بسم الله الرحمن الرحيم ـ الآيات ٢٥٦ـ٢٥٨، ٢٨٤ سورة البقرة ـ أمر بإنشاء هذه القاعة المباركة العبد الفقير إلى الله شاكر بن الغَـنَّام ـ غفر الله له ـ بتأريخ شهور سنة أربع وسبعين وسبع مئة. (L. Kallus, *RCEA* n. 774003, 774004).

الأصْلِ قَصْر طَشْتَمُر الدَّوادار الذي يرجع تأريخُ إنْشائِه إلى سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٧م، ولكن تأريخَ تحويلهما إلى مَدْرَسَةٍ تأرِيخٌ متأخِّر، فقد تَحَوَّلَت الأولى نحو سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م، والثانية نحو سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م، وكان التَّحْويلُ بالطَّبْعِ سَهْلًا، حيث اكْتُفِيَ بنَقْبِ مِحْرابٍ في إيوانِ القِبْلَة وبناءِ مِئْذَنَةٍ، وهما أهَمّ خاصِّيَّتَيْن تُمَيِّزان المَدْرَسَة القاهرية. وأشَارَ المَقْريزي نفسه إلى أنَّ «المَدْرَسَة الشَّرِيفِيَّة» بحارَة بَهاء الدِّين، كانت في الأصْلِ قاعَةً يَسْكُنُها الشَّريفُ شِهابُ الدِّين الحسن بن محمَّد المعروف بابن قاضي العَسْكَر، ثم جَعَلَها مَدْرَسَةً للشَّافِعية وجَعَلَ بها تَصْدير قِراءات[1].

مَدَاخِلُ المَدَارِس

وتَمَيَّزَت المدارِسُ التي أُنْشِئَت في العَصْرِ المَمْلُوكِي البَحْري وصَدْر العَصْرِ الشَّرْكَسي، بـ«المَداخِلِ التَّذكارية» الضَّخْمَة، والتي من أهَمِّها: مَدْخَلُ جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حسن بالرُّمَيْلَة الذي يُعَدُّ بمُقَرْنَصاتِه التي تُحَلِّي أعْلَى المَدْخَلِ طُرْفَةً أثَرِيَّةً رائِعَة، رَغْم أنَّ أكثر زَخارِفِه وتَلْبيسات الرُّخَام التي كان مُزْمَعًا إضافَتُها لم تَتِمّ بسَبَبِ وَفَاةِ مُنْشِئِه قبل إتْمام بِنائِه؛ ومَدْخَلُ مَدْرَسَةِ أمّ السُّلْطان شَعْبَان بشارع بابِ الوَزِير ويَظْهَرُ فيه تأثُّر مُهَنْدِسِهِ بالعَمائِر السُّلْجُوقِيَّة التي تُعْنَى بزَخْرَفة المَدَاخِل؛ ومَدْخَلُ مَدْرَسَة وخانْقاه الظَّاهِر

---

[1] المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٦٧٧.

بَرْقُوق بِبَيْن القَصْرَيْن، وهو مَدْخَلٌ مَكْسُو بالرُّخَام المُلَوَّن المُلَبَّس بطريقةٍ فَنِّيَّة وبه شُبَّاكٌ مُسْتَديرٌ مُفَرَّغٌ بالنُّحاس يَعْلُوه المُـقَرْنَص تَتَخَلَّله فُرُوعٌ زُخْرُفية؛ ومَدْخَلُ جَامِع المُؤَيَّد شَيْخ داخِل بابِ زَوِيلَة، وهو مَدْخَلٌ شاهِقٌ كُسِيَ بالرُّخَام المُلَوَّن وغُطِّي بالمُـقَرْنَصَات[1].

المَنَـــابِر

وامْتازَت كذلك «مَنَابِرُ» هذه الفَتْرَة، سَواء الخَشَبِيَّة أو الحَجَرِيَّة (الرُّخامية)، بدِقَّة صِناعَتها ودَقِّ حَشَواتِها وقَوائمها وجانِبا سُلَّمِها بالأُويمَة الدَّقيقَة البالِغَة الإتْقان التي انْتَشَرت بها أشْكالُ الأرابيسك والأَطْباق النَّجْمِيَّة، واسْتِخْدام المُـقَرْنَصَات في أعْلى مَدْخَلِ الباب المُؤَدِّي إلى سَلالِم المِنْبَر. وتُعَدُّ مَنَابِرُ العَصْرِ المَمْلُوكِي البَحْري أقْدَمَ المَنَابِر التي وَصَلَت إلينا في مِصْـر الإسْلامِية ـ بإسْتِثْناء مِنْبَر جَامِع قُوص الذي شَيَّدَه الصَّالِحُ طَلائِع سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م[2] ـ وأصْبَحَت هي الأُنْمُوذَج الذي اتَّبَعَتْه سائِرُ مَنابِرِ المَسَاجِدِ الجامِعَة في مِصْـر بعد ذلك.

وأَقْدَمُ هذه المنابِر التي وَصَلَت إلينا: المِنْبَـرُ الذي عَمِلَه المَنْصُورُ

---

[1] راجع محمد سيف النصر أبا الفتوح: مداخل العمائر المملوكية الدينية والمدنية، رسالة ماجستير بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ١٩٧٥م.

[2] E. Pauty, «Minbar de Kus», *Melanges Maspero,* Le Caire - IFAO 1940, III, pp.41-48.

حُسَامُ الدِّين لاجين لجامع ابن طُولُون سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م . وقد ظَلَّ هذا المِنْبَرُ حتى سنة ١٨٤٥م حين شَاهَدَه المستر جيمس ويلد، أمين متحف سوان بلندن، ورَسَمَه رَسْمًا دَقيقًا يتَّضِحُ منه أنَّه كان يحتوي في كلِّ جانِبٍ على شَكْلٍ هَنْدَسي دائري كبير في وَسَطِه نَجْمَة تُحيطُ به ثمانُ حَشْواتٍ كبيرة مُثَمَّنَة تتبادَل بين نُجُومٍ وأشْكالٍ عربية، وعلى السُّلَّم وأسْفَلَه أنْصَافٌ من أربعة أشْكالٍ من الرَّسْم نفسه؛ ثم امْتَدَّت إليه الأيْدي ونَزَعَت منه حَشْواته المُتَّخَذَة من السَّاج الهندي (التك) والعَظْم والأبَنُوس، اشْتَرَى منها مُتَحَف سوث كينسينجتون (مُتْحَف فكتوريا وألْبِرت بلَنْدَن الآن) سِتَّ حَشْوات مُسْتَطيلة من الخَشَب وتَوَزَّع الباقي على سَائِر متاحِف أوروبا إلى أنْ تَمَكَّن هرتز باشا HERZ PACHA من الحُصُولِ على بعضها وصَنَعَ نماذِجَ لبعضها الآخَر من صُوَرٍ حَصَلَ عليها، وأعَادَ المِنْبَرَ إلى أصْلِه بمُساعَدَة الرَّسْم الذي وَضَعَه المستر جيمس ويلد[1] . والثَّاني هو مِنْبَرٌ مُعاصِرٌ عَمِلَه الأميرُ بَكْتَمُر الجوكَنْدار، سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، لجامِع الصَّالح طَلائِع خارِج بابِ زَوِيلَة . ثم مِنْبَر جَامِع قُوصُون بالشَّارِع خارِج بابِ زَوِيلَة ويَرْجِعُ تأريخُه إلى سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م، وهو مَحْفوظٌ الآن بمَتْحَف الفَنّ الإسْلامِي بالقَاهِرَة برقم ١٠٩٢ . ويَحْتَفِظُ المَتْحَفُ نفسه تحت رقم ٢٩٨٣ بالقسم العُلْوي من مَدْخَلِ المِنْبَر الحَجَري لجامِع الخَطيري ببُولاق، الذي شُيِّدَ سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م . أمَّا

---

(١) محمود عكوش : تاريخ ووصف الجامع الطولوني ، القاهرة ١٩٢٧م، ٩٥ـ٩٨.

أقْدَمُ مِنبَرٍ رُخامي ما زالَ مَوْجُودًا من هذه الفَتْرَة فمِنْبَرُ جَامِع آقْسُنْقُر بباب الوَزير وهو مُؤَرَّخٌ في سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م، ومِنْبَرُ جامِع شَيْخُون بشارع الصَّليبَة ويليه مِنْبَرُ جَامِع ومَدْرَسَة السُّلْطان حَسَن وتأريخه سنة ٧٥٧-٧٦٤هـ/١٣٥٦-١٣٦٣م[1].

المحَـــاريب

أمَّا «مَحــــارِيبُ» مَساجِد القَاهِرَة ومَدَارِسِها فإنَّ أقْدَمَ أُنْموذَجٍ مُؤَكَّدٍ لها هو المِحْرابُ المُجَوَّف المَوْجُود بجامِع أحمد بن طُولُون، ما عَدَا كُسْوة طاقيته الخَشَبِيَّة والمُزَخْرَفَة بالألْوانِ، وكذلك الشَّريط المُـزَخْرَف بالفُسَيْفِساء والحَشْوات والأشْرِطَة الرُّخامية التي تُغَطِّي سَطْح تَجْويف المِحْراب، فإنَّها من عَمَلِ السُّلْطانِ المَنْصُور لاجين سنة ٦٩٦هـ/١٢٩٦م. ووَصَلَ إلينا أيضًا المِحْرابُ الفاطِمي للجامِع الأزْهَر والمِحْرابُ الأصْلي لجامِع الحاكم بأمْر الله. وانْتَشَرَ في العَصْرِ الفاطِمي كذلك نَوْعان آخَران من المحاريب: المحاريبُ المُسَطَّحَة من الجَصِّ، والتي نَجِدُ نماذِجَ لها في جَامِع ابن طُولُون، والمحاريبُ الخَشَبية المُتَنَقِّلَة التي يحْتَفِظُ مَتْحَفُ الفَنِّ الإسْلامِي بالقَاهِرَة بنماذِجَ لها اسْتُقْدِمَت من الجامِع الأزْهَر ومَشْهَدِ السَّيِّدَة نَفِيسَة ومَشْهَدِ السَّيِّدَة رُقَيَّة.

---

(1) راجع G. S. KARNOUK, «Form and Ornement of the Cairen Bahri Minbars», *An. Isl.* XVII (1981), pp.113-39.

ولكن المحاريبَ التي خَلَّفَها لنا العَصْرُ المَمْلُوكِي هي دون شَكٍّ أرْوَعُ مَحاريب مَساجِد ومَدارِس القَاهِرَة التي اسْتُخْدِم فيها الرُّخامُ المُلَوَّن والصَّدَفُ بأسْلُوبٍ فَنّي رائِع. وأقْدَمُ وأفْخَمُ هذه المحاريب ـ التي وَصَلَت إلينا ـ مِحْرابُ القُبَّة المَنْصُوريَّة ببَيْن القَصْرَيْن، ومِحْرابُ المَدْرَسَة الطَّيْبَرْسية بجوار الجَامِع الأَزْهَر الذي لَفَت انْتباه المَقْريزي وذَكَرَ أنَّه من الرُّخام المُذَهَّب وجَميعَه شَكْل المحاريب، وبالفِعْل فإنَّ صِنَاعَة الرُّخام في مِحْراب هذه المَدْرَسَة من أدَقّ ما وُجِدَ من نَوْعِها وأنْدَرِه، فالجزءُ الأسْفَل منه مُكَوَّنٌ من طاقاتٍ مُقَرْنَصَة محمولة على عُمُدٍ رُخامية صَغيرَة لها تيجان رخامية أيضًا وتواشيحها من رُخَام مَدْقُوق به فروع زخرفية بارزة، وباقي المِحْراب من رُخامٍ أبيض لُبِّسَت فيه ألْوانُ الرُّخام بأشكالٍ زُخْرُفِية وحُلِّيت تواشيحُه وأعْلاهُ بفسيفِساء مُذَهَّبَة. ولا يَقِلّ عنها فَخامَةً مِحْرابُ المَدْرَسَة الآقْبُغـاوية المقابلة لها ومِحْرابُ جَامع ومَدْرَسَة النَّاصِر حسن ومِحْرابُ جَامِع آقْسُنْقر ومِحْرابُ جَامِع المارْديني ومِحْرابُ المَدْرَسَة الظَّاهِرية بَرْقُوق ومِحْرابُ الجامِع المُؤَيَّدي[1].

---

[1] راجع حسين مصطفى رمضان: المحاريب الرخامية في قاهرة المماليك البحرية، رسالة ماجستير بكلية الآثار ـ جامعة القاهرة ١٩٨٢م.

*

* *

وكما شارَكَت المَدارِسُ المَسَاجِدَ الجامِعَة في إقامَة الجُمَع، فإنَّ الجَوامِعَ اسْتَمرَّت أيضًا في عَقْدِ مَجالس العِلْمِ والتَّدْريس، وعلى الأَخَصِّ المساجِدُ الجامِعَةُ الكبرى : الجامِعُ الأَزْهَر، وجَامِعُ الحاكِم، وجَامِعُ ابن طُولُون، وجامَعُ عَمْرو . فرَغْم انْقِطاعِ الخُطْبَة من «الجامِعُ الأَزْهَر» طَوالَ العَصْرِ الأَيُّوبي، لم يَفْقِد أبَدًا مكانَتَه باعتباره جَامع المَدينَة[1] . وعندما جَدَّدَ المَنْصُور لاجِين جَامِعَ ابن طُولُون، سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م، «رَتَّبَ فيه دُرُوسًا لإلْقاءِ الفِقْهِ على المَذاهِبِ الأربعة ... ودَرْسًا يُلْقى فيه تَفْسيرُ القُرْآن الكريم، ودَرْسًا لحَديثِ النَّبي ﷺ، ودَرْسًا للطِّبّ»[2] . وفَعَلَ الشيء نفسه الأميرُ رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْس الجاشَنْكير عندما انْتُدِب لإصْلاحِ «جَامِع الحاكِم» في أعْقابِ زِلْزال سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م ، «فرَتَّبَ فيه دُرُوسًا أربعة لإقْراءِ الفِقْهِ على مَذاهِب الأئِمَّة الأربعة ودَرْسًا لإقْراءِ الحَديثِ النَّبوي، وجَعَلَ لكُلِّ دَرْسٍ مُدَرِّسًا وعِدَّةً من الطَّلَبَة»[3] . كذلك فقد قَامَ الأميرُ يَلْبُغَا العُمَري الخَاصَّكي بتَجديدِ دَرْسٍ بجامِع ابن طُولُون، سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، فيه

---

(١) راجع لتفاصيل أكثر حول دور الأزهر في العصر المملوكي أيمن فؤاد سيد : «الأزهر تاريخه وتطوره» ، المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦) ، ١٤-٢٠.

(٢) المقريزي : المواعظ والاعتبار ٤: ٦٩.

(٣) المصدر نفسه ٤: ١١٤.

سبعةُ مُدَرِّسين للحَنَفِيَّة، وقَرَّرَ لكُلِّ فَقِيهٍ من الطَّلَبة في الشهر أربعين درهمًا وأرْدَبّ قَمْح، الأمْرُ الذي أدَّى إلى انْتِقالِ جَماعَةٍ من الشَّافِعِيَّة إلى مَذْهَبِ الحَنَفِيَّة»[١]. وبَلَغَت حَلْقاتُ العِلْم في «جامِعِ عَمْرو»، في أواسِط القرن الثَّامِن الهجري/ الرابع عشر الميلادي «بِضْعًا وأربعين حَلْقَة لإقْراء العِلْم لا تَكادُ تُبْرَحُ عنه»[٢].

وبذلك أصْبَحَت بعضُ المَسَاجِدِ الجامِعَة مَراكِزَ تعليمية مُهِمَّة تُعادِلُ أيَّة مَدْرَسَةٍ مَمْلوكيةٍ أخرى. فقد ظَلَّت هذه الجَوامِعُ مَراكِزَ التَّعْليم في مِصْر قُرُونًا قَبْل ظُهُورِ المَدْرَسَة، حيث كان الجَامِعُ هو المكانُ العامُّ الوَحِيد للتَّعْليم، وكان العُلَماءُ يُدَرِّسُون فيه سَواءً بمُقابِلٍ أو بدون مُقابِل، واسْتَمرَّ كذلك خِلالَ القَرْنَيْنِ السَّادِس والسَّابع للهجرة/ الثَّاني عشر والثَّالِث عشر للميلاد عندما بدأت «المَدْرَسَةُ» تَسْتَقِرُّ في العاصِمَة المِصْرِيَّة.

ولم يكن من الممكن لوَظيفَة المَدْرَسَة أنْ تَسْتَمِرَّ دون الاعْتمادِ على نِظَامِ «الوَقْـفِ» أو «الأحْبَـاس»، فكان رِيعُ الأوْقافِ هو المَصْدَرَ المالي الرَّئِيس للصَّرْفِ على وَظيفَةِ المَدْرسَة من رَواتِب للفُقَهاءِ والشُّيوخ ومَعاليم للطَّلَبة. إضافَةً إلى ما يُقَدَّم من أشياء عَيْنِيَّة تُعينُ على إعاشَة الطَّلَبة وشُيُوخِهم، وبالتالي فإنَّ النَّشَاطَ التَّعْليمي الوَاسِع الذي عَرَفَتْه مَدارسُ القَاهِرَة والأقاليم

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٧٩.

(٢) المصدر نفسه ٤: ٣٧.

في العَصْرِ المَمْلُوكِي هو في الحَقيقَة نِتاجٌ طَبيعيٌّ لازْدِهارِ الأوْقافِ وانْتِشَارِها في هذا العَصْر[١].

وكان انْقِطاعُ وُصُولِ مُغَلِّ أوْقافِ المَدْرَسة مَدْعَاةً لتَوَقُّفِ النَّشاطِ التَّعْليمي للمُؤَسَّسَة. فعندما قَـرَّرَ الأُميرُ آقْسُنْقُر النَّاصِرِي دَرْسًا في جَامِعِه بباب الوَزير فيه عِدَّةٌ من الفُقَهَاءِ، وَقَفَ عليه ضَيْعَةً من قُرَى حَلَب تُغِلُّ في السَّنَة مئة وخمسين ألْف دِرْهَم فِضَّة، فلمَّا توَقَّفَ وُصُولُ مُغَلّ وَقْفِ الجَامِع بسبب الفِتَنِ التي حَدَثَت ببلاد الشَّام في أعْقابِ وَفاةِ الظَّاهِر بَرْقُوق، «تَعَطَّلَ الجامِعُ من أرْبابِ وَظائِفِه إلَّا الأذان والصَّلاة وإقامَة الخُطْبَةِ في الجُمَع والأعْيادِ»[٢].

---

(١) ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ٢: ١٨٣، والتعريف بابن خلدون ٢٧٩؛ محمد محمد أمين: الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٨٠م، ٢٤٢.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار ٤: ٢٤٠.

ثَبَتُ المَصَادِرِ والمَرَاجِعِ وبَيَانُ طَبَعَاتِهَا

أ- المَصَادِرُ العَرَبِيَّة

ابن إياس (أبو البَرَكات محمد بن أحمد بن إياس الحنفي) المتوفَّى سنة ٩٣٠هـ/١٥٢٤م.

«بَدائِعُ الزُّهور في وَقائِع الدُّهُور»، ١ـ٥، تحقيق محمد مصطفى، النشرات الإسلامية ـ ٥، القاهرة ـ فيسبادن ١٩٦١ـ١٩٧٥م.

ابنُ أيْبَك الدَّواداري (أبو بَكْر عبد الله بن أيْبَك) المتوفَّى بعد سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م.

«كَنْزُ الدُّرَر وجَامِعُ الغُرَر» ـ الجزء الخامس المسمى «الدُّرَّة السَّنِيَّة في أخْبارِ الدَّوْلَة العَبَّاسية»، تحقيق دوروتيا كراولسكي، بيروت ـ ١٩٩٢، الجزء السَّادس المسمى «الدُّرَّة المُضِيَّة في أخبارِ الدَّوْلَة الفاطِمية»، تحقيق صلاح الدين المنجد، الجزء السابع المسمى «الدُّر المَطْلوب في أخْبار مُلُوك بني أيُّوب» تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، الجزء الثامن المسمى «الدُّرَّة الزَّكِيَّة في أخْبَارِ الدَّوْلَة التُّرْكية»، تحقيق أولرخهارمان، الجزء التاسع المسمى «الدُّرّ الفَاخِر في سِيرَةِ الملك النَّاصر»، تحقيق هانس روبرت رويمر، القاهرة ـ المعهد الألماني للآثار ١٩٦٠ـ١٩٧٢م.

بَيْبَرْس الدَّوادار (الأمِير رُكْنُ الدِّين بَيْبَرْس المَنْصُوري) المتوفَّى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٥م.

«زُبْدَةُ الفِكْرَة في تارِيخِ الهِجْرَة»، تحقيق رونالد س. ريتشاردز، بيروت ـ المعهد الألماني للأبحاث الشرقية ١٩٩٨م.

ابنُ تَغْري بِرْدي = أبو المحَاسِن.

الجَزيري (عبد القادر بن محمد بن عبد القادر بن إبراهيم الأنصاري الحلَبي) من أهل القرن العاشر الهجري
«الدُّرَرُ الفَرائِدُ المُنَظَّمَة في أخْبارِ الحاجّ وطَرِيق مَكَّة المُعَظَّمَة»، ١-٣، أعده للنشر حمد الجاسر، الرياض - دار اليمامة ١٩٨٣م

ابن حَبِيب (بَدْرُ الدِّين أبو محمَّد الحَسَن بن عُمَر بن الحَسَن) المتوفَّى سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م.
«تَذْكِرَةُ النَّبِيه في أيَّام المَنْصُور وبَنِيه»، ١-٣، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة - دار الكتب المصرية ١٩٧٨-١٩٨٣م.

ابنُ حَجَر العَسْقَلاني (شِهَابُ الدِّين أبو الفَضْل أحمد بن علي) المتوفَّى سنة ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م.
«إنْباءُ الغُمْر بأبْناء العُمْر»، ١-٣، تحقيق حسن حبشي، القاهرة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
«الدُّررُ الكامِنَة في أعْيان المِئَة الثَّامِنَة»، ١-٥، تحقيق محمد سيِّد جاد الحَق، القاهرة - دار الكتب الحديثة ١٩٦٦م.

ابن خَلْدُون (وَلِيّ الدِّين أبو زَيْد عبد الرَّحْمَن بن محمد الحَضْرَمِي الإشْبِيلي) المتوفَّى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م.
«التَّعْرِيفُ بابن خَلْدُون ورِحْلته غَرْبًا وشَرْقًا»، عارَضَه بأصُولِه وعَلَّقَ حَواشِيه محمَّد بن تاوِيتالطَّنْجِي وراجَعَه وأعَدَّه للنَّشْر إبراهيم شَبُّوح، تونس - القيروان للنشر ٢٠٠٦م.
«كِتابُ العِبَر ودِيوان المُبْتَدأ والخَبَر في أيَّام العَرَبِ والعَجَمِ والبَرْبَرِ ومَنْ

جَاوَرَهُم من ذَوِي السُّلْطانِ الأَكْبَر»، ١ـ١٤، قَرأه وعارَضَه بأصُولِ المُؤلِّف مجموعة من العُلَماء بإشْراف إبراهيم شَبُّوح، تونس ـ القيروان للنشر ٢٠٠٦ـ٢٠١٦م.

ابنُ خَلِّكان (شَمْسُ الدِّين أبو العَبَّاس أحمد بن محمد) المتوفَّى سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م.
«وَفَيَاتُ الأَعْيَانِ وأَنْبَاءُ أَبْنَاءِ الزَّمان»، ١ ـ ٨، تحقيق إحسان عَباس، بيروت ـ دار الثقافة ١٩٦٩ـ١٩٧٢م.

ابن دُقْماق (صَارِمُ الدِّين إبراهيم بن محمَّد بن أَيْدُمُر العَلائي) المتوفَّى سنة ٨٠٩هـ/١٤٠٦ م.
«الانْتِصار لواسِطَة عَقْدِ الأَمْصَار»، ٤ـ ٥، نشره فولرز، القاهرة ١٨٩٤م.

ابن زُنْـبُل (أحمد بن علي الرَّمَّال) المتوفَّى سنة ٩٨٠هـ/١٥٦٢م.
«واقِعَةُ السُّلْطان الغُوري مع سَلِيم العُثْماني ـ نِهايَة المَمالِيك بين التَّاريخ والحكْي الشَّعْبِي»، تقديم ودراسة قاسم عبده قاسم، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٤م.

زَيْنُ الدِّين المَلِيباري (أحمد زَيْن الدِّين بن عبد العَزِيز المَعْبَرِي) المتوفَّى سنة ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م.
«تُحْفَةُ المُجَاهِدِين في أَحْوالِ البُرْتُغاليين»، تحقيق محمد سعيد الطريحي، بيروت ـ مؤسسة الوفاء ١٩٨٥م.

السُّبْكِي (تاجُ الدِّين أبو النَّصْر عبد الوَهَّاب بن علي بن عبد الكافي) المتوفَّى سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م.
«طَـبَقاتُ الشَّافِعِيَّة الكُبْرى»، ١ـ١٠ + الفهارس العامة، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطَّناحي، القاهرة ـ هَجَر للطباعة والنشر١٩٩٢ م.

السَّخَاوي (شَمْسُ الدِّين أبو الخَيْر محمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن محمَّد) المتوفَّى سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧م.

«الإعْلانُ بالتَّوْبيخ لمن ذَمَّ أَهْلَ التَّارِيخ» ، نشره فرانز روزنتال في كتاب علم التاريخ عند المسلمين ترجمة صالح أحمد العلي ، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٣ م، ٣٨١ـ٧٢٥.

«الجَوَاهِرُ والدُّرَر في تَرْجَمَةِ شَيْخِ الإسْلام ابن حَجَر» ، نسخة المكتبة الوطنية في باريس رقم ٢١٠٥.

«الضَوْء اللَّامِع لأَهْلِ القَرْن التَّاسِع» ، ١ـ١٢، القاهرة ـ مكتبة القدسي ١٣٥٣ـ١٣٥٥ هـ.

السُّيُوطي (جَلالُ الدِّين أبو الفَضْل عبد الرَّحمن بن أبي بكر بن محمد) المتوفَّى سنة ٩١١هـ/ ١٥٠٥م.

«كَشْفُ الصَّلْصَلَة عن وَصْفِ الزَّلْزَلَة»، دراسة وتحقيق محمد كمال الدين عز الدين، بيروت ـ عالم الكتب ١٩٨٧م.

شَافِعُ بن علي (ناصِرُ الدِّين شَافِع بن علي بن عبَّاس بن عبد الظَّاهِر السَّعْدي) المتوفَّى سنة ٧٣٠هـ/١٣٣٠م.

«الفَضْلُ المأثُور من سِيرَة السُّلْطَان المَلِك المَنْصُور»، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، بيروت ـ المكتبة العصرية ١٩٩٨م.

ابن شاهِين الظَّاهِري (غَرْسُ الدِّين خَلِيل بن شَاهِين) المتوفَّى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م.

«زُبْدَةُ كَشْفِ المَمالِك وبَيَان الطُّرُقِ والمَسَالِك» ، اعتنى بتصحيحه بول رافيس، باريس ١٨٩٤م.

ابن شَدَّاد (عِزُّ الدِّين محمَّد بن علي بن إبراهيم) المتوفَّى سنة ٦٨٤هـ/١٢٨٥م.
«تَارِيخُ المَلِك الظَّاهِر»، تحقيق أحمد حطيط، بيروت ١٩٨٤م.

الصَّفَدِي (صَلاحُ الدِّين خَلِيل بن أَيْبَك الصَّفَدِي) المتوفَّى سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٣م.
«الوافي بالوَفَيات»، ١ ـ ٣٠، تحقيق مجموعة من العلماء (النشرات الإسلامية ـ ٦)، إستانبول ـ بيروت ١٩٤٩-٢٠٠٩م.

الصَّيْرَفي (علي بن داوُد الجَوْهَري) المتوفَّى سنة ٩٠٠هـ/١٤٩٤م.
«نُزْهَةُ النُّفُوس والأَبْدَان في تَوارِيخ الزَّمان» ١ ـ ٣، تحقيق حسن حبشي، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٠-١٩٧٣م.

ابن عبد الظَّاهِر (القاضي محيي الدِّين أبو الفَضل عبد الله بن رَشِيد الدِّين عبد الظَّاهِر بن نَشْوان السَّعْدي المصري) المتوفَّى سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٣م.
«تَشْرِيفُ الأيَّام والعُصُور في سِيرَة المَلِك المَنْصُور»، ١ ـ ٢، تحقيق مراد كامل، القاهرة ١٩٦١م.
«الرَّوْضُ الزَّاهِر في سِيرَة المَلِك الظَّاهِر»، تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ـ بيروت ١٩٧٦م.

ابن عَرَبْشَاه (شِهابُ الدِّين أبو العَبَّاس أحمد بن محمَّد الدِّمَشْقي) المتوفَّى سنة ٨٥٤هـ/١٤٥٠م.
«عَجَائِبُ المَقْدُور في نَوائِب تَيْمُور»، تحقيق أحمد فايز الحمصي، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٦ م.

العَيْنِي (بَدْر الدِّين أبو محمَّد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد) المتوفَّى سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م.

«الرَّوْضُ الزَّاهِر في سِيرَة الملك الظَّاهِر «طَطَر»»، تحقيق هانس أرنست، القاهرة ـ دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٢م.

«السَّيْفُ المُـهَنَّد في سِيرَة الملك المُـؤَيَّد»، حقَّقه وقَدَّمَ له فهيم محمد شلتوت، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٧م.

«عِقْدُ الجُمان في تارِيخ أَهْلِ الزَّمان»، عَصْر سَلاطين المَمالِيك، ١ ـ ٤، تحقيق محمَّد محمَّد أمين، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٨٧-١٩٩٢م.

ابن فَضْلِ الله العُمَري (شِهابُ الدِّين أحمد بن يحيى) المتوفَّى سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٩م.

«مَسَالِكُ الأَبْصَار في مَمالِك الأَمْصَار» (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن)، قابله بأصوله وأعَدَّه للنَّشْر أيمن فؤاد سيد، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٥م.

القَلْقَشَنْدي (شِهَابُ الدِّين أبو العَبَّاس أحمد بن عليّ) المتوفَّى سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.

«صُبْحُ الأَعْشَى في صِنَاعَة الإِنْشَا»، ١-١٤، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩١٢-١٩٣٨م.

أبو المَحَاسِن (جمالُ الدِّين يُوسُف بن تَغْري بِرْدي) المتوفَّى ٨٧٤هـ/١٤٧٠م.

«المَنْهَلُ الصَّافي والمُسْتَوْفي بعد الوافي»، ١ ـ ١٣، تحقيق محمد محمد أمين، القاهرة ـ مركز تحقيق التراث ١٩٨٤-٢٠٠٩م.

«النُّجُومُ الزَّاهِرَة في مُلُوكِ مِصْر والقاهِرَة»، ١-١٢، بتعليقات محمد رمزي بك،

القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٢٩-١٩٥٦م، ١٣-١٦، تحقيق فهيم محمد شلتوت وجمال محمد محرز وإبراهيم علي طرخان وجمال الدين الشيال، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠-١٩٧٢م.

المَقْريزي (تَقِيُّ الدِّين أبو العَبَّاس أحمد بن علي بن عبد القادر) المتوفَّى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م.

«اتِّعَاظُ الحُنَفا بأخْبَار الأئِمَّة الخُلَفا» ، ١ ـ ٤ ، قابله بأصوله وأعدَّه للنشر أيمن فؤاد سيد ، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ٢٠١٦م.

«إغاثَةُ الأُمَّة بكَشْفِ الغُمَّة»، تحقيق محمد مصطفى زيادة وجمال الدِّين الشَّيَّال، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م.

«دُرَرُ العُقُود الفَرِيدَة في تَرَاجِم الأعْيَان المُفِيدَة» ، ١ ـ ٤ ، حَقَّقَه وعَلَّق عليه محمود الجليلي ، بيروت دار الغَرْب الإسلامي ٢٠٠٢م.

«الذَّهَبُ المَسْبُوك في ذِكْرِ مَنْ حَجَّ من الخُلَفاءِ والمُلُوك» ، حققه جمال الدين الشَّيَّال ، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٧م .

«السُّلُوك لمَعْرِفَة دُوَلِ المُلُوك» ، ١ ـ ٤ ، الأوَّل والثَّاني في ستة أقْسام بتحقيق محمد مصطفى زِيادَة ، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٤-١٩٥٨م ،و الثَّالث والرَّابع في ستة أقسام بتحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٠-١٩٧٣م .

«المُقَفَّى الكبير ـ كِتابٌ»، ١ ـ ٨، تحقيق محمد اليعلاوي، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٩١م.

«المَوَاعِظُ والاعْتِبار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثار»، ١ ـ ٥، قابله بأصُوله وأعَدَّه للنَّشْر أيمن فؤاد سيد، الطَّبْعَة الثَّانية، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م .

النُّعَيْمي (مُحْيي الدِّين أبو المَفَاخِر عبد القادِر بن محمَّد) المتوفَّى سنة ٩٢٧هـ/١٥٢١م.
«الدَّارِسُ في تارِيخ المَدارِس»، ١ـ٢، عُنِي بنَشْرِه وتَحْقِيقِه جَعْفَر الحَسَني، دمشق ـ المجمع العلمي العربي ١٣٦٧ـ١٣٧٠هـ/١٩٤٨ـ١٩٥٠م.

٢ـ المَراجِعُ العَرَبيَّةُ والمُعَرَّبَة

إبراهيم حسن سعيد
«الجَيْشُ في عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك»، القاهرة ١٩٦٣م.
إبراهيم علي طَـرْخان
«مِصْرُ في عَصْرِ دَوْلَة المَمالِيك الجَرَاكِسَة»، القاهرة ١٩٦٠م.
أحمد حُطِيط
«قَضَايَا من تَارِيخِ المَمالِيك السِّياسِي والحَضَارِي»، بيروت ـ الفرات للنشر والتوزيع ٢٠٠٣م.
أحمد دَرَّاج
«إيضاحاتٌ جَدِيدَة عن التَّحَوُّل في تِجارَة البَحْر الأحْمَر منذ مَطْلَع القَرْنِ التَّاسِع الهجري»، المحاضرات العامة للجمعية التاريخية المصرية (الموسم الثقافي ١٩٦٧/ ١٩٦٨)، القاهرة ١٩٦٨، ١٨٥ـ٢٢٠.
«المَمالِيكُ والفِرِنْجُ في القَرْنِ التَّاسِع الهجري/ الخَامِس عَشَر الميلادي»، القاهرة ـ دار الفكر العربي ١٩٦١م.

أحمد عبد الرَّازق

«عَوامِلُ انْهِيارِ دَوْلَةِ سَلاطِين المماليك في مِصْر»، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٧م.

أحمد فكري

«خَصَائِصُ عِمارَة القَاهِرَة في العَصْرِ الأَيُّوبي»، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، القاهرة ـ دار الكتب المصرية ١٩٧٠-١٩٧١م، ١: ١٦١-١٩٢م.

«مَسَاجِدُ القَاهِرَة ومَدَارِسُها»، ١-٣، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٦١-١٩٦٩م.

أحمد فؤاد سيد

«تارِيخُ مِصْرَ الإِسْلامِيَّة زَمَن سَلاطِين بني أَيُّوب»، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ٢٠٠٢م.

«مُلاحَظاتٌ جَدِيدَة حَوْلَ ظُهُور المَمالِيك» في كتاب دراسات عربية وإسلامية مهداة إلى أديب العربية الكبير أبي فهر محمود محمد شاكر بمناسبة بلوغه السبعين، القاهرة ١٩٨٢م، ٣٩-٨٠.

أحمد مختار العَبَّادي

«قِيامُ دَوْلَة المَمالِيك الأُولى في مِصْر والشَّام»، بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٨٦م.

أَنْطُون خليل ضُومَط

«الدَّوْلَةُ المَمْلوكية، التَّارِيخُ السِّياسِي والاقْتِصادِي والعَسْكَرِي»، بيروت ١٩٨٢م.

إيمان عمر شكري

«السُّلْطانُ بَرْقُوق مُؤَسِّسُ دَوْلَة المَمالِيك الجَرَاكِسَة ٧٨٤-٨٠١هـ/ ١٣٨٢-

١٣٩٨م من خلال مخطوط عِقْد الجُمان في تارِيخ أهْلِ الزّمان لبَدْرِ الدِّين العَيْني»، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ٢٠٠٢م.

أيمن فؤاد سيد

«الجامِعُ الأزْهَرُ تارِيخُه وتَطَوُّرُه»، المجلة التاريخية المصرية ٥٠ (٢٠١٦)، ٧ـ ٣٢.

«الدَّوْلَةُ الفاطِمِيَّةُ في مِصْر ـ تَفْسِيرٌ جَدِيد»، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٦م.

«القاهِرَةُ خِطَطُها وتَطَوُّرُها العُمْراني»، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٨م.

«الكِتابَةُ التَّاريخِيَّةُ ومَناهِجُ النَّقْدِ التَّارِيخي عند المُؤَرِّخِين المُسْلِمِين»، القاهرةـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٧م.

«المَقْرِيزِي وكِتابُه المَواعِظ والاعْتِبار في ذِكْرِ الخِطَطِ والآثار»، لندن ـ مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي ٢٠١٣م.

بيتر ثوراو

«أسَدُ مِصْر، السُّلْطانُ الظَّاهِر بَيْبَرْس والشَّرْقُ الأدْنَى»، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٥م.

تركي بن فَهْد آل سَعُود

«نَشْأَةُ دَوْلَة المَمالِيك (٦٤٨هـ/١٢٥٠م ـ ٦٥٨هـ/١٢٦٠م) إعادَةُ قِراءَة للمَصَادِر»، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٧م.

حسن الباشا

«دِراسَةٌ جَدِيدَةٌ في نَشْأة الطِّراز المِعْمارِي للمَدْرَسَة المِصْرِيَّة ذات التَّخْطِيط المُتَعامِد»، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٣ (١٩٨٩).

حسن عبد الوهاب

«تارِيخُ المَساجِد الأَثَرِيَّة التي صَلَّى فيها فَرِيضَة الجُمُعَة حَضْرَةُ صاحِب الجَلالَة الملِك الصَّالِح فارُوق الأَوَّل»، ١ـ٢، القاهرة ـ مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٦م.

حَكِيم أمين عبد السَّيِّد

«قِيامُ دَوْلَة المَمالِيك الثَّانِية»، القاهرة ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

حَمُّود بن محمَّد النَّجِيدي

«التَّطَوُّر الوَزارِي في مِصْر المَمْلُوكِية»، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ٢٣ (رجب ١٤١٩هـ)، ٢٦١ـ ٣٤٩.

خالِد علي عبد القادر

«المَمالِيكُ البَحْرِيَّة في مِصْر ـ دِراسَةٌ مُجْتَمَعِيَة تارِيخِيَّة (٦٤٨ـ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠ـ١٣٨٢م)»، القاهرة ـ دار الفكر العربي ٢٠١٤م.

رُوزِنْتال، فرانْز

«مَناهِجُ العُلَماء المُسْلِمِين في البَحْثِ العِلْمِي»، ترجمة أنيس فريحة ومراجعة وليد عرفات، بيروت ١٩٦١م.

ستانلي لين بول

«تارِيخُ مِصْرَ في العُصُورِ الوُسْطَى»، ترجمة وتحقيق وتعليق أحمد سالم سالم، مراجعة وتقديم أيمن فؤاد سيد، القاهرة ـ الدار المصرية اللبنانية ٢٠١٤م.

سعيد عبد الفتاح عاشور

«الأيُّوبِيُّون والمَمَالِيك في مِصْر والشَّام»، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٩٠م

«العَصْرُ المَمالِيكي في مِصْر والشَّام»، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٧٦م.

«المُجْتَمَعُ المصري في عصر سلاطِين المَمالِيك»، القاهرة ـ دار النهضة العربية ١٩٦٢م.

السَّيِّد الباز العَرِيني

«الشَّرْقُ الأَدْنَى في العُصُورِ الوُسْطَى ـ الأيُّوبِيُّون»، بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٦٧م.

«المَمالِيك (أو الفُرُوسيَّة في مِصْر في عَصْرِ سلاطِين المَمالِيك»)، بيروت ـ دار النهضة العربية ١٩٦٨م.

السَّيِّد صلاح الدَّيبكي

«أَوْلادُ النَّاس في عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك»، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ٢٠١٦م.

صُبْحي لَبِيب

«التِّجارَة الكارِمِيَّة وتِجارَة مِصْر في العُصُور الوُسْطَى»، المجلة التاريخية المصرية ٤/٢ (١٩٥١)، ٥-٦٣.

عبد الله يوسف الغُنيم
«سِجِلُّ الزَّلازِل العَرَبي ـ أحْداثُ الزَّلازِل وآثارُها في المَصَادِر العَرَبية»، الكويت ٢٠٠٢م.

عبد المنعم ماجد
«أضْواءٌ جَدِيدَة على مَوْقِعَة عَيْنْ جالُوت»، الموسم الثقافي للجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٧٦-١٩٧٧ م، القاهرة ١٩٧٨ م، ١٥١-١٦٨.
«التَّارِيخُ السِّياسِي لدَوْلَة سَلاطِين المَمالِيك في مَصْر ـ دراسة تحليلية للازدهار والانهيار»، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٨٨م.
«طُومان باي آخِرُ سَلاطِين المَمالِيك في مِصْر ـ دراسة للأسْباب التي أنْهَت حُكْمَ دَوْلَة المَمالِيك في مِصْر»، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٨م.
«نُظُمُ دَوْلَة سَلاطِين المَمالِيك ورُسُومُهُم في مِصْر»، ١ ـ ٢، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو ١٩٧٩-١٩٨٢م.

عثمان محمد علي عطا
«الأزَماتُ الاقْتِصادِية في مِصْر في العَصْرِ المَمْلُوكي وأثَـرُها السِّياسِي والاقْتِصادِي والاجْتِماعِي ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧ م»، القاهرة ـ سلسلة تاريخ المصريين ٢١٣، ٢٠٠٢م.

عطية القوصي
«تارِيخُ دَوْلَة الكُنُوز الإسْلامِيَّة»، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٦م.

علي عمر
«دَوْلَةُ الظَّاهِر بَرْقُوق وابْنُه في مِصْر»، القاهرة ـ شركة نوابغ الفكر ٢٠٠٨م.

عماد أبو غازي
«طُومان باي السُّلْطَانُ الشَّهِيد»، القاهرة ـ ميريت للنشر والمعلومات ١٩٩٩م.

غَيْثاء أحمد نافع
«العَلاقاتُ العُثْمانية المَمْلُوكِية ٨٦٨ـ٩٢٣هـ/١٤٦٤ـ١٥١٧م»، بيروت ـ المكتبة العصرية ٢٠٠٥م.

فايد حمّاد عاشور
«العَلاقاتُ السّياسِيَّة بين المَمالِيك والمُغُول في الدَّوْلَة المَمْلُوكِية الأُولى»، القاهرة ـ دار المعارف ١٩٧٦م.

فريد شافعي
«العِمارَةُ العَرَبيَّة في مِصْرَ الإسْلامِيَّة، عَصْرُ الوُلاة»، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠م.

فؤاد عبد المعطي الصَّيَّاد
«السُّلْطان محمود غازان خان المُغُولي واعْتِناقُه الإسْلام»، القاهرة ـ مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٩م.

قاسِم عبده قاسِم
«السُّلْطانُ المُظَفَّر سَيْفُ الدِّين قُطُز بَطَل مَعْرَكَة عَيْنْ جالُوت»، دمشق ـ دار القلم ١٩٩٨م.
«عَصْرُ سَلاطِين المَمالِيك ـ التَّارِيخُ السّياسِي والاجْتِماعي»، القاهرة ـ عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ١٩٩٨م.

كراتشكوفسكي، إغناطيوس
«تارِيخُ الأَدَب الجُغْرافي العَرَبي»، ١ـ ٢، نقله إلى العربية صلاح الدِّين عثمان هاشم، بيروت ـ دار الغرب الإسلامي ١٩٨٧م.

ليلى عبد الجوَّاد إسْماعيل
«نائِبُ السَّلْطَنَة في القاهِرَة في عَصْرِ دَوْلَة المَمالِيك البَحْرِيَّة»، المؤرخ المصري ١ (١٩٨٨)، ١٥٩ـ٢٢٥.
لين بول = ستانلي

ماجدة مخلوف
«العَلاقاتُ المَمْلُوكِية العُثْمانية والفَتْحُ العُثْماني لِمِصْر» في كتاب تاريخ مصر في العهد العثماني ١٥١٧ـ١٩١٤م، إستانبول ـ إرسيكا ٢٠١٧م، ١٧ـ ٥٤.
محمد عبد الغني الأَشْقَر
«نائِبُ السَّلْطَنَة المَمْلُوكِية في مِصْر»، القاهرة ـ سلسلة تاريخ المصريين ١٩٩٩م.
«الوَزارَة والوُزَراء في عَصْرِ سَلاطِين المَمالِيك»، القاهرة ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب (تاريخ المصريين ٢٨٩) ٢٠١١م.
محسن محمد حسين
«الجَيْشُ الأَيُّوبي في عَهْدِ صَلاحِ الدِّين»، بيروت ـ مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م.
محمد حمزة الحدَّاد
«السُّلْطانُ المَنْصُور قَلاوُون»، القاهرة ـ مكتبة مدبولي ١٩٩٣، ١٩٩٨م.

محمد عبد العال أحمد

«أضْواءٌ جَدِيدَة على إحْياءِ الخِلافَة العَبّاسِيَّة: أسْبابُها ومَواقِفُ حُكّام بَعْض الأقْطارِ الإسْلامِيَّة منها»، القاهرة ١٩٨٧م.

محمد مصطفي زِيادَة

«حَمْلَةُ لوِيس التّاسِع على مِصْر وهَزِيمَتُه في المَنْصُورَة»، القاهرة ـ المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٦١م.

«المُؤَرِّخُون في مِصْر في القَرْن الخَامِس عَشَر الميلادي»، القاهرة ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٩م.

«نِهايَةُ سَلاطِين المَمالِيك في مِصْر»، المجلة التاريخية المصرية ٤ (١٩٥١)، ١٩٧ـ٢٣٨.

محمود رِزْق سليم

«عَصْرُ سَلاطِين المَمالِيك ونِتاجُه العِلْمِي والأدَبِي»، ١ـ٧، القاهرة ١٩٤٧ـ١٩٦٦م.

محمود نَدِيم

«الفَنُّ الحَرْبِي للجَيْشِ المِصْرِي في العَصْرِ المَمْلُوكِي البَحْرِي»، القاهرة ١٩٨٣م.

مصطفى نَجِيب

«نَظْرَةٌ جَدِيدَة على النِّظام المِعْمارِي للمَدارِس المُتَعامِدَة وتَطَوُّرُه خِلال العَصْرِ المَمْلُوكِي الجَرْكَسِي»، مجلة كلية الآثار ـ جامعة القاهرة ٢ (١٩٧٨)،

هاني حَمْزَة

«مِصْرُ المَمْلُوكِيَّة ـ قِراءَةٌ جَدِيدَة»، ١ـ٢، الإسكندرية ـ دار العين للنشر ٢٠١٢ـ٢٠١٤م.

٣- المراجع الأجنبية

ABD AR-RAZIQ, A., «Le vizirat et les vizirs de l'Egypte au temps des Mamluks», An. *Isl.* XVI (1980), pp.183-239.

AMITAI-PREISS, R., «The Fall and Rise of the Abbaside Caliphate», *JAOS* 116 (1996), pp.487-94.

——, *Mongols and Mamluks: The Mamluk-Ilkhanid War 1260-1281*, Cambridge 1995.

AYALON, D., «The End of the Mamluk Sultanate», *SI* 65 (1984), pp.55-7.

——, «The Expansion and Decline of Cairo under the Mamluks and its Background» in *Itineraires d'Orient - Hommages à Claude Cahen, Res Orientales* IV (1994), pp.13-19.

——, «From Ayyubids to Mamluks», *REI* 49 (1981), pp.43-58.

——, «Ibn Khaldun's View of the Mamluk Phenomenon», *JSAI* II (1980), pp.340-49.

——, «Studies in the Structure of the Mamluk Army», *BSOAS* 15 (1953), pp.203 -38, 448-76, 16 (1954); pp.75-90.

——, «Studies on the Transfer of the Abbasid Caliphate from Bagdad to Cairo», *Arabica* VII (1960), pp.41-59.

——, «The System of Payment in Mamluk Military Society». *JESHO* I (1957), pp.37-65.

BAUDEN, FR., «The Sons of al-Nasir Muhammad and the Politics of Puppets: Where did it All Start?», *MSR* XIII/1 (2009), pp.53-81.

BEHRENS ABOUSEIF, D., *Azbakiyya and its Environs from Azbak to Ismail 1476-1879,* Supplement aux Annalles Islamologiques n. 6, Le Caire - IFAO 1995.

——, *Cairo of the Mamluks: A History of the Architecture and its Culture,* Cairo - AUC 2007.

—— , «The Citadel of Cairo Stage for Mamluk Ceremony», *An. Isl.* XXIV (1988), pp.25-79.

The Cambridge History of Egypt, I - Islamic Egypt 640-1517, CARL F. PETRY (ed.), Cambridge 1998.

CASANOVA, P., *Histoire et description de la Citadele du Caire, MMAF* IV (1891), pp.509-761.

CHAMBERLAIN, M., «The Crusader Era and the Ayyubids Dynasty», in *The Cambridge History of Egypte,* I, pp.211-41.

CHAPOUTEAU-REMADI, M., «Chajar ad-Durr (-1257). Esclave, mamluke et sultane d'Egypte» dans CH. A. JULIEN (ed.), *Les Africains* IV, Paris 1977, pp.101-27.

——, «Une institution mal connue: le Khalifat Abbaside du Caire», *CT* 20 (1972), pp.11-23.

——, «Le vizirat sous les premiers Mamluks», *Actes du XXIX Congres International des Orientalistes-Etudes arabes et islamiques,* Paris 1975, I, pp.58-62.

——, «Le vizirat en Egypte à l'époque mamluque», *Revue Tunisienne de Sciences Sociales 40-43,* (1975), pp.87-120.

CHAUVEL, G., *Saladin - Rassembleur de l'Islam,* Paris - Pygmalion 1991.

CRESWELL, K.A.C., *The Muslim Archutecture of Egypt,* Oxford 1953.

DARRAG, A., *L'Egypte sous le règne de Barsbay 825-841/1422-1438,* Damas-IFD 1961.

DOLS, M., *The Black Death in the Middle East,* Princeton 1977.

GARCIN, J.-CL., «La 'Mediterraneisation' de l'empire mamelouke sous les sultans bahrides», *RSO* XLVIII (1973-74), pp.109-16.

——, «The Regim of Circassian Mamluks», in CARL F. PETRY (ed.), *The Cambridge History of Egypt, I-Islamic Egypt 640-1517,* Cambridge 1998, pp.290-317.

HAYAT NASSER AL - HAJJI, *The Internal Affairs in Egypt during the Third Reign of Sultan al-Nasir Muhammad b.Qalawun 709-1309/ 741-1341,* Kuwait 1978.

HOLT, P. M., »Some Observations of the Abbaside Caliphate of Cairo», *BSOAS* 47 (1984), pp.501-78.

HUMPHREYS, R. S., «The Emergence of the Mamluk Army», *SI* XLV (1977), pp.67-99, XLVI (1977), pp.147-182.

IRWIN, R., *The Middle East in the Middle Ages: The Early Mamluk Sultanete 1250-1382, London 1986.*

——, «Under Western Eyes: A History of Mamluk Studies», *MSR* IV (2000), pp.27-51.

JAMES, D., *Qur'ans of the Mamluks,* London 1988.

JOMIER, J., *Le Mahmal et la caravane egyptienne des pélérins de la Mecque,* Le Caire - IFAO 1953.

LEISER, G., «Notes on the Madrasa in Medieval Islamic Society», *MW* LXXVI (1986), pp.3-27.

LEV, Y., *Saladin in Egypt,* Leiden - Brill 1999.

LEVANONI, A., «*Awladal-Nas* in the Mamluk Era», *MSR* IX/2 (2005), pp.201-22.

——, «The Consideration of Aybak's Rule: An Example of Political Instability in the Mamluk State», *Der Islam* 71 (1994), pp.241-54.

——, «The Mamluks in Egypt and Syria: The Circassian Mamluk (784-922/1382-1517)», in *New Cambridge History of Islam,* Cambridge 2010, pp.743-84.

——, «Shagar ad - Durr. A Case of Female Sultanete in Medieval Islam» in *Egypt and Syria in Fatimid Ayyubid and Mamluk Eras,* III, pp.209-18.

——, *A Turning Point in Mamluk History. The Third Reign of al-Nasir Muhammad Ibn Qalawun 1310-1341,* Leiden - Brill 1995.

LITTLE, D., *An Introduction to Mamluk Historiography: An Analysis of Arabic Annalistic and Biographical Sources for the Reign of al-Malik an-Nasir Muhammad ibn Qalawun,* Wiesbaden 1970.

MAKDISI, G., «Muslim Institutions of Learning Eleventh Century Baghdad», *BSOAS* XXIV (1961), pp.1-56.

——, *The Rise of Colleges. Institutions of Learning in Islam and the West,* Edinburgh 1981.

The Mamluks in Egyptian Politics and Society, edited by THOMAS PHILIPP and ULRICH HAARMANN, Cambridge University Press 1998.

NORTHRUP, L.S., «TheBahri Mamluks Sultanate, 1250-1390», in CARL F. PETRY (ed.), *The Cambridge History of Egypt, I-Islamic Egypt 640-1517,* Cambridge 1998, pp.242-89.

——, *From Slave to Sultan. The Career of al-Mansur Qalawun and the Consolidation of Mamluk Rule in Egypt and Syria (676-689A.H./ 1279-1290A.D),* Stutgart 1998.

PETRY, C., *Twilight of Majesty. The Reigns of the Mamluk Sultans al-Ashraf Qayitbay and Qansuh al-Ghawri in Egypt,* Seattle 1993.

RABBAT, N., *The Citadel of Cairo - A New Interpretation of Royal Mamluk Architecture,* E. J. Brill - Leiden 1995.

SIGFRIED, R., *The Black Death,* London 1983.

STEWART, A., «Between Baybars and Qalawun : Under - Age Rulers and Succession in the Early Mamluk Sultanate», *al-Masaq* 19 (2007), pp.47-54.

THORAU, P., «The Battle of Ayn Jalut. A Reexamenation» in P. W. EDBAURY (ed.), *Crusade and Settlement,* Cardiff 1985, pp.336-41.

WIET, G., *L'Egypte arabe de la conquête arabe à la conquête ottomane 642-1517 de l'ère chrétienne, dans Histoire de la nation égyptienne,* publiée sous la direction de G. HANOTAUX, Paris 1937.

——, «Les marchands d'épices sous les sultans mamluks», *Cahiers d'Histoire Egyptienne* VII (1955), pp.81-147.

الرُّمُوزُ والاخْتِصَارات

Abréviations

An. Isl. = *Annalles Islamologiques* (Le Caire)

BIFAO = *Bulletin de l'Institut Francais d'Archéologie Orientale* (Le Caire)

BSOAS = *Bulletin of the School of Oriental and African Studies* (London)

CIA = *Corpus Inscriptiorum Arabicarum*

CT = *Les Cahiers de Tunisie* (Tunis)

EI[2] = *Encyclopédie de l'Islam (deuxième édition)*

EI[3] = *Encyclopédie de l'Islam* (troisième édition)

GAL = *Geschichte der arabischen Litteratur*

IFAO = *Institut Francais d'Archéologie Orientale* (Le Caire)

IFEAD = *Institut Francais d'Etudes Arabes de Damas* (Damas)

JAOS = *Journal of American Oriental Society* (New Haven)

JESHO = *Journal of the Economic and Social History of the Orient* (Leiden)

JSAI = *Jerusalem Studies in Arabic and Islam* (Jerusalem)

MAE = *Muslim Architecture of Egypt*

MMAF = *Memoires publiés pour les membres de la Mission archéologique Francaise au Caire*

MSR = *Mamluk Studies Review* (Chicago)

MW = *Muslim World* (Harvard)

RCEA = *Répertoire Chronologique d'Epigraphie arabe*

RSO = *Rivista degli Studi Orientali* (Rome)

SI = *Studia Islamica* (Paris)

الكشافات التحليلية



الأعلام

المصطلحات والوظائف والألقاب

الأماكِنُ والبُلْدانُ

الطَّوائِفُ والجَمَاعَاتُ

أسماء الكتب

المؤلفون